

كتاب الشعب
١٩
أساطير
من الشرق
سليمان مظهر

كتاب الشعب
١٩



من الشرق

الطبعة الأولى

سليمان مظهر

مطابع الشعب
١٩٥٨



فى أذهان بعض الناس أن الأساطير ليست سوى « حواديت » تروى حول « المدفأة » فى ليالى الشتاء الباردة ، لا هدف من ورائها سوى التسلية والمتعة وقطع الوقت . . .

ويخطىء هؤلاء إذ يأخذون الأساطير على أنها خرافة فحسب ، ليس فيها من الواقع أو الأهداف شىء سوى ماتضم من خيالات غريبة شاردة لاتصلح لغير الأطفال . .

وما كانت الأساطير شيئا من ذلك أبدا ، وإلا لما استطاعت قط أن تكون هى العمد الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ، ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان المتباينة من الآداب والفنون .

فقد رافقت الأسطورة الانسان منذ نشأته وما تزال ترافقه .

وفى كل أسطورة تتمثل عقائد أصحابها ومثلهم وعاداتهم ، وتتضح نظرتهم وفلسفتهم فى الحياة ، وهى تعطى فكرة كاملة عن الروح المتأصل فى هذه البلاد التى انحدرت فى صراعها العنيف من أجل الحرية والخير والسلام .

وما من أمة ارتفع شأنها أو هان إلا ولها أساطيرها ، وهى فى كل ألوانها ــ سواء كانت إلهية أو بطولية أو غرامية أو خلقية أو فكاهية ــ إنما تمثل جزءا ضخما من التراث القومى الذى يتلقاه الناس جيلا بعد جيل ، ويمتزج بنفوسهم حتى يصبح جانبا حيويا فى نفوسهم وحيواتهم .

ولا شك أن كل هذه الأساطير قائمة على أساس من الحقيقة . غير أن الخيال الانسانى مع مر الأيام ألبس الحقيقة من الأوهام أردية جعلتها بعيدة عن المعقول ، وإن تكن قريبة محببة الى النفوس .

ومع ذلك ، فأغلب الأساطير يدور حول إنشاء حياة أفضل . وهى محاولات نشأت مع نشوء الانسان ، يفسر بها أهم المشاكل التى واجهته فى بدء حياته على الأرض ، وعلى رأسها مشكلة خلق الكون ، ويجتاز



بوساطتها الهوة بين العالم الذى يعيش فيه والكون الغامض الذى يحيط به ، ويحاول بها الوصول الى معرفة سر القوى المسيطرة على العالم كله ، ولماذا يقع الشر ، وكيف ينتصر الخير .

وبالرغم من أن الانسان يظن ثقة قد تحرر اليوم من هذه المحاولات ، إلا أنه فى خضم غروره ، ينسى أن محاولاته الحالية للوصول الى الكواكب ، ومغالبة الفضاء ، ليست سوى محاولات أخرى متطورة لمعرفة أسرار الكون . وهى وإن كانت اليوم تبلغ ذروة عالية من ذرى الحضارة ، إلا أنها لاتختلف فى شىء عما كان يملأ ذهن الانسان القديم ، بالقياس الى المراحل الحضارية التى كان يعيش فيها ويترعرع بين أحضانها .

قصة الخلق :

هذه هى حقيقة الأساطير . . التى يقول عنها سير « جوم » إنها علوم عصر ماقبل العلوم . .

وهذه الحقيقة تتضح تماما عندما يتلمس المرء قصة الأساطير منذ بدأت ، وقصة منشىء الأساطير نفسه منذ خلق . .

فقد عاش الانسان أول أمره حياة بدائية محاطة بعنات الأخطار والأسرار . وحملته مدهشات الكون وأعاجيبه التى لم يستطع إدراكها ادراكا علميا ، على أن يتوهم لها تفسيرا ، ويتخيل أصولا ووقائع يرجع اليها ويزيل حيرة نفسه . . .

وكان أول ما ملأ يأسه من تلك الخوارق التي تحيط به ، إيمانه بوجود قوى مسيطرة خالقة عاقلة ذات قدرة أسمى من قدرة كل العناصر والكائنات .

وبدأ الانسان يتأمل تلك القوى ، ويجسم كل شيء خارق منها يحسه ولا يستطيع الوصول إليه فيجعله إلها ، يعمل على استرضائه بتقديم الضحايا والقرابين .. فالنار والرياح والشمس والقمر والنجوم والمياه والبرق والرعد ، كلها آلهة خلق الانسان ينسج حولها القصص ، ويتناقلها خلفا عن سلف ، جيلا بعد جيل .

ولكن الانسان أخذ يعجب بعد ذلك لكل تلك القوى .. كيف جاءت هي الأخرى ! ؟ لابد ان هناك شيئا خالقا ، شيئا أقوى من كل شيء ، استطاع ان يصنع وحده كل تلك الأشياء ..

ومن هنا كانت أقدم الأساطير التي وضعها الانسان هي أساطير الخلق ، نسجها حافلة بما تصوره لهذا الخالق ، وكيف أقام السماء والأرض ، وكيف جاءت الكائنات على اختلاف صورها واشكالها لتعمر الكون .

المجتمع الالهي :

تصور الانسان الخالق الأول ، مصدرا رئيسيا للقوة والخلق ، يهيمن على كل شيء ، ويسيطر على أركان الكون الشاسع . تصور هذا الخالق ومن حوله الآلهة الآخرون ، ينظمون الحياة على الأرض ، ويبصرون أعمال الناس ، ويثيبون المحسن ، وينكلون بالمسيء .

وتباينت صور هذا الخالق في أذهان البشر ، حتى آمن البعض بفكرة الرب الواحد ، الذي يتمثل دائما في رب الأرباب أو كبير الآلهة ، وجعلوا الآلهة الاخرى اتباعاله يكلفهم مساعدته،ويكل لكل منهم مهمة معينة، ويمنحهم قوى خاصة يمارسونها تارة بارشاده ،وطورا من تلقاء أنفسهم ، دون أن يغوى في ذلك مساس به أو تجريد لما له من ربوبية مطلقة ، وسلطان شامل على كل شيء .. !

وكان لابد للانسان بعد ذلك ان يتخيل ذلك المجتمع الالهي الذي يختلط فيه آلهة مختلفو النزعات والأهداف والمهام ، فيهم الذكر وفيهم الانثى . وكان لابد أيضا أن تختلط تلك الصور في ذهنه بالعالم الأرضي الذي يعيش فيه هو نفسه ، فنسج في أساطيره كل ماتخيله لذلك المجتمع الالهي،من صور الصراع والنزاع والحسد والطمع والجشع والخير والشر ، مما يراه كل يوم ويشهده في العالم البشري .

قصة الطوفان :

عندما تصور الانسان مجتمع الآلهة وتخيله ، بدأ يربط بينه وبين مجتمعه ، حيث كان لابد من اتصال الآلهة والبشر ، واشتباك اعمال هؤلاء باعمال اولئك ، فنشأت صور جديدة ترسم ذلك الاتصال ، ثم الاشتباك ، ثم الصراع الذى كان لابد ان يكون ..!

وهنا تصور الانسان قصة الطوفان .. قصة أول صراع بين الآلهة والبشر ، حين يمعن اهل الأرض في الفساد والسخرية بالآلهة ، فيغضب الآلهة عليهم ، وينزلون بهم نقمتهم بغمر صاخب تنفجر له عيون السماء ، فيهبط طوفان هائل يقضي على البشر المفسدين ، إلا واحدا يصطفيه الآلهة فينجو في فلك يصنعه ، وعلى يديه تعود الحياة من جديد .

وبدت صورة الطوفان واضحة في مختلف الأساطير ، وتماثلت صورة الانسان الذى اصطفته السماء ، فهو شمس نبشتين عند البابليين،وتجتوج عند السومريين، وكزيزوتروس عند الاشوريين ، ودوكاليون عند الاغريق ..

الأبطال والخوارق :

عاد الانسان يطل الى الأشياء الغامضة التي تحيط به ... فَوَهِمَ أن لكل شيء حوله نفس الصفات التي له ، وافترض ان للجماد روحا وللنبات روحا وللآلهة روحا . وانها تتصرف تماما كالانسان : تحب وتكره ، وترضى وتغضب ، وتفعل كل ما يفعله هو نفسه .. !

واستمر الانسان في صراعه مع الطبيعة ، ومع الحيوان .. صراع عنيف ينتصر فيه الانسان مرة والطبيعة والحيوان مرات ، فما كان لدى الانسان سوى وسائل بدائية بسيطة ساذجة ، للنزول بها في معترك هذا الصراع الرهيب .

ولم تعد وسائل الحرب المادية البسيطة تكفي ذلك الانسان ، وهو يصارع قوى اشد منه وأقدر . فبدأ يتصور بخياله كائنات تستطيع بقواها الخارقة منازلة أعدائه ، ومن خلال خيالاته بدأ يستعين بأصحاب الخوارق فيما لم يستطع ان يفعله بنفسه ، فصور أنصاف آلهة يستمدون قواهم من السماء ، وصور ابطالا خارقين تتمثل فيهم مظاهر القوة عند الحيوان، ومظاهر الجبروت عند الآلهة . ومن هنا ظهر جلجميش وأنجيدو عند البابليين ، ورستم عند الفرس ،وهرقل عند الاغريق ، وأمثالهم كثيرون في عالم الاساطير .

مجتمع الجن :

لم يكتف الانسان خلال بحثه عن مصادر القوة التي تساعده على الاعداء بمثل هؤلاء الأبطال . فبدأ يتخيل

من جديد كائنات أخرى تستطيع القيام بما يعجز عن الاتيان به والوصول إليه ..

وهنا ظهر الجن في أساطير الانسان .. جن خيرون يستطيع بوساطتهم الوصول الى مايجد نفسه عاجزا عن بلوغه بغير شيء خارق ، وجن شريرون يساعدونه في الانتقام من الاعداء عند تصور أقصى أنواع الشر في مجال الشر . وجعل الانسان للجن من القوى والسمات الفائقة مايقدمهم عليه هو نفسه ، مادام هو أدنى قوة وأقل من الجن سلطانا .. !

تصور الانسان أن مجتمع الجن مثل مجتمع الانس من حيث التركيب .. ففيه حكام وامراء وفيه اجراء وصعاليك ، وفيه خيرون وشريرون ، ولكن أهم صفات هذا المجتمع أنه يساكن الانسان ويعاشره .. يساكنه في جسمه وفي ثوبه وفي طعامه وفي تفكيره وفي علاقاته الجنسية وفي أخفى خواطره .. !

هكذا تخيل الانسان الجن الذين لايراهم رأي العين ويوهم دائما في الوقت نفسه . وأنشأ حولهم مجموعة غزيرة من الأساطير ، وأدخلهم دائما خلال صراعه بين الخير والشر ، وبين البشر والآلهة ، ونظم أسلوبا للتعامل بينه وبينهم ، وجعل عالمهم تصاعديا مطبوعا بالسلطة شأن المجتمع البشري الاقطاعي ، وأضاف إلى أشخاصهم صفات الشذوذ في الهيئة والمسكن والسلوك والصوت .. حتى يستطيع بذلك أن ينم عن صفاتهم الخارقة للمصطلح العام ، ويدل على التميز البالغ حد التفوق .

السحر والسحرة :

غير أن أشياء أخرى في تفكير الانسان دفعته الى البحث عن وسائل جديدة لبلوغ أهدافه .. وسائل يستطيع أن يلمسها ويتبينها بنفسه في الوقت الذي لايستطيع فيه أن يلمس ويتبين أشخاص الجن .. وهنا .. اتجه الانسان نحو السحر .. وفي كتاب الأدب الشعبي يقول مؤلفه الأستاذ رشدي صالح :

« ونحن إذا نظرنا الى السحر الآن بتقديرنا الحديث رفضناه ، واعتبرناه أسلوبا من التصرف الساذج ، ولكنه كان في التاريخ القديم قائما على استخدام القوة الخفية للكلمة ، لأن اختراع اللغة ، أي استبدال الصوت بالاشارة أو الرسم — كان انقلابا مذهلا بالنسبة للانسان البدائي ، فاعتقد أن في الصوت قوة خارقة تستطيع إذا نظمت في نسق جميل — أي تعويذة — وتليت مرارا ، أن تفرض سلطانها على أي ظاهرة أو كائن أو إله . ومن هنا اعتقد المصريون القدماء مثلا أن الكلمة هي الأداة الالهية في خلق العالم ، حتى إن اتون رع يقول في أسطورته : « خلقت كل الأشياء مما يخرج من فمي عندما لم تكن ثمة سماء ولا أرض » .

هذه القوة الخفية للكلمة هي قوة الالزام أو الربط .. وتتضح تلك القوة مما جاء في تعويذة ايزيس وهي تطرد الألم من جسد رع فتقول : « اخرج أيها السم . اخرج من جسد رع .. اخرج من جسد رع المحترق . لاني أقول التعويذة .. انى أنا التى آمر ، انى أنا التى أبعث بالرسالة .. اخرج على الأرض أيها السم القوى .. ولتعلم أن الاله الكبير قد أسر في أذني باسمه الكبير .. ! »

وهكذا أصبح السحر في عقيدة القدماء بمثابة الروح من شعائر تلك العبادة . وتصور الانسان محاولات جديدة لاسترضاء الآلهة والقوى الخفية التي ظل يجهل طبيعتها وغاياتها ، فعمل على اجتلابها في صفه لمعونته ، ولم يجد سوى السحر سبيلا الى ذلك ، باعتباره القوة الجديدة التي يستطيع بها أن يقهر القوى المناهضة له أو الخارقة لكل مستطاع ، وهكذا شاع الاعتقاد بأن الرقية أو التعويذة أو القسم يجبر القوى الخفية على أن تطيع الانسان .. حتى اننا نقرأ في ألف ليلة وليلة كيف أن من ينطق بكلمة « افتح ياسمسم » يلزم هذه القوى على أن تشق الصخرة وتفتحها .. !

ولم يكن ذلك وحده ماتستطيعه التعويذة السحرية ، بل إنها لتمكن الانسان من تسخير القوى الخفية أيضا في ربط أعدائه ، حتى إن البابليين كانوا حين يدعون على أعدائهم يقولون : « ليقع عليكم حبل الله » . فكأنما الله إذا أراد أن يقتل انسانا أو يشل حركته لزمه أن يستخدم حبلا . وتقول أسطورة طمهورث الفارسية إنه ربط اهرمان ليمنعه من إنزال الشر بالناس . وتصور أسطورة برميثيوس الاغريقية أن العقاب الالهى كان بربطه الى صخرة .. وهكذا استطاع الانسان وقف غرمائه وأعدائه — أي وقف الشر — بالرقية أو التعويذة السحرية . وجعل السحر بذلك أساسا جديدا لصراعه مع العالم المجهول .

تشابه الأساطير :

كان كل ذلك إذن أصلا لأساطير الانسان في مختلف حضاراته وبيئاته .. تلك الأساطير التي جاءت في أغلبها متشابهة متفقة تثير الحيرة والتساؤل من علة تشابه أساطير المصريين مثلا مع أساطير الهنود والفرس والصين والاغريق والأوربيين أيضا . هذا التساؤل يجيب عنه بعض الدارسين بأن الجنس

البشري كله قد نشأ أول مانشأ فى مكان واحد ثم تفرق وارتحلت معه معتقداته واساطيره . ويذهب آخرون إلى أن حياة الانسان لم تظهر فى مكان واحد بل فى أمكنة متفرقة ، ولكن قام بين مختلف هذه الأوطان علاقات ثقافية هاجرت معها الاساطير وسواها من عناصر التراث القديم من أمة إلى أمة . وثم رأى ثالث يقول إن سبب التشابه هو تشابه ظروف تطور التاريخ الانسانى عامة وانتقاله من حالات قامت فى كل موطن ، إلى حالات اخرى قامت فى هذا الوطن نفسه.

ومهما يكن الأمر ، فالثابت برغم تشابه العناصر الأولى لكل هذه الأساطير ، أن ثم اختلافا وتباينا واضحا فى تفاصيلها . فكل امة شكلت اساطيرها حسب ظروفها الطبيعية ذاتها .. فالمجتمعات التى استقرت فى أرض زراعية تشكل أساطيرها فى اهم مايشغلها وهو الماء والنماء وخصوبة الأرض . والمجتمعات التى عاشت على الصيد تشكل اساطيرها فيما يشغلها من الحيوان وأدوات الصيد وشياطين الغاب . والمجتمعات التى يحيط بها البحر تشكل أساطيرها على العواصف والأمواج والحور والجنيات !

وكما تباينت تفاصيل أساطير الأمم ، تباينت أيضا اشكال أساطير الأمة الواحدة . فمع كل تلك المراحل من ظروف الحياة تنوعت الأساطير ، فكانت هناك الاساطير الالهية التى ترتبط بما وراء الطبيعة ارتباطا تفسره العلاقات المتبادلة بين الآلهة والبشر والتى ينتصر الآلهة فيها دائما ، والاساطير التى تتناول الخوارق التى تدور حول أنصاف الآلهة والأبطال خارقى القوة المتمتعين بقدرة جسدية أو معنوية فائقة ، والأساطير التى تدور حول وسائل البشر فى التخلص من مآزق البيئة التى تحيط بهم ، والأساطير التى تهدف الى وضع أسس خلقية يتباين فيها الصراع الدائم بين الخير والشر ..!

اصول العادات الحديثة :

ومع كل ذلك ، يجب الا ننسى ان هذه الأساطير التى عاشت حتى بدأت الديانات السماوية فأخذت تتلاشى كنظام حل محله النظام الدينى ... هذه الأساطير لايزال لها بقايا فى معتقد كل امة ، حتى الأمم التى تعيش فى ظل الصناعة والعلوم ، بقايا لاتزال مسيطرة على العادات والتقاليد والثقافة الانسانية بوجه عام .. !

من ذلك أن الفراعنة فسروا الفيضان فى أساطيرهم بانه فيض الدموع التى تسفحها ايزيس وهى تبكى اخاها أوزيريس الذى قتله ست . وعندما جاءت المسيحية مصر وأزالت عبادة ايزيس ، استمرت أسطورتها تعيش فى معتقد الفلاحين فى شكل اسطورة مسيحية جديدة تقول إن الفيضان ينبع من دموع القديس ميخائيل الذى كان كلما حل ميعاد الفيضان يدخل على العرش الالهى يرجو الله أن يرحم عباده المصريين فيأمر بزيادة النيل ، ويظل يتضرع ويبكى حتى يستجاب دعاؤه ويفيض النيل من فيض دموعه !

الأساطير للجميع :

وبعد .. فهذه هى قصة الأساطير التى دفعتنى إلى تقديمها لقراء العربية إيمانى بانها لون رائع من الوان الأدب الممتزج بالتاريخ .. لابد لكل صغير وكبير من الالمام بها لفهم معتقدات البشر وعاداتهم وطبائعهم، وإدراك المثل والروح المتأصل لكل شعوب هذا العالم الكبير . وقد اخذت على عاتقى فى هذا الكتاب تقديم بعض أساطير الشرق ، بعد إخراجها من الطلاسم المترمت وتبسيطها وتقديمها فى صورة حية ، سهلة التناول ، تطرب لها نفوس القارئين .

سليمان مظهر





كان « رع إله الشمس » أشهر الآلهة الذين حاول الكهنة في مصر القديمة ، أن يقربوا بها إلى الأذهان أبعاد فكرة الخالق العظيم الواحد الذي هو الأصل في خلقة كل شيء .
وقد جعلوا لرع من الذرية ثمانية أبناء .. أربعة ذكور وأربع إناث ، كل ذكر منهم مزدوج بأنثى : شو وتفنوت رمز الهواء والماء ؛ وجب ونوت رمز الأرض والسماء ، وأوزيريس وإيزيس رمز النيل والتربة ؛ وست ونفتيس رمز الصحراء والبوادي .

وتقول العقيدة القديمة « أن السماء كانت لا تزال متصلة بالأرض حين تمرد البشر على الآلهة الذين كانوا يعيشون بينهم ، وازداد بالبشر الفساد حتى ثار غضب رع وقرر أن ينزل بهم نقمته ، ووقع طوفان من الدم ، ونجا الإله حين حافظ على بعض من الناس ، غير أنه منذ ذلك اليوم امتنع من مخالطتهم وفصل السماء عن الأرض ليجعل منها مقاما ومسكنا ، ولتشرف من فوقها على كل أبناء البشرية .. »



وكان الفلاحون يهاجم بعضهم بعضا ... ويسخرون من « رع » أبي الآلهة

هناك .. في قلب هليوبوليس .. كان يقبع قصر فخم لم تعرف مصر قصرا مثله على الإطلاق ، أمام أبوابه تنتصب مسلات شامخة ، وعُمد ضخمة .. وعلى جوانب ممراته تصطف تماثيل أسود وكباش ، ترقب كل زائر غريب ، وتنحى كل مارد رجيم . أما القصر نفسه ، فيموج بجموع هائلة من الخدم ، كلهم عيون مفتوحة ، وآذان مرهفة ، في حراسة الإله الأكبر « رع » رب القصر العظيم .

وهنا ... في هذا القصر .. كانت تجرى قصة الحياة ...

يفتح رع إله الشمس عينيه ، فيبزغ الفجر على الوجود . وينهض من فراشه ليتدلف الى الحمام ليستحم بالماء البارد . ويقبل عليه « أنوبيس » إله التحنيط فتنصب عليه أباريقها الأربعة الطاهرة . وينطلق « حوريس » فيدلك جسده . وينحني « توت » فيجفف ساقيه . وما يكاد الجميع ينتهون ، حتى يرتدي الإله الأكبر ملابسه الثلاثة ذات البريق . وينطلق ومن أمامه الرسل تتسابق لاخلاء الطريق ، ومن حوله جنود الموكب فيتخذون حتى تلامس جباههم غبار الأرض . ويصل الإله الى زورقه الفلوكي الراسي على ضفة النهر ، فيستقله منزلقا به فوق الأمواه بلا مجداف ولا شراع ولا سكان (1) ويطلع النهار فيهتف الناس والآلهة على الضفتين :

« تباركت يارع . . يا خالق السموات والأرض ! يامرسي الجبال وساقي البحار ! يارسول الفرح والحرارة والضوء الى أرض السلام . . ! »

ومن المشرق تبدأ دورة كل يوم ، لتنتهي بعد ذلك في المغرب ، حيث يختفي موكب رع في طيات الأفق ، فتظلم الأرض ، وتضيء ظلمات العالم السفلي . . إقليم الجحيم الرابض في الأعماق . وهناك ، يستمر مسير الإله على صفحة نهر كبير ، يخترق واديا يتفرع الى اثنى عشر فرعا ، تفصل كل واحد منها عن الآخر جدران شاهقة ذات أبواب ضخام . . .

وتجري رحلة الليل كما تجري كل يوم . وتمر الساعات هادئة طوالا والإله لا يزال يسير ، حتى يلج الباب الذي يوصل الى حدائق « ايالو » ، حيث يرقد رقدة قصيرة في قصره الكبير ، ما أسرع ما ينهض بعدها ليبزغ الفجر ، وتبدأ إشراقة يوم جديد !

* * *

وكان الناس . . كل الناس في هذا العالم الكبير . . يسجدون لرب النور كل صباح . . الرب السخي على كل خلقه في هذه الأرض . فهو لاينى طوال تسياره يصرف كل أنواع الأعمال . يقابل الخلق ويهديهم . ويقضي في شكاوى المظلومين . ويرفق بالمعذبين فيزيل عنهم الأوجاع . ويعلم الناس تعاويذ الوقاية من خطر الثعابين والحيات . ويمنحهم الطلاسم التي تطرد كل شرير من الأرواح . ولم يبخل رع على الناس أبدا بما يحمل من تعاويذ وطلاسم ، حتى لم يبق له منها سوى سر اسمه الالهي ، الذي أطلقه عليه والداه يوم ولد ، ولم يبوحا به لأحد سواه . هذا الاسم كان هو وحده سر القوة التي يحكم بها رع عالمه الكبير . وكان يعرف أن من يصل الى معرفة سر اسمه القدسي ، بشرا كان أو إلها ، فانه يستطيع السيطرة على كل شيء في الأرض وفي السماء . . !

والحق أن أحدا من الآلهة والبشر لم يكن ليطمع في ذلك السلطان والجبروت سوى إيزيس . فقد طالما ابهرتها مظاهر القوة التي يتمتع بها أبو الآلهة ، وتلك القدرة التي يطوي سلطانها كل شيء . وما أكثر ما تمنت إيزيس في أعماق نفسها أن تعرف سر ذلك الاسم القدسي الغامض الذي يخفيه إله الشمس . حتى تمتلك بفضله السحري كل الأرض وكل السماء ، وتصبح به من بعد كبيرة الآلهة . . !

منذ ذلك الوقت امتلأ رأس إيزيس بفكرة الوصول الى سر اسم الإله الخالد . فراحت تتابع رع في غدوه ورواحه ، ترقب وتتحسس ، حتى إذا ما أحست أن الإله قد بدأ ينوء تحت عبء السنين ، وتقوست قامته بدبيب الشيخوخة ، ولم يعد يستطيع أن يضم فكيه ، أو يقفل فمه ، أو يمنع اللعاب القدسي من أن يسيل على الأرض . . هنا فقط أحست أنها تستطيع أن تتغلب عليه ، لو هي استعملت مكر النساء . . !

والحق ، أن إيزيس كانت أشد مكرا من ملايين من الرجال ، وأقدر حيلة من ملايين من الأرواح . ومن خلال ذلك المكر وتلك الحيلة ، عثرت إيزيس على الوسيلة التي تستخلص بها سر الاسم الالهي الذي يخفيه رع . . . من بين شفتيه هو نفسه . . .

لقد كانت تعلم أن التعاويذ والرقى لاتنجح في شفاء أمراض الآلهة والبشر سواء ، الا اذا اختلطت في التلاوة باسم المصاب نفسه . . اسمه الحقيقي . . الاسم المسلط على الشيطان الموجع الذي يسبب الأوجاع . فهي إذا استطاعت أن تصيب الإله الأكبر بمرض خبيث ، أو أذى مستعص ، فلن يستطيع أحد ، بشرا كان أو إلها ، أن يشفيه . اما هي ، فلن يكون أمامها سوى أن تتقدم اليه ، وتقنعه بأن يراد في مقدورها هي وحدها ، على أن تخلط في التلاوة اسمه الحقيقي بالتعاويذ . وهنا فقط . . سيجد الإله نفسه بين أمرين : إما أن يتحمل الألم الفظيع الموجع ، وإما أن يكشف لها سر اسمه القدسي . . وهو كل ماتبغيه !

شيء واحد كان يقف عقبة في سبيل التنفيذ . . هو كيف تستطيع أن تسبب له الأذى ، وما من أحد يملك قط أن يؤذيه ، بغير أن يستعمل سر الاسم في تعويذة الشيطان . . ؟!

ولكن المكر النسوي لم يعجز عن بلوغ سبيل آخر

---

(1) السكان : خشبة السفينة (أو ما يعبر عنه بالدفة) .

.. فقد كانت تعرف أن لعاب القدس المتساقط من فم رع يستطيع أن يمنح قوة السحر القدسية لأى شىء يختلط به ...

وهذا هو ما يجب أن تهتم به .. !

وانطلقت إيزيس تتبع رع أينما ذهب وسار، حتى إذا ما شهدت بعض اللعاب يسيل من بين فكيه على تراب الارض، اسرعت فأخذت حفنة من التراب مزجتها باللعاب المقدس، وعجنتها بيديها اللبقتين فى شكل حية .. فتية تمام الشبه تلك الحية التى تتوج رءوس الآلهة والفراعين. وفى غبار الطريق الذى يمر به رع خلال رحلة كل يوم، دفنت إيزيس حيتها بعد أن نفخت فيها الحياة بتعاويذ سحرية تحيى الجماد !

وجاء الصباح .. وانطلق رب الشمس يستأنف رحلة السير الخالدة. وبينما هو فى طريقه إذ مر حيث ترقد الحية المسحورة .. وفى لحظة، كانت قد أنشبت فى قدمه نابها، وأفرغت من السم نارا صاح لها الاله صيحة ارتجت لها جنبات الكون، واضطربت العربة فى يده واهتزت، فاندفع رع هائما يجرى ويصرخ، حتى استقر فى « ايالو » ممدد على الأرض، والدموع تنهمر من عينيه مما يعانى من ألم مرير ...

وهرعت من السماء أصوات الآلهة وهى تنطلق مسرعة الى حيث يرقد رع، ولكن الاله الاكبر كان يرتعش وينتفض، ولا يستطيع كلاما قط، بينما السم الزعاف يتسرب الى كل عضو فيه، ويسرى فى عروقه كالنيل عندما يدفع امواهه الى الاراضى العطشى أثناء الفيضان.

ومرت الساعات طويلة رهيبة قبل أن ينتبه الاله الى ما حوله، وعندما فتح عينيه دعا إليه من احاط به من الآلهة، وشرع يشرح لهم ما جرى فى صوت أليم خفيض:

— استمعوا يامن خلقتكم قدرتى. لقد وخزنى شىء آذانى وأوجعنى وجعا لا حدّ له. ذلك الشىء لم اصنعه ولم اخلقه ولم تصنعه يدى كما صاغت المخلوقات كلها. فما سره؟ ومن الذى استطاع ان يؤذينى؟ إن احدا لا يعلم سر اسمى الذى منحه لى ابواى وظل مودعا مخبئا فى صدرى، ولا احد يستطيع أن يؤثر فى جسدى بسحر أو تعاويذ الا إذا عرف سر الاسم. فكيف أصبت بهذا الأذى؟ كيف .. كيف ... ؟؟

ولم يعرف الآلهة كيف يجيبون، وطال بهم السكوت حتى عاد رع يتحدث بهم فى صوت مختنق:

— ليمثل أمامى كل أبناء الآلهة الخبيرون بالتعاويذ الشافية والطلاسم الواقية، ليقرأوا التعاويذ القادرة على طرد الأذى الذى لحق بجسدى وأوجعنى أشد الوجع وآلمنى أبغض الابلام .. !

واقبل عليه الآلهة يبكون ويولولون، وبكل ما استطاعوا من قدرة راحوا يجربون تعاويذهم لتسكين آلام الاله. غير ان القدرة التى منحوها لم تكن تستطيع ان تخفف لدغة الثعبان الذى عجن جسده واختلط بالمادة المقدسة من لعاب الاله .. !

وصرخ رع يطلب إيزيس ربة السحر، التى تحمل ترياق الحياة، وتطرد كلماتها الآلام، وتوقظ همساتها الموتى ... !

ووقفت إيزيس تسأل رع :

— ما هذا الذى اصابك يا ابا الالهة ؟ اى مخلوق وخزك ؟ واى فرد من ابنائك انتفض عليك ؟

أجاب رع :

— لست ادرى يا ابنتى بأى قدرة استطاع من وخزنى ان يسبب لى الوجع والابلام ... فجربى تعاويذك وانشرى سحرك واخنقى الألم الذى يكاد يقضى على ...

قالت ايزيس :

— لاعليك يا ابا الالهة، ساجرب تعاويذى وأدحر خصمك اللعون .. ساجبره على الخضوع والاستسلام امام قدرة تعاويذى وكلماتى .. !

وانفض موكب الآلهة، وتركوا إيزيس ربة السحر تحاول دحر أوجاع الاله ...

* * *

خاطبت إيزيس رع فى صوت خفيض رقيق:

— إن سحرى سيطرد السم الزعاف، ويطرد عنك كل ما اصابك من اوجاع. فهيا يا أبا الالهة، بح لى بسر اسمك الالهى، اسمك القدسى الغامض، تمتع تعاويذى القوة، فترد عنك عدوك، وتزل عنك الغمة.

وانتفض رع. فما خطر بباله قط ان سيأتى يوم يضطر فيه الى البوح بسر اسمه القدسى. وداخله الريب فى إيزيس، واستشف من خلال كلماتها مكيدة تدبر له. وراح الاله يماطل ابنته، ويسرد متلطفا لها كل الألقاب التى يعرف بهـا فى السموات والأرض:

— انت تعرفين ان اسمى « خبرى » فى الصباح، و « رع » فى الظهر، و «تومو» فى المساء. وتعرفين

أن لى اسماء أخرى كثيرة ، واشكالا اخرى عديدة . فانا خالق السماء وخالق الارض .. انا شمس الصيف ووهج الظهيرة .. انا النور والظلام ، ومرسى الجبال ومجرى البحار .. أنا من يولد الضياء من فتح عينى ، ومن غمضهما يتولد الليل . أنا كل هؤلاء يا إيزيس ، فانطقى بتعاويذك وأبعدى من جسدى ما لا اطيق .

وابتسمت إيزيس وفى راسها منه سخريات كبار . وراحت ربة السحر تتلو التعاويذ واحدة تلو اخرى، وفى كل مرة تنطق واحدا من أسماء الاله ، فما صنعت كلها شيئا بالامه ، وما احس هو لها من برء على الاطلاق .

واستمرت إيزيس تطيل فى التلاوة ، والوقت يجرى ويمر ، والآلام تسرى وتزداد مع تسلل السم المختلط باللعاب القدسى فى كل عضو من اعضاء رع ...

وعادت ايزيس تتحدث من جديد :

— أبدا لن يستطيع اسم واحد من كل تلك الاسماء ان يشفيك . إن اسمك السرى الغامض هو وحده الذى يملك القدرة على منح تعاويذى ما يشفيك . هيا يا أبا الآلهة ، بح لى بسرك أشفك على الفور .. فأنت انت من يعلم أن السحر لايملك شيئا اذا لم يختلط بالاسم الحقيقى لاى مصاب .. ولو كان اسمك القدسى انت .. !

وسقط الاله على فخذيه ، والسم يسرى وينتشر فى جسده .. النار اللافحة تحرقه ، والبرد المثلج يغرقه ، وهو بين النار والجليد ينهار ولا يستطيع ان يفعل شيئا معا . . .

وجاء صريخ الاله .. فقد انتصرت عليه الاوجاع ، وحلت من لسانه القدسى عقدته .. ومن خلال الصرخة الهائلة نفث رع بتلك العبارة المؤدية الى كشف السر :

— ليتنقل اسمى الحقيقى من جسدى الى جسدك يا إيزيس .. افتحى مغاليق صدرى ايتها الابنة ينتقل سرى القدسى من احشائى الى احشائك ..

وفتحت ايزيس صدر الاله .. وانتزعت من حناياه الاسم السحرى . وغرقت ربة السحر تعويذتها باسم الاله ، فاندحر الأذى ، وتوقف السم ، وانتهى الألم الملعون .. !

وهنا فقط .. نجحت ايزيس . ومنذ ذلك اليوم صارت تقبض على سر السلطان والقدرة .. السر الذى يجعلها كبيرة الآلهة ، وربة الربات ، وصاحبة السيطرة والنفوذ على ابى الآلهة نفسه .. رع العظيم ..!!

* * *

مع زوال القوة ، ودبيب الشيخوخة ، نزل الهوان برع . وبدا الاله غير الاله ، ووضح العجز بدل المجد ، والانهيار بدل الصمود ...

واطل البشر من حولهم ، فاذا إلههم هرم عاجز ، شقى ساخط ، لايستطيع ان يفعل شيئا على الاطلاق ...

وهنا .. بدا الانقلاب ...

وبعد أن كان البشر يسجدون ويصلون للاله العظيم .. راحوا يسخرون ويضحون ويتغامزون.. ويهاجم بعضهم بعضا من اجل الهزء بأبى الآلهة .. ويقولون :

— انظروا .. لقد شاخ رع .. شاخ الذى عظامه من فضة ، ولحمه من ذهب ، وشعره من لازورد ..!

واضطرب رع ، واستشعر المهانة والخزى ، وملأه غضب ساخط على كل مخلوقاته فوق ظهر الارض.

وهتف رب الشمس فى الآلهة الذين يحيطون بموكبه كل يوم :

— ائتونى بابنتى سخمت ... وادعوا إلى آباء الآلهة والأمهات والأبناء . نادوا « نو » جدنا الأعظم الذى يسكن وسط السماء . ليأت الجميع الى قصرى سرا . بغير ضجة تنبه الناس ، او ترشدهم الى الاجتماع الالهى .. !

ومن كل اركان الكون ، حضر الآلهة . وانطلقت الجموع القدسية الى القصر الكبير يعقدون مؤتمرهم العائلى . وكما كانوا يفعلون من قبل ، ضرب الآلهة حلقتهم حول عرش رع ، وعفروا جباههم بالتراب امامه . وعندما انتهت مراسم اللقاء ، تحدث رع ، وسكت الجميع :

— أيها الآلهة ، اجدادى وابنائى .. ها انتم اولاء ترون البشر مخلوقاتى التى خرجتها من فمى عندما لم تكن سماء ولا ارض ، يتهامسون على ويتآمرون بى . لقد أصبحوا يتعمدون احتقارى ويسخرون بهيبتى ونفوذى . فما الذى انتم بهم فاعلون ؟

وتكلم «نو» الجد الأعظم لكل الآلهة .. ذلك الذى يسكن وسط السماء :

— وما الذى تراه ايها الاله .. ؟ !

وأجابه رع :

— أيهنا الجنين العظيم .. يامن متحتني سر الوجود .. إنما أنت الذى يشير على بما أفعل مع العبيد المارقين ..

ومن جديد تكلم نو :

— يا ولدى رع . يا إلها أكبر من الاله الذى صنعك .. احكم بالعدل ، وأقم الدعوى على المذنبين حتى يبين المارق فيعاقب ، ويظهر المذنب فيدان.

ولم يقتنع رع :

— إذا نحن انتظرنا حتى نقيم العدل ، استشعر المارقون بالخوف ، وعرفوا المصير الذى سيأخذ بالمذنبين ... فى ذلك الوقت سيصعدون الى الصحارى والقفار يختبئون فيها ، ولا يعود لنا إليهم من سبيل .. !

وتشاور الآلهة ، ثم أحنوا جباههم وهم يقولون مجتمعين :

— ليعاقب البشر دون محاكمة .. ولكن عينك الالهية .. ابنتك العزيزة « سخمت » .. هي الجلاد !

وهكذا كان ...

وانقضت «سخمت» لبؤة ممفيس ، وأشد الربات وطأة وشراسة وحبا للدماء .. انقضت تلاحق البشر فى كل مكان . تمزق لحمهم طعنا بالخناجر والانياب ، وتضرب هنا وهناك .. تذبح وتقتل ، وتعب الدم عبا ، انتقاما لأبيها المقدس ممن كانوا به يسخرون .

ومن كل أركان الأرض الفسيحة ، علت صرخات البشر ذليلة ضارعة تطلب الغفران . ومن عليائه أطل رع ، فاذا مصر كلها أنهار من دماء ، وصفوف طويلة من اجساد الأشقياء . واغمض الاله الرحيم عينيه ، فما تصور قط أن «سخمت» تفعل كل هذه الأفاعيل بأفراد شعبه الذين خلقتهم يداه .

وانقشع غضب رع ، واخذته بهم شفقة غامرة رحيمة ، وصاح فى ابنته :

— كفى يا ابنتى .. إنما اردنا معاقبتهم لا إبادتهم !

ولكن لبؤة ممفيس التى أسكرتها خمر الدم ، أبت أن تذعن لأبيها ، وصاحت فيه :

— بحق حياتك يارع إن هذى لنشط بالفتك والتقتيل .. فدعنى أنزل بالبشر كل مايستحقون من عقاب .

ولكن الفتك والتقتيل كانا شيئا بشعا مخيفا . ولم يلبث بعد من أن يسرع رع باتجاه رحلة النهار ، فيهبط الليل ، وسادت الظلمة ، وتوقفت ضارية الصلال من الطواف المجتاح على أمل أن تستأنفه فى الصباح .

واطل رع حزينا الى شعبه المسكين .. ابدا ماكان يريد لأبنائه من البشر تلك المجزرة الهائلة التى أنزلتها بهم الربة المتعطشة للدماء . ولا بد مع الصبح الجديد من وضع حد لعذاب أهل الأرض .

وهتف رع فيمن حوله من أرباب السماء أن يأتوه سراعا برسل حاذقين اسرع جريا من الهواء. وعندما أتوا أمرهم بالذهاب الى جزيرة « فيلة » وإحضار كمية هائلة من ثمار الرمان ، وثمار أخرى تجلب النوم .

وما هى إلا لحظات ، حتى كانت الثمار قد وصلت . وكان الاله قد استدعى طحان هليوبوليس وأمره بعصر الثمار ومزجها بمسحوق حب الشعير الذى أعدته الخادمات ليصنعن منه الجعة . وعندما امتزجت كل تلك الأشياء ، نتج عنها مزيج مسكر بلون كلون الدم البشرى ، يملأ ستة آلاف مكيال ، وامر رع بنقل المكاييل الى كل أنحاء الأرض . وصب الرسل السائل الأحمر فى كل مكان .. فامتلأت به الكهوف والحقول والأنهار .

وجاء الصباح . ونهضت « سخمت » تستأنف دورة التقتيل وعب الدماء . واطلت الربة أمامها فاذا طوفان شامل من الدم يغريها ويدعوها لرى الظمأ . وراحت ربة التقتيل تعب من السائل المسكر المخدر وهى تظنه دما بشريا صرفا حتى ارتوت. وظلت تشرب وتشرب حتى هدأت سورتها، ولان قلبها ،وانطلقت سكرى مخدرة لاتفكر فى متابعة التذبيح والتقتيل .. واستلقت فى راحة لتضع حدا للمجزرة المجنونة الهائلة .

* * *

وعادت الحياة من جديد على ظهر الأرض ...

واستمرت الأيام تمضى ، وفى أعقابها السنون ، والشيخوخة تنخر بدبيبها الثقيل فى جسد رع ، حتى يأتى زمن جديد يعود البشر فيه الى التهامس عليه ، والسخرية به ...

ويعود الى الاله حزنه . غير انه فى هذه المرة لايفكر قط فى تعذيب البشر ، بل تملؤه الرغبة فى التنحى من الملك ، والخلود الى الراحة والهدوء .

ويعلنها رع داوية فى مجمع الآلهة :

— لم اعد أطيق البشر بعد .. ولن يكون امامى إذا استمر بقائى بينهم إلا أن أبيدهم عن آخرهم .. !

وهتفت الآلهة فى دهشة :

— لا تتحدث عن المتاعب يا إله .. وابق حيث انت .. فالبشر لا زالوا فى حاجة اليك .

واجاب رع :

— لقد وهنت اعضائى ، ودب فى جسدى الانحلال .. ولن ابقى حتى تهون شيخوختى أكثر مما هانت . لهذا فسارحل الى حيث لا يصل إلى بشر قط .. !

ونادى رع ولديه شو .. إله الجو ، ونوت .. إله السماء ..

— يا ولدى شو .. انا تارك لك مقاليد الملك ، فاكمل مشيئتى وتول انت الأمر . وانت يا ابنتى نوت .. احملى اباك على ظهرك ودعيه معلقا فوق الارض .

وحاولت نوت ان تعترض . غير انها اذعنت للأمر لتحولت إلى بقرة ، وحملت اباها رع فوق ظهرها الكبير ..

وطلع الصباح التالى على الناس ، فاذا رع العظيم قد غادر قصره . واطل الناس امامهم ، والى ما فوق رءوسهم ، فاذا بقرة إلهية هائلة قائمة ومن فوق ظهرها الاله الغاضب من جديد على أهل الارض !

وسجد الناس ، وراحوا يتوسلون الى الاله العظيم ان يبقى بينهم . واذ وجدوا من العبث إقناعه .. قرروا أن يقدموا له برهانا على توبتهم .. فاقسموا له أن لن يكون الغد حتى يقتلوا امام عينيه كل الذين تهامسوا عليه وائتمروا به .. !

ورضى رع .. ونزل من فوق ظهر ابنته .. وعاد الى قصره الكبير .

وطلع الصباح التالى على الناس ، وقد خرجوا حاملين قواسهم وسهامهم يرمون بها خصوم الاله . ولم تستمر المذبحة طويلا .. فقد ارتفع صوت رع يخاطب الناس من جديد :

— مغفورة لكم خطاياكم يا ابنائى .. فانتم إذ ضحيتم بالمذنبين فانما كفرتم عن ذنوب سواهم من الناس .. !

واكتفى الناس بمن ضحوا بهم من مذنبين .. غير انهم اتفقوا على التضحية بعد ذلك بكل من يهين الاله .. حتى يتقوا غضبه ، ويكفروا عن إهانته ، ويتقربوا إليه .. !

ومع كل ذلك كان رع رحيما بابنائه من البشر .. فلم يحتمل قلبه أن يضحى بعض البشر ببعضهم تكفيراً عن ذنوب المذنبين .. فقرر أن يهديهم الى ان يستبدلوا بالمذنبين الثيران والطير فى القربان .. على أن يتلو الكاهن الذى يتولى تقديم القربان تعاويذ خاصة تحل الحيوانات محل المذنبين .

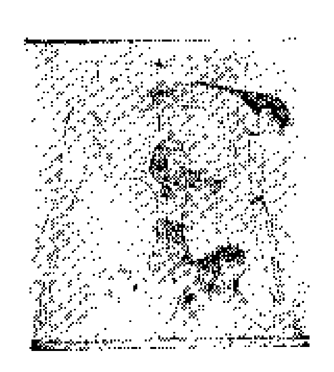
وهكذا ابرم الاله رع تحالفه مع من بقى حيا من البشر .. ثم أعتلى ظهر البقرة الالهية ابنته العزيزة نوت .. فارتفعت به وتقوست حتى اصبحت كالقبة .

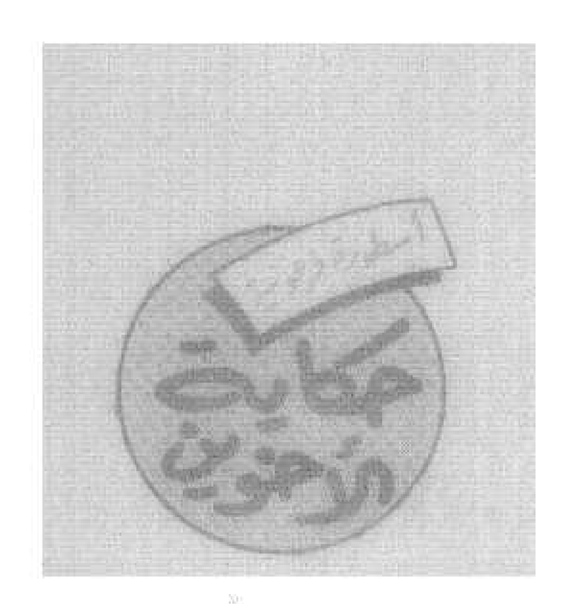
غير أن نوت لم تستطع أن تصمد طويلا . وكادت تنهار تحت ثقل رع ، فخارت قواها ، ووهنت قوائمها ، ولم تجد بدا من طلب يد العون . عندئذ قال رع :

— ياولدى شو .. ضع نفسك تحت إبنتى نوت ، وآزرها على حملى . أجعلها تستند على ذراعيك القويتين من الجانبين . واحفظها فوق راسك العظيم .

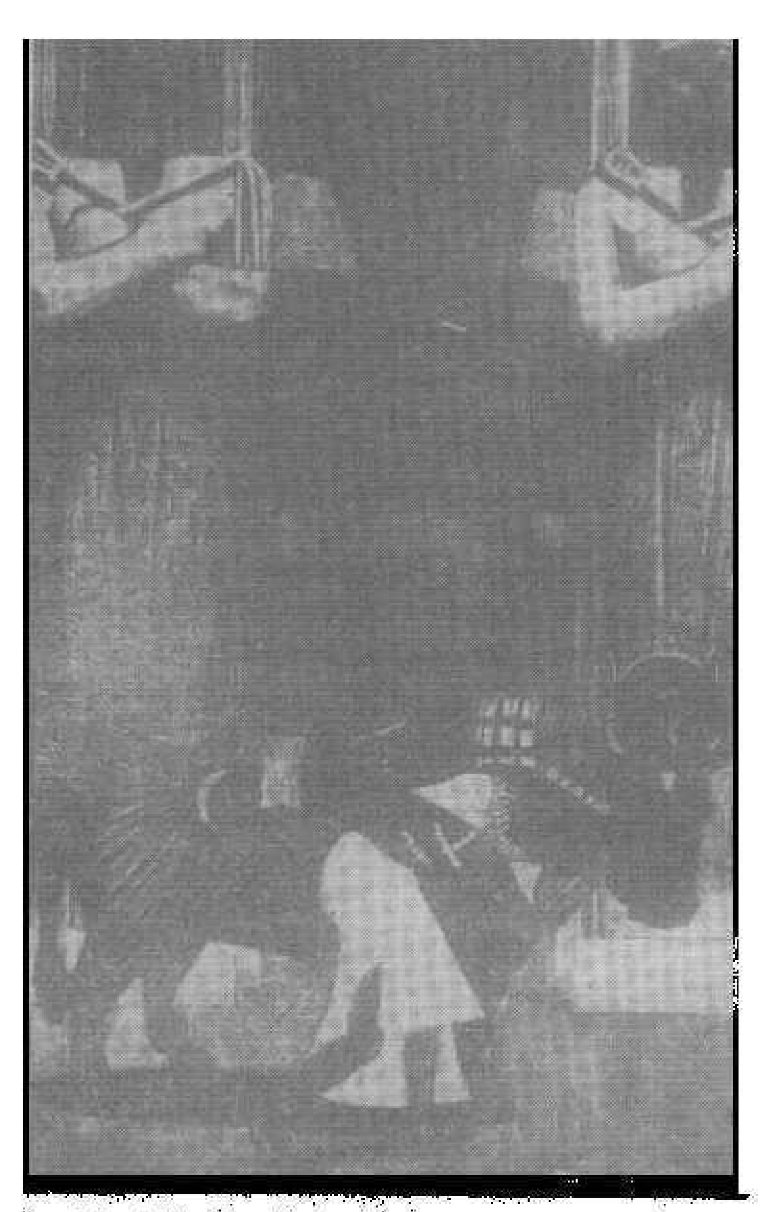
واطاع شو .. وسلمت نوت من السقوط .. وامتد بطنها كقبة زرقاء صارت هى نفسها فيما بعد السماء التى تغطى الكون . وراح رع ينثر على صفحتها النجوم لتنير الليل . وانصرف من بعد الى تنظيم العالم الجديد الذى اكتشفه من فوق ظهر البقرة المترامية الأطراف ...

واستمرت الحياة تسير .. !





لايكاد لنوع واحد من أنواع الاساطير يخلو من قصة المرأة التى تكون سببا فى صراع جبار بين اخوين . وهذه الاسطورة المصرية القديمة تعد مثلا رائعا لذلك اللون من الوان تلك القصة .. يتراءى من بين سطورها المستتر من وسائل المرأة فى غرس بذور العداء بين الاخوة ، كما يسفر من الوان اخرى من الغدر والخيانة والدماء ، تتفنن فيها المرأة سواء كانت من القديمة ام كانت من المحدثين ...



وانصتت امرأة فرعون تستمع الى الثور المقدس الذى فاجأها بقوله : انظرى .. هاأنذا حى .. !

« أنوبو » و« بايتى » شقيقان ، يملكان دارا صغيرة على ضفاف النيل العظيم ، يقيمان فيها معا . وكان أنوبو الأكبر متزوجا ، فكان يتولى شئون الادارة والتنظيم ، فى حين كان بايتى الأصغر عاملا ، يفرق الخيوط ويرعى البقر ويحرث الأرض .

وكان بايتى الصغير يعود من الحقل كل مساء ، يسوق بقراته فى هدوء ، وعلى ظهره حمل من حشائش الأرض يقدمه لها خلال الليل . وكان متى دخل الدار ، يحيى اخاه وامرأته ، ثم ينطلق الى « الحظيرة » يأكل ويشرب وينام . وما تكاد الشمس تستيقظ ، حتى ينهض من نومه ليعجن الدقيق ، وينضج الخبز ، ويقدم المائدة حافلة لأخيه وامرأته . وبعد ان ينتهى بايتى من تناول فتات الخبز ، يمنحه اخوه حصته ويصرفه الى شئون الحقل .. ويمضى الفتى فيسوق بقراته امامه ، وينطلق الى الحقل حيث ترعى البقرات وتسمن ، لتعود فتضع عجولا صغيرة كثيرة يستغلها « أنوبو » ويخفى لبنها ، ثم لايعطى اخاه منها شيئا قط .. !

وذات يوم ، عندما بدأ موسم إعداد الأرض للزرع ، ذهب الأخوان معا الى الحقل حيث يشقى الصغير ،

وبقيت الفتى ليشترك على العمل ، ويساعده في رسالته ، بأمر زوجي ، ولا يعرف شيئاً أبداً .

وعندما أخذ بابتى يحرث الأرض قال له انوبو :

— لقد حان وقت البذر .. فاذهب إلى الدار واحضر حفنة من البذور .

وذهب بابتى الصغير إلى البيت ، ودخل على امرأة أخيه ، وهي منهمكة في تصفيف شعرها الطويل ، وطلب الفتى من المرأة أن تعطيه كيس البذور ليعود مسرعاً إلى الحقل .. واشارت المرأة إلى قاعة المخزن ، وقالت له لكي تشترك أن يحضر الكيس الذي يريد .. ودخل بابتى المخزن ليحمل كيساً كبيراً ملأه قمحاً وشعيراً ، ثم رفعه على ظهره ، ومضى في طريقه إلى باب الدار ، ليسرع بالكيس إلى حيث ينتظر أخوه .

ورمقت المرأة ببصرها إلى الفتى .. كان يافعاً قوياً كأنه من الآلهة ، تطل من كل عضو من جسده قوة الشباب وعنفوانه .

واحست المرأة الآن في أعصابها النار ، وفي جسدها سموم الأفاعي . وقالت له وعينيها تنطلق دعوات كالصراخ :

— ما أثقل هذا الحمل فوق ظهرك .. ومع ذلك فأنت تبدو كمن يحمل ريشة .. !

واضطرب الفتى لإطراء زوجة أخيه .. ولكنه سار في طريقه كمن لم يسمع ، وعادت المرأة تقول له :

— ما اجمل ان يكون للمرأة زوج مثلك قوى ، مفتول العضلات ، مملوء بالعنفوان ! وما اتعس امرأة تعيش مع زوج مثل أخيك ! كما أعيش مع زوجي !

وازدادت المرأة اقتراباً من الفتى الصغير ، ووضعت كفها الساخنة على ذراعه المفتول وهي تهمس :

— إنك أقوى من أخيك يابابتى ، وأبهى منه منظراً وروعة .. لكم تمنيت أن أكون زوجتك أنت !

وانتفض الفتى كأن قد لدغته أفعى ، ودفع عنه امرأة أخيه في غضب وثورة ، وراح يلقى في أذنيها أقذع النعوت وأقبح الأوصاف لتعريضها بأخيه ، وكأنه ما أحس فزعاً آخر من وراء محاولات المرأة المشحونة بالإثم والعار ...

وفتح الفتى الباب ، وانطلق إلى الحقل ، وهو يجهد أن يخفى غضبه ، حتى لا يكتشف أخوه سره .

وانهمك الفتى في العمل ، وكأن شيئاً لم يحدث قط .. وما حاول أبداً أن يفتح فمه ليقص على أخيه من أمر زوجته شيئاً ...

أما هي .. فقد أرعبها أن يعرف زوجها الأمر . وامتلأت رغبة في الثأر من الفتى الذي طعن أنوثتها وأذل كبرياءها .. ولو أدى الأمر إلى القضاء عليه .

واخذت المرأة تلطخ جسمها بالطين ، وتخمش ذراعيها وكفيها ، لتوهم زوجها حين يعود بأنها آثار معركة عامرة بالمقاومة ، عندما حاول أخوه اغتصابها وأرغمها أن تستسلم له ..!!

وهبط الليل ، وسبق الأخ الأكبر أخاه إلى الدار ، في حين كان بابتى يسوق البقرات في الطريق إلى الحظيرة . وعجب انوبو عندما وجد امرأته لا تستقبله بباب الدار تحمل المصباح .. وزاد عجبه عندما وجد أنها لم تمد الماء لتسكبه على يديه وقدميه .. وانطلق إلى حجرتها ، وقد أحس شيئاً غير عادى ، ففوجئ بها راقدة تبكى وتتوجع ، وكل جسدها تلطخه آثار طين وتراب .. والخدوش تغطى منه كل الذراعين والكفين .. !

وقالت له المرأة ، من خلال الشهقات والدموع :

— إنه أخوك يا انوبو .. لقد حاول أن يفعلها معى عندما حضر ليأخذ البذور .. كنت أجلس أصفف شعرى فاقترب منى ، وألقى كيس البذور على الأرض ، وشرع يتفاخر بقوته ويسخر من ضعفك .. وعندما نهيته هاجمنى وألقانى على الأرض ، وحاول أن يسرق منى ما تملكه أنت وحدك .. وقاومته بكل عنف وإصرار وأنا أقول له إن أخاك كأبيك فلا تسرق عرضه .. ولكن الآثم كان لا يريد أن يغيب عن نظرات عينيه ، فاقسم أن ينالنى بالقوة .. وإذ امتنعت عليه أخذ يضربنى ويشتمنى حتى سقطت من إعياء .. ثم ظل يقسم أن يقتلنى إذا بحت لك بما حدث .. ومع هذا فأنا أشكو إليك ولا أخفى عنك أمراً .. وإن كنت أعلم أننى بذلك أضع حداً لحياتى التى سيسلبها منى عندما يعرف أننى أخبرتك .. هذا إذا لم تسبق أنت وتضع حداً لحياته هو !

واختلط الاثم والعار برأس انوبو .. ولم يطق تخيل تلك الصورة التى اطلع عليها من خلال كلمات امرأته ، فأخرج خنجره فشحذه ، وانطلق به إلى الحظيرة متربصا خلف الباب في انتظار وصول أخيه .

ومضت لحظات .. ثم ظهر بابتى وهو يسوق أمامه بقراته في الطريق إلى الحظيرة .. ولم تكد أولى البقرات تدلف من الباب حتى سمعها تقول له :

— حذار ، حذار .. إن أخاك متربص لك وراء الباب وفي يده خنجر مشحوذ .. فانج بنفسك !

ودخلت البقرة الثانية .. فسمعها هي الأخرى



ودخل باتي على امراة اخيه وهي منهمكة في تصفيف شعرها

تعيد ما قالت الأولى . وكلما دخلت بقرة جديدة سمع نفس التحذير والانذار .

واخذ العجب بالفتى الصغير .. وانحنى بناظريه يحاول استطلاع ما خلف الباب .. فاذا قدما أخيه تتحركان في بطء .. استعدادا للهجوم ..

وفي لحظة .. أدار باتي رأسه ، وانطلق يعدو بكل ما في جسده من قوة ، ومن خلفه انطلق اخوه رافعا خنجره الطويل المسنون .. !

واستعان باتي بالاله رع حورس ، واخذ يهتف في رعب :

— أيها الاله الشمس .. يامن تنتصر للمظلوم من الظالم ، اقم الحواجز والسدود بيني وبين اخي ... !

واستجاب الاله لدعوات الفتى . فاذا نهر هائل يجرى بينه وبين اخيه .. تمتلىء مياهه بأفواه التماسيح ، ولما رأى انبو ذلك توقف عن الجرى والتفت الى أخيه الواقف يغلي على الضفة الثانية :

— يا اخي انوبو .. ابق مكانك حتى تطلع الشمس .. فنحتكم بعدلها بيني وبينك ، ويأخذ كل واحد منا حقه . ولكني أنبئك منذ الآن انني ساذهب الى وادي الطلح .. ولن أقيم بعد ذلك في مكان تكون انت مقيما فيه .. !

وعندما طلع النهار ، وأشرق رع حورس ، وقف الاخوان يحتكمان إليه . وقال باتي يخاطب اخاه :

— لماذا حكمت على بالموت قبل ان تستمع الى دفاعي ؟ أنا لست خائنا ولا يمكن ان اكون . لقد بعثتني لاجلب البذور ، فراحت امرأتك تقول إنني اقوى منك واكثر متقوانا . وزينت لي الاثم وهي تقول إنها كانت تتمنى ان اكون أنا زوجها . فصفعتها ونهيتها ثم انصرفت . وفي الوقت الذي رفضت فيه ان اخبرك بالامر حفظا عليها ، كانت هي تختلق قصص الاثم لتقتص مني . واستمعت انت إلى الافعى فخنت اخوتي وغدرت بي ، واردت ان تقضى على !

وسكت الفتى لحظات وهو يمسح دموعه .. ثم عاد يقول :

— وبرغم كل ما اردت ان تصنع بي يا اخي ساصفح عنك .. فعد إلى بيتك وزوجتك ، واعتن وحدك ببقراتك . اما انا فساذهب الى وادي الطلح ، ولن اقيم بعد حيث تكون .. !

وبكى انوبو وهو يعتذر لاخيه :

— انا مؤمن بخطئي ، وسأعرف كيف انتقم من المرأة الخائنة .. ولكن انت يا اخي لا تشتط في غضبك ، وابق معي نعيش كأحسن ما يكون الاخوة ، وانزع عن رأسك هذه الافكار التي ملأته .. فلن تستطيع الحياة وحدك بوادي الطلح ، حيث الوحوش والشياطين .

وهز الفتى الصغير كتفيه وهو يجيب :

— لقد انتهى ما كان يربطنا منذ سللت خنجرك لتطعنني . ومع هذا ، فان كنت لاتزال تحب اخاك ، فسيمهد لك رع حورس سبيل التوبة عندما اقع انا في مصيبة ، ولا يكون هناك من احد ينقذني سواك .

وهتف أنوبو :

— كيف استطيع إنقاذك يا باتي ، وانت في وادي الطلح ، وانا اقيم هنا ، ولا ادرى من امرك شيئا .

قال له باتي :

— سأضع قلبي على إحدى زهرات الطلح بقوة السحر . فاذا حدث وقطع اعدائي ساق الشجرة فسيقع قلبي على الارض . وعندئذ ستفور الجعة في كاسك وتتعكر ، وستحس مرارة كالنار في حلقك . فاذا اردت في تلك اللحظة ان تنقذني ، فالق بالكاس على الأرض ، واسرع الى وادي الطلح باحثا عن قلبي الذي سيكون قد غاص واختفى .. فاذا وجدته فضعه في إناء ماء بارد . وعندئذ ترتد الى جسدي

الحياة : وانهض لأنتقم بنفسى من كل من أراد لى الموت .. !

وانطلق بايتى الى وادي الطلح وعاد أنوبو الى بيته، فهاجم امرأته ومزقها بنفس الخنجر الذى أرادت أن يقتل به أخاه ، وحمل الجثة الخائنة فألقى بها الى الكلاب .. !

* * *

عاش بايتى فى وادى الطلح هادئا سعيدا ، يقضى أوقاته فى مطاردة حيوانات الصحراء ، ويعود مع الليل الى بيت أنيق صغير أقامه فى جانب الوادى .

وبينما هو جالس ذات يوم ، مر به الآلهة التسعة الذين يديرون شئون مصر . وقال له الآلهة :

— ألا تزال تعتزل يا بايتى ؟ أليس من الخير لك أن تعود الى بيتك بعد أن ثأر لك أخوك من امرأته ؟

وسجد بايتى للتاسوع المقدس . والتمس من الآلهة ان يتركوه فى وادى الطلح حيث يعيش ..

ورأى رع حورس أن يخفف عن الفتى وحشة العزلة . فأمر الاله الخلاق « خنوم » أن يخلق له امرأة تشاركه الحياة . وخلق له « خنوم » زوجة أجمل من أى امرأة فى الأرض ، تشبه إيزيس ..!

وجاءت الزوجة لتقيم بين أحضان الفتى الصغير . وملأت حياته بهجة غامرة وسعادة لا توصف . ولم يلبث أن رأتها الحتحورات السبع ساعة مولدها وهى تقع بين ذراعيه فتنبأن فى صوت واحد بأنها ستموت بالسيف !

وأحب بايتى امرأته حبا لم يحبه رجل امرأة قط . وبلغ به الحب حدا جعله يغار عليها من النيل نفسه ، فمنعها من مغادرة الدار أو الاقتراب من النيل حتى لا يخطفها النهر . ومن أجل أن يؤكد لها مدى حبه وإخلاصه ، كشف لها عن سر قلبه المعلق على زهرة شجرة الطلح ، وحذرها من قطعها حتى لا يفقد حياته ويموت .. !

وخرج بايتى للصيد ذات يوم . وكان الضجر قد استبد بامرأته لطول ما أقامت وحدها فى البيت ، فانتهزت الفرصة ، وغادرت الدار منطلقة الى حيث شجرة الطلح التى حذرها من الذهاب اليها ودفعها الفضول الى رؤية القلب المعلق على الزهرة . وإذ أشبعت فضولها ، جلست على جانب النهر ، وكشفت عن ساقيها الجميلتين ، ودلتهما فى الماء وهى تحركهما فى صخب ولذة وانطلاق .

واضطرب النيل وأثاره مرأى الساقين الجميلتين ، وأحس جوى اليها فدفع أمواجه تضمها وتحاول اختطافها . ولكنها سارعت برفع ساقيها العاريتين ، وانطلقت تجرى فى خوف الى داخل الدار .

وأسف النيل لهرب المرأة التى رغب فيها . وراح يتوسل الى شجرة الطلح أن تدعه يخطفها ، ولكن الشجرة رفضت توسله ، وظلت على رفضها وهو على توسله ، حتى أشفقت به آخر الأمر ، فمنحته خصلة من شعر المرأة ، يشم فيها عبيرها ويطفىء بها ظمأه المجنون .. !

وحمل النيل خصلة الشعر وراح يجرى . ولم ينتبه خلال جريانه الى مغسل فرعون الذى كان يمتد من جانب الشط ، فاذا بخصلة الشعر تسقط فى حوضه ، وإذا بالطيب الساحر يتسرب منها الى ثياب فرعون فيثير أعصابه ، ويقسم ليقتلن رئيس الغسالين إذا لم يأته بسر الطيب .. !

وطفق رئيس الغسالين يبحث وينقب ، حتى عثر آخر الأمر على خصلة الشعر فى الحوض ، فحملها الى فرعون الذى شمها ، فاحس لنشوة صاخبة مجنونة، وامر بالسحرة ان يأتوا إليه للتو .

واجتمع كل سحرة المملكة عند الملك . واخذوا يفحصون خصلة الشعر ولا يفهمون لها سرا . ولكن واحدا منهم هتف آخر الأمر :

— أيها الملك ، هذه الخصلة انتزعت من شعر إحدى بنات الاله رع حورس .

واقسم الملك ليبحثن عن ابنة الاله ذات العبير الساحر وارسل رسله يجوبون كل انحاء الارض . وعاد بعضهم ليرفعوا تقارير فشلهم الى الملك . أما الآخرون الذين ذهبوا الى وادى الطلح ، فلم يعد منهم سوى واحد فقط ، استطاع الهرب من بايتى الذى قتل كل رسل الملك عندما حاولوا التسلل لمعرفة مكان امرأته .

وانطلق الرسول الهارب الى الملك يخبره بمكان ابنة الاله رع حورس .

وامر الملك فرقة من الفرسان والرماة بالذهاب إلى وادى الطلح . وارسل مع الفرقة امرأة أوصاها بمرافقة ابنة الاله متى تم اختطافها ، ومساعدتها على التأنق والتزين . وكمنت الفرقة بين الغاب حتى خرج بايتى للصيد .. فهاجموا البيت الصغير ، واختطفوا المرأة التى خلقها « خنوم » ، وانطلقوا بها إلى فرعون .

* * *

عاشت المرأة فى القصر سعيدة كملكة . واستقر بها الرأى ان تبقى هناك أبد الدهر ، ولا تعود الى

وادي الطلح حيث الرجل الذي لم تخلق لسواه .
وعندما بدا لها أن سيأتي اليوم الذي لابد أن يعثر عليها فيه زوجها ، انطلقت الى فرعون تكشف له سر القلب المعلق على زهرة شجرة الطلح ، وكيف يفقد الرجل حياته متى قطعت الشجرة وسقط القلب . . !

وانطلق رسل الملك من جديد الى وادي الطلح . وعندما عادوا كانت الشجرة قد قطعت ، وكان القلب قد اختفى تحت الأرض .

ومضى نهار كامل ، وجاء مساء . . .

وجلس «أنوبو» الشقيق الأكبر في بيته يملأ كأسه ، فاذا بها تتعكر وتفور . . من خلال زبد الجعة شهد أنوبو وجه شقيقه . . ثم فأدرك أنه في حاجة اليه .

ولبس أنوبو حذاءه وحمل سلاحه ، واخذ طريقه الى وادي الطلح . . وعندما دخل بيت اخيه وجد الجثة لا تزال ممددة فوق الفراش . وراح يبحث هنا وهناك عن القلب الضائع ، ولكنه لم يستطع أن يعثر عليه .

واستمر أنوبو يبحث ويجد في البحث . . وراحت الأيام تنقضي وتعقبها الشهور ، وهو لا يزال يبحث عن قلب أخيه حتى مضت ثلاث سنوات . وادرك في النهاية أن الأمل قد ضاع ، وقرر أن يعود الى المدينة .

وفي اليوم الذي يسبق الرحيل ، نزل أنوبو يبحث عن القلب لآخر مرة . فظفر ببذرة في شكل قلب ، لم يكد يضعها في كأس به ماء بارد ، حتى انتفخت ، وظلت تتشبع بالماء وتنتفخ حتى صارت في حجم القلب . . ولم يكد القلب يبلغ حجمه الطبيعي حتى تحرك الجسد الذي كان لايزال ممددا فوق الفراش ، وفتح باتي عينيه . . وعادت الحياة اليه !

※※※

انطلق الأخوان عائدين الى منفيس ، وخلال الطريق راح باتي يقص على أخيه كيف سينتقم من المرأة التي خانته ، والملك الذي قتله . . واتفقا معا على الطريقة التي يمكن أن يدخلا بها القصر . .

وفي الصباح تحول باتي الى صورة ثور . . يحمل كل علامات التقديس . . من سواد الشعر ، وبياض الجبهة ، وبصورة نسر مبسوط الجناحين على الظهر وصورة جعران على اللسان ، مع غزارة في شعرات خصلة الذيل . . !

وطلب باتي من أخيه أن يقوده في تلك الصورة الى القصر حيث تجلس امرأته . . وقال له :

— سر بي الى بلاط فرعون ، فهناك سيفرحون وبأنك ! ويقدمون لك خير الطعام ويطوقونك بالذهب والفضة . . وسينظر الناس إليّ باعتبارهم إلى معجزة خارقة ، ويقدسونني ، ويجعلون لي في الأرض القربانا . عندئذ عد أنت الى بيتك ، واتركني داخل القصر حيث انزل نقمتي بكل من فيه . . .

وانطلق أنوبو يقود الثور في الطريق الى القصر . واطلت الملكة فاذا ثور مقدس فيه كل علامات التقديس يقوده فلاح . فأمرت باستقدام صاحبه .

ودخل أنوبو يقود الثور حتى القاعة التي يجلس فيها الملك والملكة ، فلم يكد الملك يرى الثور حتى انحنى له ، ثم أمر بأكياس من الذهب والفضة تهدى للفلاح ، واخذ الجنود الثور الى حظيرة أنيقة ، لا يغلق بابها أبدا ، وكلف أمهر العبيد السهر عليه ، وتدليله ورعايته كل صباح ومساء .

وراحت الأيام تمضي ، وبدأ الثور ينزل وحده من الحظيرة الى الحديقة ، ولا احد يمنعه ، فما كان أحد في مصر يجرؤ على اعتراض طريق ثور مقدس ، أو حرمانه من التمتع بحريته .

وذات يوم ، دخل الثور حرم القصر . . ووقف امام اجمل نساء فرعون واحلاهن . . . ولم تكن سوى الملكة . . . زوجته . . !

وانتبهت امرأة فرعون الى الثور ، ومدت كفها تربت شعره . ولم تكد تفعل حتى سمعت من بين شفتي الثور صوتا يدعوها . . فانتفضت . . وقال الثور : انظري . . هأنذا حي . . !

وهتفت الملكة في فزع ورعب :

— أنت . . ! ! من تكون أنت . . ! !

وقال الثور :

— انا باتي زوجك الذي خلقك من أجلي الاله . . لقد طلبت من الملك قطع الشجرة لأموت . . ولكني مع ذلك ما زلت حيا في جسد ثور . . !

وغادر الثور حرم القصر . . وترك زوجة فرعون اشد ما تكون فزعا ورعبا . . .

ومضى ذلك اليوم . . وتبعه آخر . . .

وبينما كان فرعون يجلس الى زوجته حول مائدة عامرة بأطايب الطعام والشراب ، جعلت هي تملأ له الكأس تلو الكأس . . حتى ثمل وانتهى . . وأسلس لها القياد . . هنا قالت المرأة لفرعون :

— عدني بحياة رع حورس ، أن تمنحني كل ما أطلب منك . . !

وتضحك الملكة في نشوة [illegible]

— وحياة رع حورس .. لأمنحنك ما تطلبين .. !

— أريد أن أضحي بذلك الثور العجيب .. !

وفي نشوة النصر .. والانتظار [illegible] .. أمر الملك بذبح الثور ..

وانطلق الجزارون وفي أيديهم السكاكين ، وعندما غادروا الحظيرة كان كل شيء قد انتهى . وكان جسد الثور محمولا على أكتافهم وقد فارق الحياة !

ومر الجزارون وجسد الثور معهم أمام باب فرعون . وبينما هم يعبرون ، قطرت الجثة دما أمام الباب ، لم ينتبه إليه أحد . ومر اليوم وجاء صباح، فاذا شجرة لبخ قد ارتفعت حيث قطر الدم .. وهي تحمل ثمارا حلوة لذيذة مقدسة .. !

واحيط الملك علما بالمعجزة . فأقام حفلا رائعا للشجرة .. أشترك فيه كل أهل مصر ..

ومضت أيام ...

وهبط الملك إلى الحديقة ذات يوم وإلى جواره زوجته . وتحت شجرة اللبخ المقدسة ، جلس الملكان يتبادلان كئوس النخب . واذ هما في نشوتهما انتبهت الملكة الى صوت يقول لها :

— أيتها المرأة الخائنة .. أتفعلين ذلك وأنت تستظلين بظلي أنا زوجك بايتي .. !؟

وصرخت المرأة وهي تحملق في الشجرة التي عادت تقول :

— هانذا مازلت حيا برغم كل أوامرك وخياناتك . لقد طلبت قطع شجرة الطلح ليموت قلبي ، وأمرت بذبح الثور لأفقد الحياة .. ولكني مع ذلك لا ازال حيا أتبعك في تلك الشجرة التي تطل عليك كل صباح ومساء .. !

ومضت أيام اخر ...

وبينما الملكة تقضي مع الملك وقتا لايكاد خلاله يستطيع أن يرفض لها طلبا .. قالت له :

— عدني بحق رع حورس .. أن تمنحني كل ما أريد ... !

— وحياة رع حورس .. لأمنحنك كل ماتريدين .

— أصدر أمرك بقطع شجرة اللبخ .. وليصنع لي من خشبها خزانة جميلة رائعة .. !

وفي اليوم التالي أمر الملك بقطع شجرة اللبخ .. ووقفت الملكة تتشفى حين كان النجارون يشقون الساق ليصنعوا لها خزانتها .

وفجأة .. وبينما هي تأمر وتنهى .. طارت الى فمها قطعة صغيرة من الخشب ابتلعتها بالرغم منها .. ولم تهتم لها ابدا ...

ومضت أيام وشهور .. وجاء الملكة المخاض ...

وولدت امرأة فرعون ولدا ذكرا ... لم يكن سوى بايتي .. هو نفسه .. !

وفرح الملك بالطفل الصغير .. وأعلنه وليا للعهد ووارثا للملك من بعده على كل أرض مصر ... !

وراحت السنوات تمضي والأمير يكبر والملك يقترب من الشيخوخة . وعندما بلغ الفتى عنفوانه ، كان فرعون في طريقه الى السماء ...

وملأت الافراح كل مصر وهي تحتفل بالملك الجديد . وبينما الكهنة يضعون على رأس فرعون تاجه .. طلبوا منه أن يتزوج أمه .. زوجة الفرعون الراحل !

وجلس فرعون الجديد على العرش .. ودعا اليه كل الكهنة ، وكل القادة ، وكل من في مصر من أعيان ...

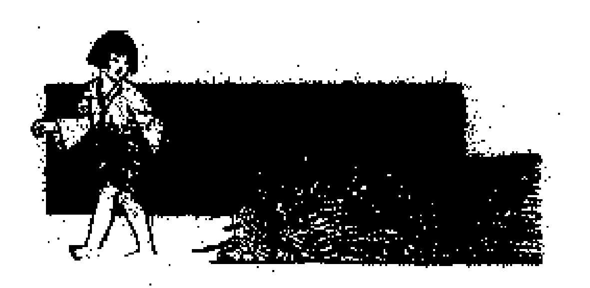
وبينما الجميع ينتظرون أن يعلن الملك زواجه بالملكة .. انطلق صوته عميقا يحكي كل ما كان ... منذ خرج هاربا من دار أخيه .. حتى أجلسته الآلهة على عرش مصر . وبين هذا وذاك عرف الجميع من تكون المرأة التي تقف أمامهم لتكون زوجة الملك الجديد .. !

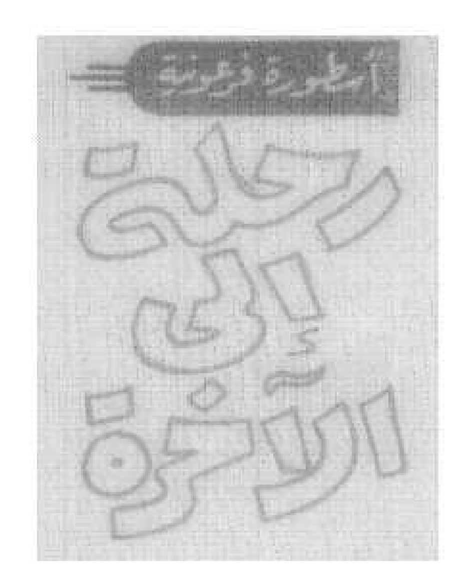
وارتفع صوت الملك يسأل كهنته وقواده عن الحكم الذي ينزلونه بالمرأة الخائنة .. وفي صوت واحد قال الجميع :

— الموت .. !

ونفذ الحكم .. وبالسيف قطع رأس الملكة .. تماما كما تنبأت لها ربات الجمال السبع ..

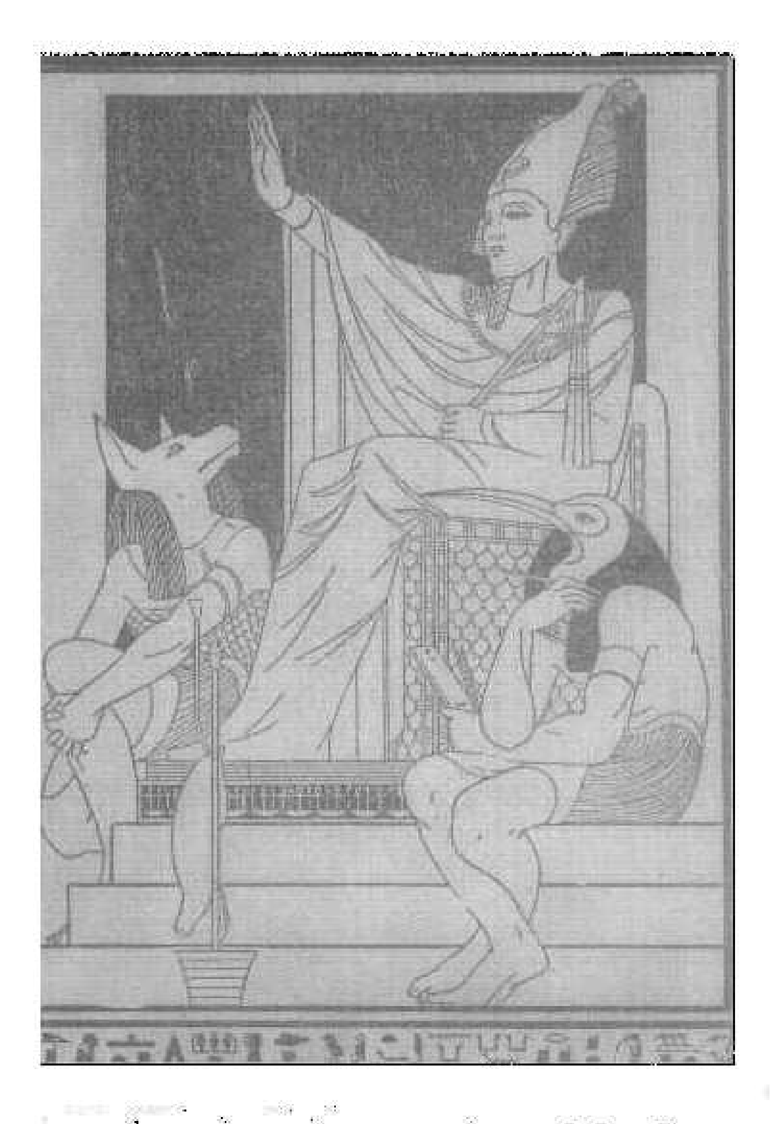
أما بايتي .. فقد استمر يجلس على عرش مصر عشرين سنة .. طار بعدها الى السماء .. تاركا عرشه لانوبو ... الأخ الذي كاد يقتله ذات يوم بسبب امرأة .. !!





برع المصريون فى السحر حتى صار شيئا يدرسه العلماء ويتفننون فيه .. وأصبح لهؤلاء السحرة النفوذ الأكبر والمقام الأسمى أمام الفراعنة ، يدعونهم لتأويل أحلامهم والانتصار بهم على أعدائهم بخوارق ما يقدمون من معجزات .

وقد نبغ أبناء بعض الملوك فى السحر حتى أقيمت لهم التماثيل .. ومن بينهم ساتنى الذى يجىء ذكره فى هذه الأسطورة .. والذى يكشف خلال رحلته سر يوم القيامة والحساب عند قدماء المصريين .



والى جوار اوزيريس .. كان يتربع الاله انوبيس والاله توت

كان يكره نفسه ... فبرغم العلم الخارق الذى وهبه له الاله بتاح ، والحكمة والمهارة والبراعة فى السحر : لم يكن «ساتنى» ابن الفرعون «اوزيناريس» ليعرف السعادة قط . وكان عقمه هو سر تعاسته ، فما أستطاعت زوجته الأميرة « ماهى » إنجاب ولد يخفف عنهما شقاء الوحدة ، وما عرفت رموزه السحرية ، ولا الطقوس والتعاويذ ، كيف تمنحه القدرة على إنجاب ولد .. بعد أن حرمته عليه الآلهة .

ومع هذا فما كفت «ماهى» قط عن الصلاة للاله « بتاح » رب منفيس ، والابتهال إليه أن يجود عليها بولد . ولم يحتمل قلب الاله بتاح كل تلك الآلام التى تحتمل فى قلب المرأة التى تقدم له كل يوم عشرات القرابين . وأخذته بها شفقة رقيقة حانية ، فأرسل اليها رسله تهتف فى اذنها ، إذ تملكها النعاس وهى تصلى فى المعبد :

ـــ ابشرى يا ابنة فرعون . فالآلهة التى لاتنسى عبيدها المخلصين ، قد استجابوا لصلواتك !

وفى نفس اللحظة ، سمع «ساتنى» فى نومه هاتفا يهتف به :

ـــ يا ابن فرعون ستضع امرأتك طفلا تسميه «سوزيريس» ولتهتز مصر بالخوارق التى يأتيها لكل الناس .

وكان الاله بتاح عند وعده . فما مضت أيام حتى كانت « ماهى » قد وضعت طفلا سماه ابوه « سنوزيريس » لم يكد يرى النور حتى هتف باسم بتاح .. ثم سجد يصلى .. !!

وكانت هذه أولى معجزات «سنوزيريس» الذي ادرك ابوه «ساتني» أنه أمام قوة خارقة لم يكن بمقدوره أن يواجهها بشيء فقط، بل إن سحره ما كان ليستطيع أن يجعل من ابنه بهذا العمر يناقش الكهان كما فعل وليده وهو بعد طفل في المهد، وكأنما يبز المعلمين بعلمه كما حدث مع ابنه عندما بلغ سن السادسة ..!!

والحق أن «سنوزيريس» كان أكثر من معجزة . وكان — وهو في تلك السن — يشترك مع كهنة بتاح في قراءة كتاب الحكمة، ويدهشهم بقدرته الخارقة على فهم القديم من نصوصه التي وضعها الأقدمون قبل ذلك بمئات السنين ..!!

وذات يوم، بينما كان «ساتني» يغتسل على سطح بيته، والى جواره ولده سنوزيريس، شق السكون صوت عويل يرتفع في الطريق، يختلط به أهازيج موسيقى الموت . وأطل «ساتني» فاذا مأتم رهيب لواحد من الأغنياء يشيع الى مدفنه الأخير في موكب فخم، يزيد من جلاله شجو الألحان التي تسير معه حتى مقابر منفيس .

ومضت لحظات، وإذا ميت آخر يعبر الطريق، ملفوف في خرقة . يشيعه بضعة أفراد من ولده، الى خارج منفيس .. بغير ما موسيقى ولا احتفال ولا موكب، ولا حتى الدمع نفسه، ماكلف أحدهم نفسه أن يذرفه من وراء الجثمان .

وهتف «ساتني» وهو يطل الى السماء :

— يا أوزيريس .. يا سيد « الأمنت » العظيم القدرة في العالم الآخر .. اكتب لي دخول دار الأموات في عظمة وجلال هذا الغني، ولا تحرمني شجو الموسيقى ونغم الأغاني، كما حرمت هذا الفقير .

ونظر اليه ولده «سنوزيريس» طويلا ثم قال :

— يا أبي، إني لأتمنى لك أن تموت ميتة هذا الفقير، لا ميتة ذلك الغني ..!

وتألم «ساتني» وهو يسمع أمنية ولده . وقال يعاتبه :

— لكم تؤلمني يا ولدي سنوزيريس .. أهذا هو الدليل على حبك لأبيك ؟

وأجابه الصبي :

— إذا أردت .. فأنا على استعداد لأطلعك على مصير كل منهما في الآخرة . الغني الذي بكاه الناس، والفقير الذي لم يجد من يبكيه ..!

وعجب «ساتني» وراح يسأله :

— وكيف تستطيع ذلك يا سنوزيريس ..؟!

عندئذ، أمسك «سنوزيريس» بيد أبيه، وأخذ يتلو تعاويذ بدت غريبة حتى على أبيه الساحر العظيم .. ثم انطلق به يقوده الى جبل منفيس حيث هبطا معا فجوة ضيقة بين الصخر، ما كادا يهبطانها حتى وجدا نفسيهما في قاعة قادتهما الى أخرى أكثر سعة، ثم الى ثالثة تزيد اتساعا عن كل قاعات قصر الفرعون نفسه . وهنا شهد «ساتني» جماعة مزدحمة من الناس .. فيها الفقير والغني، الوضيع والرفيع، الجميل والقبيح .

وعاد «سنوزيريس» يقود أباه ويجتاز به الباب الى قاعة رابعة، حيث شهدا قوما مولين وعلى ظهورهم حمير تأكل .. وقوما آخرين يمدون أيديهم الى الطعام المعلق فوق الظهور فلا يستطيعون إليه سبيلا، إذ تقف دونهم حفر يحفرها قوم آخرون، لتتسع وتتسع وتحول بينهم وبين الوصول الى الزاد !

وتحولا معا ليجتازا القاعة الرابعة إلى الخامسة . وشهد «ساتني» باب القاعة يرتكز على عين رجل راح يستغيث ويصرخ .. ومن خلفه ناس يبكون ويلحون في طلب الدخول فلا يسمح لهم أبدا ...

وكان لابد لساتني وولده كي يدخلا القاعة الخامسة، أن يطآ الرجل المنطرح تحت الباب . وكان هذا جزءا من العقاب الذي قدر له : أن يطأه كل الأموات الذين يجتازون قاعات العذاب الى مكان السعداء ..!

وكانت القاعة السادسة ...

وشاهد «ساتني» محكمة الموتى منعقدة، يرأسها القاضي الأكبر أوزيريس سيد « الأمنت » .. أي الدار الآخرة .. متربعا على عرش من ذهب، وفوق رأسه تاج الجنوب الأبيض المرصع من جانبيه بريشتي نعام . والى جوار أوزيريس كان يتربع الاله أنوبيس، والاله توت، وحولهما من شمال ويمين اثنان وأربعون قاضيا من الآلهة تكتمل بهم هيئة المحكمة .

وكان هناك في وسط القاعة ميزان توزن فيه الحسنات والسيئات .. يستجوب أنوبيس الميت ويدون توت أجوبته . فمن رجحت حسناته السيئات قاده الآلهة المحيطون بأوزيريس الى جنة الأموات الصالحين حيث يتمتع بالسعادة الخالدة . وأما من رجحت مساوئه حسناته، فانه يسلم الى « عمت » كلبة سيد الأمنت المفترسة، المستلقية تحت قدميه، مستعدة دائما لتمزيق كل محكوم عليه بالعقاب .

وتفرس « ساتني » في إلهة العقاب .. فاذا فمها فاغر كأتون، ومخالبها حادة كسكين، ورأسها مدبب كتمساح، وجسمها بشع كتنين ...!

وبينما « سانتي » يتأمل إلهة العقاب إذا به يلمح رجلا نبيل الطلعة ، يرتدي ثوبا من كتان فاخر ، يقف الى جوار أوزوريس . وسأل « سانتي » ولده عمن يكون هذا الرجل فأجاب :

— هذا هو الفقير الذي رأيته مكفنا بخرقة بالية ومحمولا بلا موكب إلى خارج منفيس . إنه هو نفسه الذي تمنيت يا أبي ألا تموت ميتته . لقد حل أمام محكمة الموتى ، فرجحت حسناته سيئاته . إنه تعذب كثيرا في الأرض ليسعد طويلا في السماء . ولكي تتم سعادته خلع أوزوريس عنه كفنه الممزق ، وألبسه كفن الغني الذي رأيته مشيعا في حفاوة الى مقبرة منفيس . هذا الغني نفسه هو الذي وطئته قدماك عندما ولجت القاعة ، وكان محور الباب مرتكزا في عينه اليمنى يفريها كلما فتح أو أغلق .. فقد حوكم الغني فرجحت سيئاته حسناته ، وحكم عليه بالعقاب الصارم . وهكذا ترى يا أبت أنني قد تمنيت لك في الأرض ميتة الفقير لا ميتة الغني .. لأنني كنت أعلم مصير كل منهما في الآخرة ...

وقال «سانتي» يسأل ولده :

— لقد رأيت يا بني في « الأمنت » ما أدهشني ، فهل تستطيع أن تخبرني عن هؤلاء الذين رأيناهم مولين وعلى ظهورهم تأكل الحمير .. ؟ وعن أولئك الذين لا يملكون سبيلا الى الزاد بسبب الحفر التي تزداد وتتسع تحت أقدامهم .. ؟

أجاب ستوزيريس :

— أجل يا أبت . الأولون هم أبناء هذه الأرض الذين لعنتهم الآلهة ، يعملون ليل نهار ليضمنوا بقاءهم . فتتحول نساؤهم الى حمير نهمة ، تنهب أموالهم وتأكل على ظهورهم . أما الذين يمدون أيديهم عبثا الى الطعام ، فهم أولئك الذين استأثروا بخيرات الأرض وما شبعوا ، فعوقبوا بالحرمان جراء حرمانهم الآخرين .. !

وما كاد ستوزيريس ينتهي من شرح ما عمي على أبيه ، حتى أخذ بيده ليعود به الى الأرض من جديد .

* * *

... وظل ستوزيريس يقدم الخوارق كل يوم الى أهل الأرض .. !

وذات يوم بينما كان فرعون جالسا على عرشه في منفيس ، بين مستشاريه وقواده وكبار موظفيه ، دخل الحاجب يعلن وجود مشعوذ حبشي بالباب ، يبغي المثول بين يدي فرعون ، ويزعم أنه يحمل رسالة



وإذا بستوزيريس الصغير يتلو قصة الساحر الحبشي كما جاءت في الكتاب

مختومة . وعندما أذن الملك ، دخل القاعة رجل حبشي سلم ثم قال :

— أنا قادم من بلادي أيها الملك ، لأتساءل هل في استطاعة أحدكم أن يقرأ القصة المدونة في الكتاب الذي أحمله دون أن يفضه ؟ ! لو أن أحدكم استطاع فسأعود الى بلادي .. بلاد الزنوج لأقول إن علماء مصر هم خير علماء الأرض . أما إن عجزتم وعجز كتابكم وعلماؤكم عن ذلك فأنا عائد الى بلادي لأعلن أن مصر بلد متأخر لا يعيش فيه سوى الجهال والأغبياء .. ! واخص الملك ، والقادة ، والجميع ، كأن الأرض تميد بهم ، وهتفوا جميعا :

— وحق بتاح العظيم .. كيف يمكن لعالم أو كاتب مهما برع في تفهم الرسوم الهيروغليفية ، والنصوص الغامضة ، أن يقرأ قصة في كتاب دون أن يفضه ! ؟

غير أن فرعون كان يخشى أن توصف بلاده بالجهل والتأخر ، فأرسل الى ولده «سانتي» كبير السحرة والحكماء يستدعيه ، وحضر الابن وسجد لأبيه الذي قال له :

— أسمعت يا ولدي ما قال المشعوذ الحبشي ؟ إنه يتحدى كل علماء مصر وكتابها أن يقرأوا قصة في الكتاب الذي يحمله دون أن يفضه ؟

وأجاب سانتي :

— يا صاحب الجلالة .. ما من احد يملك القدرة على أن يقرأ كتابا دون أن يفضه . ومع ذلك فامهلني عشرة ايام اتدبر خلالهـا كيف أمنع الزنوج من ان يتهموا بلادنا العزيزة بالتأخر والجهل .. !

ووافق الجميع على الانتظار . واعدت للمشعوذ الحبشي غرفة ينزل بها حتى يعقد الاجتماع المنشود .. ويرد فيه ساتني على التحدي الغريب .. !

***

انطلق ساتني الى بيته وفي القلب منه غيظ مجنون .. كانت الحيرة تأخذ به ، وخوف الفشل يرعبه ، واستلقى على فراشه يبغي النوم ، ولكن هيهات للنوم أن يزوره أبدا .

ودخل سنوزيريس على ابيه ، فوجده يتقلب كمن يرقد فوق جمر . وسأل الابن اباه :

— ماذا بك يا ابت ؟ بح لي بسر الملك وانا كفيل بأن ابدد اوجاعك والامك .. !

واجاب ساتني :

— دعني ياسنوزيريس .. إن مابي ليتعدى قدرة الصغار على تخفيف الالام والاوجاع .. حتى لو كانوا يملكون كل اصول السحر ..

ولكن سنوزيريس لم يزل بابيه يلح ويحلف ، حتى اضطر ساتني اخر الأمر ان يقص عليه قصـة المشعوذ الحبشي ، وتحديه لكل اهل مصر .. حتى فرعون .. !

ولم يكد سنوزيريس يسمع القصـة حتى برقت عيناه ببريق غريب ، ثم انفجر ضاحكا في صخب كبير اثار عجب ساتني فراح يقول له :

— ما الذي يضحكك كل هذا الضحك ياولدى ؟ أولسحر مس .. ! ؟

قال سنوزيريس :

— إنما اضحك لان الهموم التى تهد قواك لم يسببها سوى ذلك الأمر التافه الضئيل . انهض يأبت ، ولك منى العهد ان اقرأ قصة الحبشي كاملة ، دون ان افض كتابه .. !

وسرى عن ساتني .. وإن ظل ينتـابه بعض الشك ...

وانطلق ساتني الى الفرعون اوزيناريس ، فقص عليه الأمر ، ورجاه ان يدعو اهل القصر كلهم الى الاجتماع .. ويأمر باحضار المشعوذ الحبشي ..

واكتمل الجمع . ووقف الحبشي وسـط القاعة يتحدى .. وفي يده الكتاب مغلقا مدفونا بين طيات ثيابه .

ووقف سنوزيريس يرد التحدي :

— ملعون انت ايها الحبشي . لقد اغضبت آمون الاله الاكبر ، وبتـاح رب منفيس . وجرؤت على القـدوم الى مصر .. حديقة اوزيريس ، وبلاد زرع العظيم .. ووقفت تتحدى بقولك .. سـاعود الى بلادي .. بلاد الزنوج واعلن ان علماء مصر كلهم جهلاء . الا فليـنصب عليك غضب آمون .. وهاانذا أمام سيدك وسيدنا فرعون العظيم .. اتلو كل حرف من قصـة الـكتاب الـذى تخفيه تحت ثيابك .. وإذا نجحت في مهمتي فاياك أن تنكر على ذلك ...

وانحنى الحبشي أمام سنوزيريس ، وقد احس شيئا من الرهبة وقال :

— إذا نجحت في مهمتك فلك منى العهد ان اعترف بنجاحك أمام الجميع ...

وساد القاعة صمت غريب .. الفرعون والأمراء والكهنة والقادة .. وافراد الشعب كلهم ، في انتظار كلمة النصر المعلقة على شفتي سنوزيريس الصغير .

وبدأ سنوزيريس يتلو قصة المشعوذ فقال :

هي قصـة مجهولة جرت حوادثها في عهد فرعون « سيا ــ آمون » . في ذلك العهد كان ملوك الحبشة أعداء لمصر ، وكانوا يتحينون الفرص للنيـل منهم بمختلف الوسـائل والاساليب . وقد اجتمع مرة ثلاثة من سحرة الاحبـاش المـاهرين ، واخذوا يبحثون الوسيلة إلى إهانة مصر وإذلال شعبها .

قال الأول :

— إن باستطاعتي ان ارمي مصر بسحر يغرقها في الظلمات الدامسـة ثلاثة ايام وثلاث ليـال ، دون ان يتسلل اليها خيط واحد من النور .. !

وقال الثاني :

— وأنا باستطاعتي ان ارمي مصر بسحر يجدب كل ما فيها من حقول لسنوات ثلاث .. !

وقال الثالث :

— اما انا فباستطاعتي ان ارمي مصر بسحر ينقل ملكها الى الحبشة حيث يجلد علنا خمسمائة جلدة . ثم يعاد إلى بلاطه في أقل من ست ساعات ..!

وصفق ملك الاحباش للاقتراح الثالث .. فقـد استهوته فكرة جلد فرعون مصر . وسأل السـاحر عن اسمه فأجاب :

— أنا «نازى» ابن السـيدة «زنجاو» .

قال ملك الاحباش :

— لقد اقتراحك الخارق بانازى .. وانا أعدك بقدر حق آلهتي أن أصونك من انتقام فرعون ، واغدق عليك بأثمن الهدايا .

عندئذ صنع نازي محفة من شمع محمولة على اكتاف اربعة حمالين . ثم تلا تعاويذ جعلت الحياة تدب في الحمالين الأربعة ، وخاطبهم قائلا :

— اذهبوا في الحال الى مصر واستحضروا ملكها على المحفة أمام ملكنا العظيم . وبعد ان يجلد خمسمائة جلده ، عليكم ان تعيدوه الى بلاطه في اقل من ست ساعات .

واجاب الحمالون الاربعة :

— سمعا وطاعة يامولانا .

وطار الحمالون الاربعه الى مصر بقوة السحر . وعندما بلغوا القصر ، راحوا يتلون تعاويذ خدرت كل حرس البلاط . ثم حملوا الفرعون « سيا — امون » في المحفة ونقلوه الى قصر ملك الحبشة حيث جلد خمسمائة جلدة ... ثم عادوا به الى بلاطه قبل أن تمضي الساعات الست بقليل .. !

وفي الصباح .. افاق فرعون محطما منهوكا . واحس كأن في جسده النار .

ودعا الملك اليه رجال بلاطه وقال لهم :

— ما الذي حدث لي في الليل ..؟ لقد حملت في محفة الى خارج مصر .. !

وبهت افراد الحاشية ، وتبادلوا النظرات ، وقد ظنوا ان الجنون قد اصاب الملك .

وادرك الفرعون مايدور بخلدهم ، فكشف عن ظهره الذي الهبته السياط وقال لهم :

— وحق بتاح الكبير ، لقد نقلت ليلا الى قصر ملك الحبشة حيث جلدت خمسمائة جلدة ، ثم اعدت الى بلاطي في اقل من ست ساعات .. !

واحتوى كل رجال البلاط من الملك يتفحصون آثار السياط . وما لبثوا ان اغمضوا اعينهم لفرط القسوة والبشاعة التي نزلت بجسد الملك .

وكان بين رجال البلاط ساحر اسمه « بانيشي » ماكاد يرى آثار الجلد حتى صاح :

— إنه سحر الزنوج ياصاحب الجلالة هو الذي فعل بك هذا . ولكن .. وحقك يامولاى .. وحق آمون ورع وبتاح لانزلن بهم عقابا ماتصوره واحد منهم قط جزاء مافعلوا واثموا ...

واستعان بانيشي بتعاويذه وطلاسمه . وصلى لتوت رب السحر ليمنحه سحرا عظيم القدرة دعي به فرعون ليقيه من عدوان الزنوج . وعندما جاء الليل التالي سلط نازي سحره ليعيد الكرة مع فرعون، ولكن عبثا . اما بانيشي فقد سلط سحره الخارق على ملك الزنوج فنقله ليلا الى مصر حيث جلد امام الفرعون وكل سكان مصر بضعة آلاف جلدة . وكرر بانيشي سحره ثلاثة ايام متوالية ، حتى ثار ملك الأحباش فدعا إليه نازي وقال له متوعدا :

— إنك انت سبب المصائب التي حلت بي .. وعليك انت أن تنقذني من سحرة مصر ، وإلا فلن يكون راسك فوق عنقك متى اصبح الغد .. !

وأجاب نازي :

— سمعا وطاعة يا مولاى . سأذهب بنفسي الى مصر لانازل خصمي الساحر المصري في عقر داره ..!

وانطلق نازى الحبشي الى مصر . وبينما كان فرعون مجتمعا بمستشاريه وقواده انتصب نازي وسط القاعة ، وراح يصرخ باعلى صوته :

— انا نازي ساحر الزنوج .. اتحدى في مجلس فرعون كل سحرة مصر .. وعلى الأخص ذلك الساحر الذي خطف ملكي ونقله الى مصر بالرغم مني .

ونهض بانيشي ساحر مصر واجاب :

— انا لك يانازي .. انا لك يامن جرؤت على أن تنقل فرعون مصر سيدك وسيد الأرض كلها الى الحبشة حيث ضرب بالسياط . انا لك يامن جرؤت مرة اخرى ان تاتي الى مصر وتتحداني في عقر داري . وحق انومر سيد هليوبوليس ، لقد قادتك آلهة مصر اليّ في الوقت المناسب ، وسانزل بك العقاب الذى تستحق . فابدأ ايها المتحدى بسحرك .. ولنر لمن تكون الغلبة ومن يفوز بالنصر .. !

ولم يكد بانيشي يتم كلامه ، حتى تلا الحبشي تعاويذه . وفجأة شبت النار في مجلس فرعون الذى راح يصرخ ومن حوله رجال البلاط .

— انقذنا يا بانيشي .. انقذنا .. !

وتلا بانيشي إحدى تعاويذه الواقية . فهبت من الجنوب ريح مائية مالبثت أن أخمدت النار .

وعاد الحبشي يتلو تعويذة أخرى . فانتشر في القاعة ضباب كثيف أخفى كل فرد عن اعين الآخرين . ولكن بانيشي رد عليه بتعويذة اخرى ، فاذا الريح تهب فجأة فتزيل الضباب المتلبد عن القاعة ..

ثم كانت التعويذة الثالثة التي تلاها نازى . فاذا بقبو ضخم يقوم حول المجلس ، فيعزل من فيه عن كل ارض مصر . وما كاد القبو يطبق على فرعون ورجاله حتى صرخوا صرخة رعب وفزع . وتلا بانيشي تعاويذه ، فاذا زورق مسحور ومعاول تهدم القبو ، وتنقل حجارته لتلقى بها في بحيرة موريس .

عندئذ استسلم الساحر الحبشى ، وحاول أن يهرب متخفيا . لكن بانيشي لم يلبث أن كشفه في هيئة اوزة ملقاة على ظهرها .. والى جوارها صياد مستعد للقضاء عليها .

وخلع الساحر الحبشى كبرياءه ، وراح يقبل الارض ويطلب الغفران .

ـــ عفوك ياسيدى .. أنا أعترف بجرمي والتمس منك الغفران . امنحني مركبا استقله الى بلادى فلا أعود الى مثل ما فعلت قط .

وأجابه بانيشي :

ـــ قسما بكل آلهة مصر .. لن تفلت من قبضتي قبل أن تتعهد امام الجميع بعدم العودة الى مصر ابدا ..

واقسم الساحر الحبشي :

ـــ وحق جميع الآلهة .. لن أعود الى مصر قبل أن تمضي الف وخمسمائة سنة .. !

وعندئذ اطلقه بانيشي من ربقة السحر ... ومنحه مركبا اعاده الى بلاد الزنوج ...

❊ ❊ ❊

هنا توقف سنوزيريس عن التلاوة .. فقد انتهت القصة ..

وسجد الشيخ الحبشي ، وعفر جبينه في التراب وقال :

ـــ لقد نجحت في مهمتك .. وتلوت القصة بكل حرف فيها .

ولم يكد ينتهي من اعترافه حتى حاول الهرب والنجاة . لكن سنوزيريس تلا تعاويذه ، فتوقف الحبشي وتسمرت قدماه ، وما استطاع الحركة ابدا .

وتكلم سنوزيريس مخاطبا فرعون :

ـــ إن هذا الساجد تحت قدمي ايها الفرعون العظيم .. ليس سوى نازى الحبشي نفسه .. لقد انتهت الألف وخمسمائة سنة التي كان قد أقسم ألا يطأ خلالها ارض مصر ، وعاد لينتقم من مصر والمصريين . اما أنا .. يا من تعرفونني باسم سنوزيريس .. فلست سوى بانيشي .. وقد علمت بينما انا في العالم الآخر أن هذا الحبشي سيسلط سحره على مصر . فسألت اوزيريس أن يعيدني الى الأرض لأصده من النيل من كرامة بلادى .. وهاأنذا قد فعلت ..!

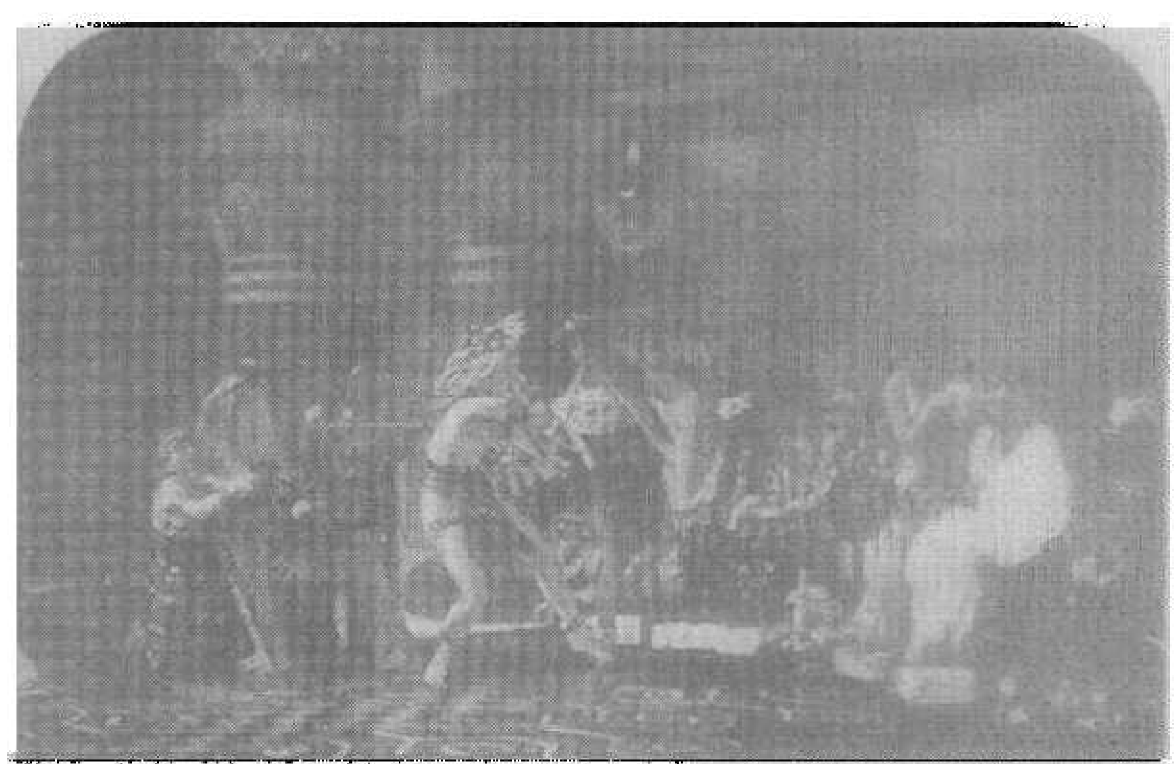
وعندما انتهى بانيشي المتقمص في جسد سنوزيريس من كلامه ، تلا تعويذة غامضة ، فاذا نازى الحبشى يتحول الى رماد .. !

وبينما الجميع ينظرون في دهشة الى بقايا الحبشى .. إذا بانيشي هو الآخر يتلاشى من امامهم فجأة .. كأنما قد ابتلعته الارض .. !

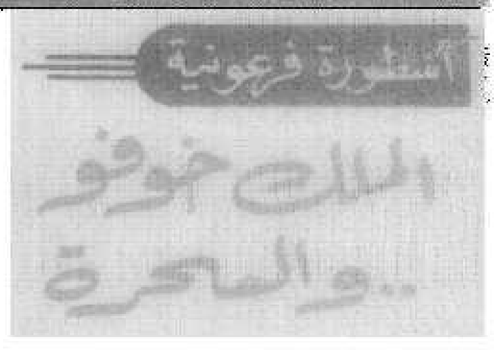
وخيم على المجلس سكون رهيب .. قطعه بكاء طويل في اقصى القاعة .. واطل الفرعون .. واهل مصر جميعا .. فاذا «ساتني» قد انتحى ركن القاعة، وراح يبكي ولده الذي اختفى وتلاشى .. والى جواره وقفت « ماهي » زوجته تعزيه وتخفف عنه بلواه ..

وسكت الجميع .. فما كان احد ليستطيع أن يتكلم بعد .. !





كان الملك سنفرو محزون النفس مكتئب القلب .. وعبثا حاول رجال القصر تسليته بالعازفات والراقصات



كان للسحر في مصر القديمة اثر كبير في حياة الناس .. حتى لقد كانت اعمال السحر تستهوى الملوك والأمراء فيتخذون منها مجالا للهو والتسلية .

غير ان أصحاب عبادة الشمس الذين جاءوا بعد اسرة خوفو وأرادوا السيطرة على العرش ، كانوا يعتبرون السحر لونا من ألوان الكفر .. فلما أرادوا السيطرة على عرش مصر ، راحوا ينسبون الى خوفو واسرته الالحاد والميل الى الى السحر والسحرة .. وراحوا يطعنون في عقيدة اسلافه وابنائه ، ويمهدون لظهور دينهم من خلال هذه الاسطورة التي وضعوها ليؤكدوا بها حق ملوكهم في العرش ، عن طريق تأليههم ونسبتهم لرع .. ربه الشمس العظيم .

احس بضيق من كل شيء حوله . وعقا إلى بضع لحظات من المرح تسليه وتخفف عنه بعض ما يحمل فوق صدره . فأرسل خوفو إلى ابنائه الثلاثة يستدعيهم ليقصوا عليه بعض ما درسوه من انباء سحرة طيبة ، ويسردوا على سمعه بعض ما عرفوه من خفيف الملح وطريف الفكاهات ..

ونهض خفرع « أكبر أبناء فرعون » وبدأ يروي لأبيه قصته :

هذه القصة وقعت احداثها في منف ، خلال أيام ملكها الفرعون نبكا . وكان من عادة الملك كلما جاء الى معبد الاله بتاح بمدينة منف ، أن يزور الكاهن الساحر « أوباد » ... يسمران ويتبادلان الحديث حتى يحين وقت العودة ..

وذات يوم ، بينما الملك وحاشيته في زيارة الكاهن ، إذ وقع بصر أمرأته على فتى من الحاشية جميل رقيق . واقتربت المرأة منه ، وراحت في غفلة من الجميع تناجيه ، وتطلب منه ان يعود متى انتصف الليل ، يقضيان معا بعض ساعات العمر ..!

وكانت امرأة الكاهن جميلة رائعة . فما استطاع الفتى رفضًا لفرصتها الشيق ، وما كان أسرعه عندما انتصف الليل ، في الانطلاق الى حيث خادمته له خلف الأشجار . وأخذت المرأة بيده ، وسارت به الى حيث كوخ ظليل في بستان القصر ، قضيا فيه بعض الوقت ، ثم اتفقا على اللقاء نهار كل يوم في المكان ذاته ، بينما يكون الكاهن قائما على شئون معبده لا يستطيع أن يبرحه .

وما حدث في ذلك اليوم ، حدث مثله في كل يوم جاء بعد ذلك .. فما يكاد النهار يجيء ، وينطلق الكاهن الى المعبد ، حتى يكون الفتى في الكوخ حيث تكون امرأة الكاهن في انتظاره ، فيضمها الى صدره ، ويحيطها بذراعيه ، وينيلها كل فاجر وخبيث من ألوان الغرام . وتستمر بكل منهما النشوة المجنونة حتى تغيب الشمس .. وعندئذ يقصد الفتى الى بحيرة في البستان يغتسل فيها ، ثم ينصرف من بعد ، ليعود لنفس القصة مع مطلع اليوم الجديد ..!

وانتبه حارس البستان الى ما يقع في بيت سيده كل يوم .. ومضت أيام كان يخشى خلالها أن يكشف له الأمر .. غير أن تلك الخشية كان لابد أن تزول مع الخبرة ما كان يمر من أيام . فانطلق الحارس الى سيده يقص عليه القصة كلها ، ويطلب منه أن يعفيه من العمل الذي كرهه وأبغضه .

وثار غضب الكاهن لخيانة امرأته ، وامتلأ قلبه حقدا وغيظا ، واستبدت به رغبة جارفة في الانتقام .

وفتح الكاهن صندوقا من الابنوس أخرج منه كتاب التعاويذ . وبعد أن قرأ فيه قليلا أغلقه ، ثم أخذ قطعة من الشمع ، جعل منها دمية في شكل تمساح صغير لا يزيد طوله عن سبعة أصابع .. وراح يتلو عليه من تعاويذ السحر ما يغريه بكل من ينزل الى البحيرة ، ليجذبه حتى القاع ..!

وسلم الكاهن الدمية إلى البستاني وقال له :

— خذ هذا التمساح ، واقذف به في البحيرة حتى نزل الشاب ليغتسل في الماء ..!

وكان الغد . وجاء الفتى يختلي بامرأة الكاهن في بستان القصر .. تماما كما كان يحدث كل يوم . وراح العاشقان يصخبان ويضحكان ويشربان الخمر حتى إذا غابت الشمس نهض الفتى إلى البحيرة يغتسل .. وما كاد يقفز في الماء حتى تبعه البستاني فجأة بتمساح الشمع ..

وفي لحظة .. تحول التمساح الصغير إلى تمساح هائل طوله سبعة أذرع ، هاجم الفتى وقضم ساقه ، ثم جذبه في قوة معه إلى قاع الماء ..!

* * *

في ذلك الوقت كان الكاهن « أوباو » قد ذهب الى قصر فرعون ليقضي بعض شئون فيه . واستمر عمله في المدينة أياما سبعة ، لم يكد ينتهي عنها ويعود الى منف ، حتى تبعه الملك ليزور معبد بتاح ..

وقال الكاهن لفرعون :

— ألم تر الى المعجزة التي وقعت في عهدك ؟

قال الملك :

— فما هي ..؟

قال أوباو :

— تعالى معي لترى بنفسك وتسمع بأذنيك ..!

وانطلق الملك مع الكاهن حتى بلغا ضفاف البحيرة . ونادى الكاهن على التمساح ، فخرج من الماء يجر الفتى بأسنانه ، ثم ألقى بجثته أمام الملك ..

قال فرعون :

— إن التمساح لرهيب ..!

وهنا انحنى أوباو ، وأخذ التمساح بين يديه ، فاذا به يعود سيرته الاولى .. دمية من الشمع لا يزيد طولها على أصابع سبعة .. ثم راح الكاهن يقص على فرعون ما كان من أمر الفتى والزوجة الخائنة .

وهز الملك رأسه الذي اشتعل شيبا .. ثم قال لدمية الشمع :

— أيها التمساح .. خذ ما لك ..!

فانتفضت الدمية لتصير تمساحا هائلا من جديد ، أمسك بجثة الفتى الخائن ، وقفز بهما إلى الماء .. ولم يره أحد بعد ذلك قط ..!

وانتهت قصة خفرع ، بينما العجب يأخذ بالملك خوفو الذي ترحم على روح سلفه بألف رغيف ، ومائة جرة من شراب ، وقطعة من لحم ، وصاع واحد من البخور ..!

* * *

وجاء دور الأمير « باوف رع » ليقص القصة الثانية على فرعون . قال الأمير :

أحداث هذه القصة وقعت أيام جدي الملك « سنفرو » . وكان الملك في ذلك اليوم محزون

النفس مكتئب القلب . وعبثا حاول رجال القصر ان يهتدوا إلى ما يذهب عنه الحزن أو يزيل عن نفسه الضجر . وإذ بلغ الامر بالملك ذلك المبلغ ، دعا إليه كاتبه « جاجا إم عنخ » وقال له :

— أيا ابن اخي .. لقد ظلت كل المراد حاشيتي اجتلابا للسرور والتفكه بمايروح عن النفس، فعجزوا كلهم عن تلبية طلبي . افلا تستطيع انت سبيلا إلى تسليتي ؟

اجاب الكاتب :

— بلى يا مولاى .. فما عليك إلا ان تخف إلى بحيرة البستان ، وتأمر باعداد اجمل الزوارق لاجمل نساء حرملك . فانك اذا رأيتهن يجدفن ذهابا وجيئة ابتهج قلبك وارتاح فكرك وسرى عنك ..

وسر الملك لاقتراح الكاتب . فانتقى من أميرات الحرم عشرين اميرة ، ممن تميزن برشاقة القدود وطول الشعور ، والقى عليهن ثيابا شبكية رقيقة النسيج لطيفة اللون تشف عما تحتها ، واعطاهن مجاديف من خشب الابنوس الموشى بالذهب ..

وراحت الاميرات يجدفن ، واخذ الزورق يسبح . وتسللت إلى نفس فرعون البهجة تسمى إليه من خلال الماء والخضرة وجمال الوجوه .. وما لبث الجو من حوله ان امتلأ بالصفو والحبور .

غير ان ذلك الفرح ما كان ليستمر طويلا . فبينما الاميرات يجدفن ويغنين ، إذ بمقبض احد المجاديف يصطدم بشعر كبراهن ، فيسقط من شعرها في الماء طلسم ثمين على شكل سمكة ..

وامسكت الاميرة ، كما امسكت الاميرات حولها ، عن التجديف والغناء . وتلفت الملك يسأل عن سر سكوتهن ، فعلم بما وقع لكبيرة الاميرات .

وابتسم فرعون يهدئها ويهون عليها الامر ، وقال لها إنه سيأمر بما يعوضها مما فقد . غير ان الاميرة امعنت في الرفض وهي تبكي ، واصرت على استرجاع جوهرتها الثمينة المفقودة .

وتحير الملك . واخذ به ضيق كبير ..

والتفت الملك إلى رجال حرسه ، وامر باستدعاء كبير الأسرة « جاجا إم عنخ » وقال الملك للكاتب :

— يا جاجا إم عنخ .. لقد اخذت بنصيحتك وفعلت ما اقترحت . وما كادت البهجة تعود إلى نفسي ، حتى وقع طلسم إحدى الأميرات في الماء فتوقفت عن الغناء والتجديف ، وتوقفت معها كل الاميرات . وبرغم كل ما حاولت من تهوين الامر ، اقسمت الاميرة الا تستأنف عملها حتى تستعيد جوهرتها هي ذاتها ، لا شبيهتها ولا سواها . فدبر لنا الامر كما دبرت من قبل تلك النزهة !

وفتح الكاتب كتابه السحري ، واخذ يتلو بعض التعاويذ . فما هي إلا لحظة حتى ارتفع نصف الماء وانطوى على النصف الآخر كما تطوى قطعة نسيج . واطل الكاتب في الماء فاذا الجوهرة الثمينة مستقرة في القاع ، فمد يده وتناولها ، واعادها إلى الاميرة . ثم تلا تعويذة أخرى عاد لها ماء البحيرة كما كان .. واستأنف الملك مرحه وبهجته مع الاميرات الصغيرات ..!

وانتهت قصة الامير . وسر خوفو من تلك المعجزة التي أتاها الكاتب الساحر في عهد ابيه الملك سنفرو . فأمر بتقديم الف رغيف ومائة جرة من شراب وذبائح ومساعين من البخور لروح الملك .. وتقديم قرص حلوى وجرة شراب وقطعة لحم وصاع خمر لروح « جاجا إم عنخ » .

* * *

وهنا نهض الامير « حور ددف » يقص على ابيه الملك خوفو قصة ثالثة . قال الامير :

— لقد سمعت يا مولاى قصص الاعاجيب القديمة التي لا سبيل إلى التأكد من صحتها . اما انا ، فسأحضر بين يدي جلالتك ساحرا معاصرا لا تعرفه ، في استطاعته أن يقدم معجزاته بين يديك .

قال خوفو :

— اواثق أنت مما تقول يا حور ددف ؟

اجاب الامير :

— اجل يا مولاى . فهناك قروى رقيق الحال يدعى « ديدى » يسكن قرية « دبد سنفرو » جنوبي منفيس . إن هذا الرجل ساحر مسكين ، تجاوز عمره المائة بعشرة اعوام . ولكنه برغم شيخوخته يستطيع ان يأكل من الطعام كل يوم خمسمائة رغيف ، وفخذ ثور ، ويستطيع ان يشرب وحده مائة جرة من الجعة . ومن عجائب سحره يا صاحب الجلالة انه يعيد الرأس المقطوع الى مكانه ، ويخضع الاسد الكاسر فيتبعه طائعا دون ان يجره بزمام ، ويعرف فوق كل ذلك عدد الصناديق الموجودة في ناووس هيكل « توت » وعدد الكتب السحرية الموجودة في كل صندوق ..!

وعندما سمع الملك ذلك قال لولده :

— يا بني لقد طالما بحثت عن صناديق الكتب

التى تحدثت عنها تلك أجدادنا . وإن لى تجنى حتى وجدتها ان الشيخ الكتب وأضع نسخها فى هرمى . فأسرع باحضار هذا الشيخ الجليل لعلنا نستفيد بعلمه ومقدرته .

وامتثالا لأمر فرعون ، نهض حور ددف واستقل زورقا ملكيا توجه به الى « ديد سنفرو » حيث يسكن الساحر العجوز . وإذ رسا الزورق ترجل الأمير، ورفعه الحمالون على محفة من خشب الأبنوس الموشى بالذهب ، حتى بلغ بيت الساحر . وكان ديدى فى تلك اللحظة يستلقى على سرير صغير عشد عتبة بيته ، وحوله عبدان احدهما يحك راسه والآخر قدميه ..!

وحيا الأمير الساحر وقال له :

ـ إن ملامحك أيها الشيخ لتدل على أن التقدم فى العمر يضاعف سعادتك ويحول بينك وبين هموم الحياة . إن غيرك فى الناس يفرقون من الشيخوخة لأنها فى نظرهم نهاية الرحيل والتأهب للعودة إلى الأرض . اما أنت فمصيرك أكثر سعادة لأن حكمتك أوسع وأرحب . ولهذا فقد اتيت إليك من قبل أبى فرعون خوفو أدعوك لزيارته .. وهناك .. فى رحاب الملك ، ستأكل وتشرب أشهى ما يقدم لضيوف القصر من طعام وشراب ، وستقضى بقية عمرك على أسعد ما تكون الحياة .

أجاب الساحر ديدى :

ـ نبيك يا حور ددف ، أيها الأمير الحبيب . ليهنأ بك أبوك ويقدمك على كل الشيوخ والحكماء . إن عملك يا بنى لينفذ إلى كل الأشياء الخفية ، وإن طلبك ليلبى يا ابن فرعون العظيم .. !

ومد حور ددف يده فأقام الشيخ من سريره . وقاده إلى الميناء حيث أعد لامرائه واولاده زورق خاص ، بينما استقل الشيخ مع الأمير زورقه الملكى .

وبلغ الركب قصر فرعون . وخف الملك لاستقبال الساحر الشيخ فى البهو الكبير وهو يقول :

ـ كيف يمكن أن يعيش مثلك فى عهدى دون أن اسمع به أو أراه ؟

أجاب الشيخ :

ـ إن من يدعى يلبى الدعوة . ولقد دعوتنى ياسيد المصريين فاذا انا بين يديك .

قال الملك :

ـ أصحيح انك تستطيع إعادة الرأس المقطوع إلى مكانه ؟

أجاب الساحر :

ـ أجل يا مولاى

هتف الملك :

ـ اذن ، احضروا إلينا سجينا محكوما عليه بالاعدام ، نجرب على رأسه تلك القدرة !

فقاطعه الشيخ الساحر قائلا :

ـ عفوك يامولاى ... إنى لأترفع عن إجراء مثل هذه التجربة على الرجال وكل مقدس من الحيوان .

وخجل فرعون ، ثم أمر بإحضار أوزة قطع رأسها ووضعه فى طرف البهو ، ووضع جسمها فى الطرف الآخر . وراح ديدى يهمهم ببعض التعاويذ فاذا بالجسم يقفز صوب الرأس ، والرأس يقفز صوب الجسم ، وما لبث الاثنان أن التحما ، وعادت الأوزة حية تصيح ..!

واستحضر الملك بجعة ، فأصابها ما أصاب الأوزة . ثم استحضر فحل بقر فكانت النتيجة واحدة . ولوحظ أن لديدى قدرة عجيبة على إخضاع الفحل وقيادته بغير زمام .

وهنا قال الملك :

ـ أصحيح أنك تعرف عدد صناديق كتب السحر فى ناووس هيكل توت ! ؟

أجاب الساحر :

ـ عفوا يا مولاى .. إذا كنت لا أعرف عددها فأنا على الأقل أعرف مقرها .

وسأل فرعون :

ـ وأين مقرها يا ديدى ؟

أجاب ديدى :

ـ إنها موضوعة فى صناديق من الصفيح فى غرفة السجلات ببهو معبد هليوبوليس .

قال فرعون :

ـ إذن احضر لى الصناديق .

أجاب الساحر :

ـ عفوا يا سيدى .. لست أنا الذى احضرها . بل يحضرها بكر الأبناء الثلاثة الذين تلدهم « رود ددت »

واستغرب فرعون وسأله :

ـ ومن تكون رود ددت ؟

قال الساحر :

ـ إنها زوج أحد كهنة الاله رع،يسمى «رع أوسر»

وقد تنبأ رع بأنها سوف تلد أبناء ثلاثة ، يملكون الأرض قاطبة ، ويصير كبيرهم ملكا وعظيم كهان الشمس في هليوبوليس .

عندئذ خفق قلب فرعون هلعا وملأه الغم ، فقد بدا له كأن أسرته تحتضر وتموت ، غير أن الساحر تابع كلامه وقال :

— ليطمئن بالك يامولاي ، فولدك سيكون ملكا من بعدك ، ومن بعد ولدك سيملك حفيدك ، ولكن بعد حفيدك سيملك كبير أبناء رود ددت .

وملأ الملك الحزن فدخل إلى القصر ، وأمر بأن يقيم الشيخ في كنف خوفو ددف ، وأن يعطى كل يوم ألف رغيف ومائة جرة جعة ، وثورا ومائة حزمة من البصل . . !

* * *

والحق إن رود ددت كانت تقيم في مكانها بدار زوجها كاهن « رع » ، وكانت الأيام تمر بها رتيبة ثقيلة حتى أتى اليوم الموعود وجاءها المخاض .

في ذلك اليوم دعا رع إله الشمس ابنتيه الالهتين إيزيس ونفتيس ، والالهة « مسخونت » حارسة المهود وواهبة الأسماء ، والالهة « حقات » المولدة ، وزوجها الإله « خنوم » مصور الأجنة في الأرحام .

وقال رع لهذه الآلهة :

— كونوا إلى جانب رود ددت في ساعة العسر ، فإن أولادها الذين تلدهم سيكونون ملوك هذه الأرض وسيبنون المعابد والمقاصير ، ويملأون هياكل الآلهة بالضحايا والقرابين . . !

ومضت الآلهة مبكرة بأمر رع ، فاتخذت الإناث هيئة المغنيات والراقصات ، وقام الإله خنوم مقام الخادم الذي يتبعهن .

وعندما بلغن بيت رود ددت ، وقفت الراقصات بالباب وبدأن يرقصن ويعزفن ويضربن على الدفوف ، وخرج الكاهن يطلب منهن أن يسكتن ؛ لأن زوجته في ساعة عسر . فعرضت الراقصات على الكاهن معونتهن بعد أن أنبأنه بحذقهن في معرفة ما يعين الوالدة وما يلزم لها ساعة الوضع .

وفرح الرجل ، وقاد الإلهات ليساعدن المرأة ؛ فإذا هي تتمخض عن ثلاثة ذكور لهم مظاهر الملوك ؛ ويحملون زينة الملك وشاراته ، وعلى أغطيتهم نقشت ألقابهم بحروف من الذهب ، وأطلقت عليهم إيزيس أسماء الملوك أوسركاف ، وساحورع ، وكاكاي .

وتأهبت الإلهات للانصراف ، وذهبن يبشرن



وكانت رود ددت تقيم في مكانها بدار زوجها
كاهن رع والايام تمر بها ثقيلة رتيبة

الكاهن بما وضعت زوجه . فابتهجت نفسه وأظهر شاكرا وهو يقدم لهن بعض الشعير ، فقبلن هذه الهدية ، وحملها الإله خنوم ، وغادر الجميع دار الكاهن .

وبينما الإلهات في الطريق ، إذ قالت إيزيس لرفيقاتها :

— علام كانت زيارتنا لرود ددت ؟ لقد عدنا دون أن نمنحها أعجوبة تكون في المستقبل برهانا لها ولأولادها على أن الإله الأكبر رع هو الذي يرعاهم ؟ هيا بنا نعود لنمنحها المعجزة !

ووافقت الإلهات على ما اقترحت إيزيس ، فصنعن ثلاثة أكاليل ملكية لا يتوج بمثلها سوى الفراعنة ملوك الأرض كلها ، ثم غرسنها بين حبوب الشعير .

وأرادت الإلهات العواصف فثارت ، واستمطرن السماء فأمطرت ، ليجدن ما يبرر عودتهن إلى بيت الكاهن فقلن :

— إن المطر يهطل بشدة ، حتى ليخشى أن تتلف هذه الحبوب التي وهبتنا ، إذ ستبللها المياه وتؤدي

إلى مغنيها لا محالة . فدعها الآن في قبو مغلق ريثما تعود بعد حين من رحلتنا إلى الجنوب .

وغادرت الالهات بيت الكاهن . وانطلقن إلى السماء ..

أما الوالدة ، فقد خرجت من غرفتها بعد أربعة عشر يوما ، ونهضت لأعمال بيتها بعد أن علمت من جاريتها أن كل شيء في الدار على خير حال .. لا شيء تغير .. ولا مؤونة نقصت .. سوى ما أهداه زوجها لأولئك المغنيات من شعير أودعنه قبو الدار حتى يعدن إلى أخذه بعد حين .

ومضت أيام ، ثم جاء يوم احتاجت امرأة الكاهن فيه إلى شعير . وطلبت رود ددت من الجارية أن تأتيها ببعض ما أودعته الراقصات لديهم على أن تعيد مقدار ما تأخذ إذا ما عاد زوجها .

وذهبت الجارية إلى القبو وفتحت بابه .. ففوجئت من الداخل بموسيقى وغناء ، وهتافات شجية كمثل هتافات الشعوب لملوكها . وانطلقت الجارية تقص الأمر على مولاتها . ودخلت رود ددت القبو فلم تستطع أول الأمر أن تكتشف مصدر الغناء والهتاف . واستمرت تبحث ، وتضع أذنها على الأكياس حيث الحبوب المعدة للمغنيات ، وعندئذ أدركت أن الأصوات تنبعث من داخلها .

وعمدت المرأة إلى صندوق خشبي وضعت فيه أكياس الشعير ، وأحكمت إغلاقه وختمته بخاتمها ، ثم لفته بقطعة جلد ووضعته في قبو الأواني الفارغة .. ثم أوصدت الباب ..!

وعاد الكاهن في المساء فأخبرته بما فعلت ، وقصت عليه كيف أخفت الشعير محافظة على أبنائها .. فهي ترى أن تلك الأصوات إنما هي بشير خير ، قد يخشاه الملك إذا عرف أمره .. وربما قتل بسببه أبناءها ..

وذات يوم ، أغضبت الجارية سيدتها فضربتها . وسخطت الجارية وهي تغادر الدار حاقدة ، وأصرت على الكيد لرود ددت بعد حين ، بإفشاء سر الشعير الموسيقي الذي بشر بالملوك الثلاثة ، حتى يصل أمره إلى فرعون ..

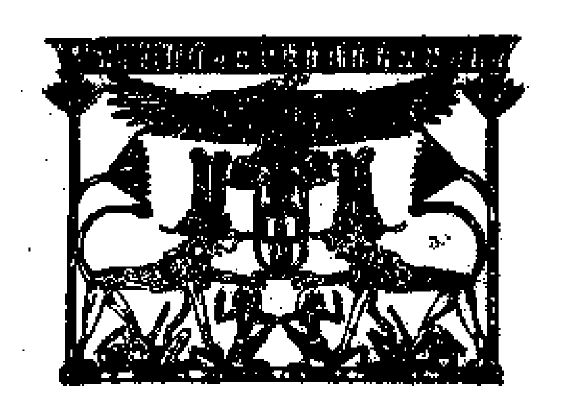
وسارت الجارية في الطريق ترغي وتزبد . وإذ هي كذلك لقيها أخ لها يغزل الكتان . وعندما سألها إلى أين تذهب ، أخبرته بما قررته . وأغضب تصرفها أخاها ، فتناول حزمة من جذوع الكتان وراح يضربها وينهرها ويثخنها بالجلد الفظيع ..

وهربت الجارية من أخيها وراحت تجرى . وعندما وجدت نفسها بقرب النهر نزلت إلى الماء تريد أن تبرد أوجاعها وآلامها . وإذ هي تسبح خرج من الماء تمساح هائل فتك بها وابتلعها .

ومضت الجارية الخائنة إلى غير رجعة ..

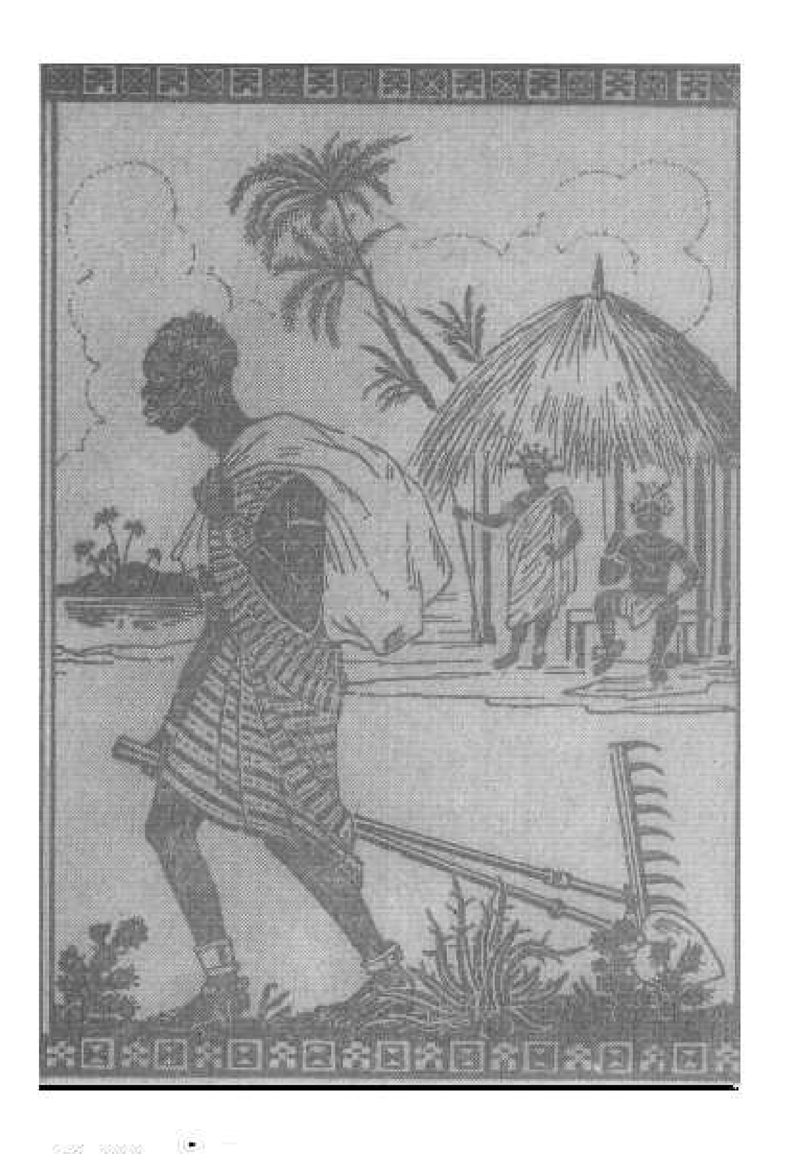
وانطلق أخوها إلى رود ددت يبشرها بهلاك أخته جزاء ما أضمرت لها من كيد ..!

وفرحت المرأة .. وظلت تعيش في فرحتها حتى صار أبناؤها من بعد ولد خوفو وحفيده .. ملوكا على كل أرض مصر ، وكهانا باسم رع حورس .. إله الشمس .. وسيد هليوبوليس ..





تتميز أساطير الزنوج بأخبار الجن والجينارو .. حتى لتتخذ منهم أبطالا حقيقيين يبشمون خيرا مما يجنى الإنسان نفسه .. بل ويبزونه فى اختراع الحيل ووسائل المكر والدهاء . ومن كل أسطورة يخرج الزنجى دائما بحكمة جديدة رائعة ، تبدو من خلال صور الكفاح بين الإنس والجن لتملك الأرض العامرة بالخيرات والكنوز ..



وانطلق سابونيوما مخترقا شوارع امسالا فى طريقه الى مزرعة الشيطان

هنـاك بعيدا .. قرب قرية « امســالا » حيث تجرى مياه النيجر الزرقاء ، تمتد أرض بور شاسعة تحيط بها الغابات من كل الجهات ..

فى هذه الأرض ، كان يقيم شيطان لئيم قزم ، اسمه « الجينارو » .. يثير ذكره الرعب فى القلوب ، ويجعل كل من يسير مخترقا « امسالا » فى طريقه إلى المدينـة يسرع الخطى فى اضطراب مجنون .. وكأن من خلفه الموت .. !

وذات يوم .. بينما كان الفلاح سابونيوما يمر بالطريق ، أطل فاذا الأرض جميلة رائعة .. يشير مرآها الحسد لموقعها من الماء الذى كان يمكن أن يجعل منها حديقة كالجنة .. لولا خوف الناس من صاحبها .. الجينارو ..!

ومنذ تلك اللحظة لم يستطع سابونيوما إبعاد منظر الأرض الشاسعة البور من رأسه .. وقد غاظه ان تظل بلا رعاية .. فى الوقت الذى يستطيع هو فيه أن يتعهدها ويزرعها ..

وبلغ الضيق بسابونيوما حدا جعله يصر آخر الامر على الذهاب إلى أرض الشيطان وزراعتها . وانطلقت امرأته إلى سحرة القرية تنبئهم بما استقر عليه رأى زوجها . فأحاطوا جميعا به يمنعونه من الذهاب ، ويؤكدون له ان هذه الأرض ما بقيت بورا إلا لأنها ملك الشيطان .. الذى لا يسمح لأنسى قط بالأعتداء عليها .

وما أكثر ما حاول السحرة إثارة الرعب فى قلب سابونيوما . وما أكثر ما ساقوا من قصص أفراد

حاولوا الحضور إلى الأرض السوداء .. ليرهبهم أسراب الشياطين الحمراء ذات القرون ، والقت بهم خارج حدودها بعد أن شوهت أجسادهم أحياناء بالنار ..

وبرغم كل ذلك .. ظل سابونيوما مصرًا على حرث أرض الشيطان ..

وفي الصباح .. انطلق الفلاح المغامر تاركا داره ، وعلى كتفه فأسه ، مخترقا شوارع اسسالا في الطريق إلى الأرض التي أكد له السحرة أنها ملعونة منذ القدم .. ولكنه قبل أن يذهب إليها كان قد أكد لامرأته أنه قد اقتنع بنصائح السحرة ، وأنه لن يذهب إلى الأرض الملعونة .. بل سينطلق إلى المدينة في بعض الشئون ..

ووقف سابونيوما على حدود أرض الشيطان ، وعلائم الرهبة ، غير أنه لم يهتم للرعشة التي أخذت به .. وأسرع ووضع قدمه داخل الأرض وهو يقول :

— أبدًا لن أتوقف عن العمل بسبب تلك الأقاصيص السخيفة .. ومع هذا فهأنذا قد اخترقت الأرض ولا أرى ظلا لشيطان .. إلا ما أحمقها من خرافات ..!

وبضربة واحدة من فأسه شق سابونيوما الأرض .. وعيناه تدوران في كل مكان حوله خشية أن يظهر الشيطان . ومع كل ضربة فأس كان سابونيوما يتوقف بضع لحظات .. غير أن شيئًا لم يحدث أبدًا .. وما كان هناك ما يدل على وجود أحد في ذلك المكان الواسع الكبير ..

واطمأن سابونيوما . وبلغت به الثقة حدًا راح معه يصفر ويغني .. بينما الفأس يتزل ضرباته الحديدية تشق الأرض وتعدها لإلقاء البذور .

وإذ غابت الشمس ، واختفت وراء الأفق ، جلس سابونيوما تحت ظل شجرة قريبة فوق حجر كبير يشرف على الحقل كله .. وراح يتأمله في سرور وقد بدا له أن قد أصبح صاحبه الوحيد ..

وفجأة انتبه إلى صوت رفيق ينطلق غير بعيد منه ويقول :

— مرحى ياسابونيوما مرحى .. يا أذكى رجال القرية .. يا من سخرت بكل خرافات السحرة وكنت وحدك على صواب . إنهم يقولون عني إنني شيطان فهل يدل صوتي الضعيف الرقيق على أني كذلك ؟

وراح سابونيوما يطل حوله في فزع كبير . فما وجد أحدًا قط ، ولا استطاع أن يحدد المكان الذي ينطلق منه الصوت .

وعاد يسمع من جديد :

— لكم يؤسفني أنني لا أستطيع أن أكون مرئيًا لك .. إذن لرأيت أنني صغير جدًا .. أكاد لا أبلغ قدر ركبتك طولا .. ولوجدت أن رأسي خال من قرون الشياطين ، إن جسدي غير مرئي يا سابونيوما .. ولكنك تستطيع أن تحدد مكاني إذا نظرت إلى ذلك الغصن القريب ، فستراه يتمايل تحتي وكأني كأنما يداعبه النسيم . إنني أجلس فوقه الآن ، وأتخذ منه أرجوحة صغيرة .. فهل تراني بعد ذلك ماردا عملاقًا كما يتصورون ؟!

وكان الروع قد بدأ يزول من قلب سابونيوما ، خاصة عندما أطل إلى الغصن الصغير فإذا به يتمايل في رقة توحي بأن ما فوقه ليس شيئًا يخيف . وزاده اطمئنانا أن صوت الكائن الخفي كان ضئيلا ضعيفا يؤكد خروجه من جسم ضئيل ضعيف .

وهنا انطلق صوت سابونيوما يسأل في غير خوف :

— ومن أنت إذن ؟

أجابه الصوت :

— أنا الجينارو .. صاحب الحقل الذي بدأت حراثته منذ ساعات . لقد رأيتك تشتغل طول اليوم بقوة ونشاط حتى لقد ثارت بي الرغبة في مساعدتك ، وزادت بي الرغبة عندما وجدتك شجاعا تزدري تهديد السحرة وتسخر من خرافاتهم .. فشعرت أنك نعم الصديق ، وقررت أن أصنع لك من هذه الأرض البور حقلا جميلا مثمرا ، تستطيع من ورائه أن تكون أغنى الأثرياء ..!

وقال سابونيوما :

— وكيف تستطيع مساعدتي في زرع هذه الأرض ، وأنت كما تقول صغير ضئيل .. لا تملك من القوة ما يجعلك تحمل الفأس لتضرب وتحرث ذلك الطين الكثير ؟

أجابه الجينارو :

— اطمئن أيها الصديق ، فما كنت لأستعمل فئوسك وأدواتك الثقيلة قط . ولكني سأدعو أصدقائي الكثيرين الذين يلعبون الآن في الغابات ، فيأتوا سراعا ، ويستخدموا في حرث الأرض تلك الحجارة الكثيرة المسطحة الملقاة هنا وهناك ..!

وفتح سابونيوما عينيه دهشة ، بينما انطلق

الجينارو بغناء طريا حافلا يشبه صفير الريح ، لم يكد ينطلق حتى اهتزت الأرض البور من تحته وأمامه . . وإذا الحجارة ترتفع وتنخفض وحدها تشق الطين وتحرثه في براعة وإتقان . . !

وبدا لسابونيوما كأنما يسمع أصواتا ضئيلة مبهمة لعلها لهتافات الفعلة الصغار وهم يعملون . وصاح الفلاح حائرا :

ـــ أين أنت يا جينارو ؟ إن مشهد الأرض وهي تتحرك ليذهلني ويدهشني ويجعلني أتمنى أن أراك .

وأجابه الجينارو :

ـــ ها أنذا واقف إلى جوارك الصح عرقا ، كما يتصبب كل من حولي الآن من الأصدقاء الأعزاء . ولكننا مع ذلك سنظل نعمل طوال الليل ، حتى إذا ما بزغ الصباح ، رأيت الأرض محروثة ممهدة . . ولعلك حينئذ تصفق طربا لأنك لم تخش الشيطان الذي هددك به الأغرار والجهلاء من سحرة قريتك . . !

أجاب سابونيوما في سرور :

ـــ أجل . . أجل يا صديقي العزيز . . لكم أرقص طربا إذ أراك تمد لي يد العون وتحرث الأرض بكل هذا النشاط وتلك القدرة . ولكن خبرني . . لماذا تركتها بورا وأنت تحسن وأصدقاؤك مثل هذا العمل العجيب . . ؟

أجابه الجينارو :

ـــ نحن لا نحتاج إلى الثمار والخضرة كما تحتاجون إليها أيها الإنس . فقوام حياتنا الهواء الذي جعل أجسادنا شفافة كما ترى . ونحن مع هذا لا نحب العمل ، بل اشتغلت أنا وصحبي من أجل أن نسرك أنت وحدك . وإنا لنعاهدك أن نستمر في مساعدتك في كل المناسبات . . وما عليك سوى أن تبدأ بما تريد ، تجد الجميع يكررون ما تفعل ويقلدونك . . وإذا العمل كله ينتهي في لحظات قصار . . !

فانتصب سابونيوما قائلا :

ـــ شكرا جزيلا يا صديقي الجينارو . وإني لأقسم أن أستمر صديقا لك مدى الحياة .

أجاب الجينارو :

ـــ ضع إذن يدك في يدي ، ولنقسم معا على الوفاء . . !

وشعر سابونيوما بما يشبه اليد تصافحه وتهز كفه . وأحس رعشة . . تسري أنه امتلأ فرحا وهو يجد نفسه في الطريق السوي إلى ثراء كبير .

وانطلق سابونيوما إلى بيته ليعود مع الصباح . . وعندما عاد كان الحقل كله قد تم حرثه . وسمع صوت الجينارو يحدثه :

ـــ هل أنت مسرور الآن يا سابونيوما ؟ ها نحن قد أتممنا الحرث ، ولو كنت قلت لنا ماذا نفعل بعد ذلك ، أو لو أنك بدأت بما تريد أن تفعل لقلدوك ، ولوجدت العمل كله قد تم في الحال على الشكل الذي تريد .

وازداد سابونيوما فرحا وإيمانا بالأصدقاء الذين يصنعون له كل شيء . ولم يكد يشرع في جمع الحشائش التي ملأت الأرض ، ويكدسها ليحرقها ، حتى تكاثرت الأكداس وتجمعت الحشائش وحدها من كل مكان في بضع لحظات . . واشتعلت النيران فيها قوية متأججة . . !

وقال سابونيوما :

ـــ لم يعد أمامنا الآن سوى تمهيد الأرض واستئصال الأعشاب لنلقي بعدها بذور الزرع . .

وانحنى سابونيوما يستأصل العشب . وإذا بقية الأعشاب تقتلع من كل مكان وتلقى في خارج الحقل الكبير .

وامتلأ قلب سابونيوما فرحا . إنه لا يكاد يكلف نفسه سوى بدء العمل حتى يقلده الجميع ، فينتهي في لحظات .

وعاد سابونيوما إلى بيته وقد أصر على إخفاء السر حتى عن امرأته . وشجعته المرأة فرحته فسألته ، غير أن الرجل لم يحر جوابا قط ، ولم يذكر لها من أمر الحقل شيئا أبدا . . وإن كان قد طمأنها إلى أنه سيأتيهما ثراء كبير . . !

وعندما جاء الصبح ، عاد سابونيوما إلى الأرض وقد حمل فوق كتفه كيس ذرة . وإذ مد يده لينثر البذور ، انطلقت الحبات كأنما ملايين الأكف تحملها وتنثرها في كل ثلمة في الأرض المحروثة كالرذاذ .

وفي أقل من طرفة عين ، كان الكيس قد فرغ من الذرة . . وكانت الأرض قد امتلأت بالبذور .

وملأت الفرحة قلب سابونيوما ، وصفق للزراع الصغار . وفي الحال التقى به الجينارو وأصدقاؤه ، ودوى تصفيقهم في كل مكان من الحقل الفسيح . . !

وإذ عاد سابونيوما إلى بيته ذلك المساء ، أطلت إليه امرأته وقد ازداد عجبها للفرح الذي يكاد ينطلق من عينيه . وراحت المرأة تغريه بالحديث وتسأله

هما هناك .. غير أنه ظل صامتا لا يريد أن يجيب .

وانقضت عشرة أيام ..

وقال سابونيوما لامرأته في الصباح ..

ـــ تعالي معي الآن لاريك شيئا يقنعك أنني كنت على حق حين بشرتك بالثراء الكبير ..

وانطلقت المرأة مع زوجها حتى توقفا عند حقل الجينارو . وكانت البذور قد بدأت تبزغ من الأرض زرعا صغيرا ناشرا أوراقه الجميلة الخضراء ..

وهتفت المرأة :

ـــ ما هذا يا سابونيوما ؟

أجابها :

ـــ هو عملي وعمل أصدقائي .

قالت له :

ـــ أي أصدقاء تعني ؟

وراح سابونيوما يقص على امرأته كل الأمر . وعند ما بدا له كأنها لم تقتنع ، دعا إليه الجينارو ، وطلب منه أن يطمئنها بصوته الصافي الرقيق .

وصرخت المرأة وهي تسد أذنيها عن سماع صوت الشيطان العتقي . وانطلقت تجري في رعب حتى بلغت القرية وهي لا تزال تصرخ وتسد أذنيها . وعند ما أحاط بها الجيران يسألون عن سر رعبها ، راحت تقص عليهم الأمر وتحكي كيف أصبح زوجها صديقا للشياطين ..!

وعاد الرجل إلى القرية . فلم يكد يدخلها حتى وجد الناس يزورون عنه ويبتعدون ويلقون عليه نظرات كلها الرعب والحذر . ولم يهتم سابونيوما لازدراء الناس .. بل إنه ما اهتم حتى بما تبديه زوجته ، وراح ينطلق مع صباح كل يوم إلى الحقل يرعى الزرع ويسد قنوات الري .. وينجز مع أصدقائه في ساعة واحدة ما لم يكن من الممكن إنجازه في أقل من أسابيع ..

وتتبع القرويون في وجل يمتزج بالحسد .. نمو الزرع في الحقل الكبير ..

وفجأة سقط سابونيوما في داره طريح الحمى . فراح يصرخ ويبكي ، وقد أدرك أن الطيور ستنقض على الحقل ، بينما الذرة تقترب من وقت الحصاد ، فلا تجد من يبعدها .

وفي خلال حزنه ونحيبه ، كان سابونيوما يقول :

ـــ وا أسفاه .. ستنقض الطيور على الزرع إذا لم أذد عنه بنفسي .. فيا لشقوتي ويلواي !

وكانت امرأته تصغي إليه وهو ينتحب فتمتلىء ألما . غير أنها لم تكن تستطيع أن تفعل شيئا ، ولا تريد أن تفكر قط في حقل الشياطين .

غير أن الألم والحزن ازدادا بها مع طول ما بكى وتألم ، فوجدت نفسها تنهض إلى زوجها وتقول له :

ـــ كف عن البكاء الآن .. سأذهب بنفسي إلى الحقل وأبعد الطيور عن زرعك حتى تشفى ..!

وسر سابونيوما وقال لها :

ـــ إنك لن تلقى كبير عناء هناك . فحين يراك الجينارو وأصدقاؤه ترجمين الطيور بالحجارة والطوب .. سيقلدونك هم أيضا ويقومون بالعمل خير قيام . أما أنا فلن أتركك وحدك .. بل سألحق بك حالما تزول عني الحمى ..!

وانطلقت المرأة إلى حقل الجينارو . فوجدت الطيور قد راحت تنقض على الزرع حتى لتكاد تقضي عليه .

وانحنت امرأة سابونيوما فتناولت قبضة من الحصى قذفت بها الطيور .. فولت الأدبار ..

وسمعت المرأة صوتا يحدثها :

ـــ إطمئني أيتها المرأة .. فسوف نساعدك ونقذف الطيور بالحصى كما تفعلين ..!

وارتعشت المرأة وهي تستمع إلى صوت الشيطان . وحين بدأت تتراجع لتجري ، لمحت أسرابا أخرى من الطيور تنقض على الزرع فتوقفت ، وانحنت من جديد تتناول قبضة من الحصى لتقذف بها الطيور .

ولم تكد المرأة تفعل حتى وجدت الحصى يرتفع من كل مكان ، وتقذفه أياد خفية على الطيور المنقضه فتنطلق بعيدا هاربة ..

وظلت غارات الطيور تتوالى .. ويتوالى معها قذف الأحجار والحصى لابعادها عن الحقل ..

وراحت المرأة تتطلع إلى ذلك المشهد الغريب .. وقد ملأها الاطمئنان . وكلما لمحت سرب طير آخر انحنت تلتقط الحصى وتلقيه .. فتتبعها الأيدي الخفية في نشاط كبير غريب ..

وانقضت ساعتان ، كانت الطيور خلالهما قد توقفت عن الاغارة على الحقل .. وأحست المرأة عطشا وجوعا جعلها تفكر في قطع إحدى سيقان الذرة تمتص لبابها وتستعيد بعض قواها ..

ومدت المرأة يدها فكسرت ساقا ، وقربته من شفتيها ..

ولم تكد تفعل ، حتى تكسرت كل أعواد الذرة التي تملأ الحقل ، وكأن منجلاً جباراً قد قطعها بضربة قوية واحدة .

وصرخت المرأة وهي ترى الحقل كله قد تحول إلى أكوام من أعواد الذرة المقطوعة . بينما كان سابونيوما في طريقه إلى الحقل بعد أن زالت الحمى عنه .

ووقف سابونيوما يطل في ذهول إلى زرعه الذي تحول إلى أكوام من الحطب الأخضر .. وصرخ في امرأته :

— ما الذي حدث أيتها المرأة ؟ !

وركعت المرأة أمام زوجها وهي تبكي وتجيبه :

— لقد صنعت كل ما بوسعي لأحمي الذرة من الطيور . ولكني لا أدري كيف سقطت السيقان كلها من تلقاء نفسها .. إنه لا شك من عمل الشيطان .

وزمجر سابونيوما صارخاً :

— بل أنت هو الشيطان أيتها الملعونة .. أهكذا تبددين في يوم واحد كل الثروة التي بذلت من أجلها كل جهدي وعرقي ..! ؟ أيتها المرأة الشقية .. ماذا فعلت لتجني على هذا الخراب ! ؟

وراح سابونيوما يضرب رأسه وكفيه ويكاد يجن .. ثم انقض على امرأته وصرخ :

— أيتها الشقية .. كيف حدث هذا ؟ تكلمي وإلا طردتك في الحال من البيت ومن القرية ..

وأجابت المرأة في غضب :

— تطردني ..! ؟ أهكذا يكون جزائي بعد طول ما عشت معك ؟ ومع طول ما خدمتك ؟ أتطردني بسبب ساق من الذرة الحقيرة ؟ ولكن لا .. إنني سأوفر عليك هذا العناء ، فأعود إلى أهلي اليوم .. وسأجعل أبي يعيد لك البقرات التي أخذها مهراً منك .. فهي تلقى عنده على الأقل راحة وغذاء إثر عملها ... لا شتائم . وإنها التعامل لديه بأفضل مما عوملت به عندك !

وصرخ سابونيوما :

— أتشكين سوء المعاملة أيتها المرأة الملعونة ؟ أتنتظرين مني الشكر والثناء على النكبة التي لحقت بي ..؟ خذي هذه الصفعة شكراً لك أيتها اللعينة ..!

وفي سورة الغضب انقض كف سابونيوما في صفعة قوية هائلة على خد المرأة التي راحت تبكي وتصرخ وتضج ..

وفي تلك اللحظة ، سمع سابونيوما صوت الجينارو يقول :

— تشجع يا صديقي .. فنحن هنا لنساعدك دائماً في أي عمل تقوم به .. لا تكلف نفسك عناء ضرب امرأتك لأننا سنقلدك ونقوم عنك بهذه المهمة .. إن واحداً منا لن يتوانى عن عمله .. إلا فاسمع صياحها .. هيا اضربوها وساعدوا صديقنا أيها الأصدقاء ..!!

وراح جسد المرأة يدور مع كل الجهات ، وصفعات قوية تنقض على وجهها من أيد خفية لا تبين .. ثم انطرحت على الأرض تصرخ وهي تدفع عن نفسها وابل الصفعات الرهيبة الهائلة ..

ومرت بسابونيوما فترة من الذهول .. انحنى بعدها على امرأته يعينها على النهوض ، ويدفعها بشدة خارج الحقل . وما إن تجاوزت المرأة حدود الحقل حتى كفت الصفعات وتوقفت . وقال لها سابونيوما :

— أيتها المرأة .. لقد كان التأديب أشد قسوة مما أردت ، فلا تضمري لي حقداً وبغضاً .

ولكن المرأة صاحت به :

— لن أغفر لك أبداً .. إلا ما كان أشد حمقي حين تبعتك من قبل ! ولكنك وقد فعلت بي ما فعلت من أجل ساق من الذرة .. لن تراني بعد اليوم .

وانطلقت المرأة تجري في طريق القرية .. وقد وقف سابونيوما يفكر فيما قالته ؟ لقد قالت إن كل ذلك من أجل عود ذرة .. فكيف إذن تحطمت أعواد الذرة كلها ؟

وانتبه على صوت الجينارو إذ يقول له :

— إنها لعلى صواب .. فهي لم تقطع سوى ساق واحدة من الذرة ، فتمتم سابونيوما الذي بدأت الحقيقة تتكشف أمامه .

— لكن .. هذه السيقان الأخرى .. لماذا كسرت ..؟

أجاب الجينارو بعجب :

— لقد قمنا نحن بذلك .. وأؤكد لك أن هذا العمل لم يستغرق وقتاً طويلاً ؟

وصرخ سابونيوما :

— ماذا ؟ أنت .. وأصدقاؤك ! ؟

أجاب الجينارو :

— نعم .. وإننا لمستعدون لتقديم كل خدمة

لك وتنفيذ كل ما اتفقنا عليه من تقليدك ومتابعتك في كل ما تبدأ به .. لقد بدأت زوجتك بقطع ساق أذرة. فقلدناها وبذلنا كل ما بوسعنا لانهاء العمل في لحظات .. وكان هذا شأننا أيضـــا حينما أدركنا ضرورة ضرب امرأتك ..! !

وصاح سابونيوما :

ـــ الويل لي .. إنني لأشقى كل الرجال في امـــالا ..! لقد صدق السحرة والشيوخ حين قالوا إن هذا الحقل ملعون .. وملاعين هم الذين يقتربون منه ...

وقال له الجيتارو :

ـــ ولكن ما الذي فعلناه فأثار غضبك ؟

أجاب سابونيوما :

ـــ لقد طردت امرأتي فجلبت على نفسي غضب كل ذويها . آه منك أيها الماكر الشرير جيتــــارو الشـــيطان . ليتني أستطيع أن أقبض عليـــك لحما ودما .. إذن لعلمتك كيف تســـاعد الناس عندما لا يكون ثمة داع للمساعدة . الويل لي يا جيتارو .. والويل لك ..!

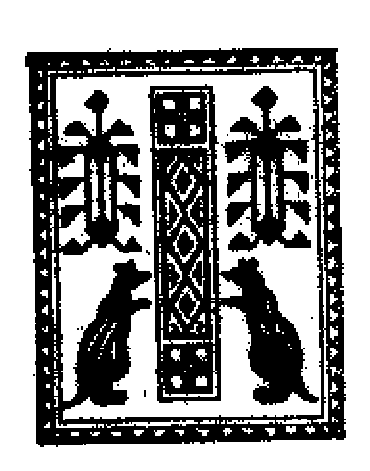
واستمر ســــــابونيوما يصرخ ويكاد يبكي ويغمي عليه لشدة الغيظ .. وراح يضرب رأسه بيـــديه ويقتلع شعره .. ولم يكد يفعل حتى صرخ صرخة هائلة تنم عن ألم شديد هائل .. بينما كان رأســـه قد أخذ يخلو من الشعر الذي راح يقتلع في سرعة وجفاء ..

وارتفع صوت الجيتارو :

ـــ أسرعوا أيها الأصدقاء .. اقتلعوا ما طاب لكم ولا تبقوا على شيء أبدا . لقد أقسمنا أن نخدمه ونساعده في كل ما يفعل لننتهي بسرعة كبيرة مما يبدأ هو فيه .. أسرعوا يا أصدقائي فقد نسيت شـــتائم سابونيوما ولا يمكن أن أنكث وعدا قطعتـــــه على نفسي .. هيـــــا ساعدوه معي على ضرب رأسه واقتلاع ما بقي من شعره الغزير ..!

وراح سابونيوما يصرخ ويجري .. حتى تجاوز حدود الأرض .. وعنـــدئذ ملأت الجو ضحكات وقهقهات عالية قوية رنانة .. تجاوبت معها صرخات كل الشياطين ..

وحتى اليوم .. لا يزال الناس في قرية امـــالا ، يشيرون في سخرية إلى منزل « الأقرع الملعون » .. أما أرض الجيتارو .. فما تزال جرداء شاسعة ، تغطيها أعواد حطب قديم .. !





حيوان البر والماء هم الابطال دائما فى أساطير الزنوج .. على ألسنتها وبأعمالها تنطلق حكم ينضح من ورائها كل الناس .

والغابة تضع القوى والضعيف دائما وجها لوجه .. سواء كان هذا خلال صيد أو بحث عن لقمة العيش ... والضعيف الذى لايعرف كيف ينتصر على القوى تشغل رأسه فى كل وقت وسيلة البحث عن مخرج من مأزقه .. ليتخلص من سيطرة القوى وجبروته .. ومن هنا خرجت هذه الأسطورة .



وراح الخصمان يسبحان ويتخبطان فى الماء ويضربان بذنبيهما العريضين وبمراوح زعانفهما

هناك .. فى الساقية قرب الطاحونة ... حيث الصخور الكبيره تجعل المياه يجرى كالمخنوق فى عنق زجاجة .. وضعت سمكة عملاقة عشها ، واستقرت تحت صخرة ضخمة ترقب بعينيها اللامعتين مرور السمك الصغير ، فتتلقفه بين فكيها ، وتبتلعه فى أقل من طرفة عين .. !

ولعل النجاة كانت تبدو هينة للأسماك الصغيرة، إذا هى امتنعت عن المرور من الجدول الى الساقية، فتتفادى بذلك أن تكون طعما للمجزرة .. إلا أن الامر لم يكن سهلا كما يبدو ، ففى الطرف الاخر من الجدول ، حيث منعطف شديد الضيق ، أقامت سمكة ماردة متوحشة ، فى عش صنعته من البوص والخيزران ، تروح وتغدو بين النهار والليل ، تطوح فى أعماقها كل مايمر بالمكان من صغار السمك .. والهوام .. وتطفو أحيانا على سطح الماء فاغرة فمها ، فيظهر الموت بين فكيها الشرهين .. !

وهكذا لم يعد من الممكن للأسماك الصغيرة عبور الجدول الى الساقية .. ولا الهبوط منه الى الترعة .. فهنا وهناك يتربص الموت .. والخوف يملأ كل نفوس الأسماك فى الجدول الصغير .. خوف أشد قسوة من الموت نفسه .. !

وبدا الغذاء يقل فى المنطقة المحصورة من الجدول ، فالأسماك تتوالد وتزداد ، والطعام يقل ويفرغ ، والبطون تخوى وتثور ، والعيون تتحول من طول الجوع جامدة كالزجاج ... !

وكان لابد من الاستسلام للموت .. !

وتجهت الأسماك تتشاور وتتساءل .. أي أنواع الموت أهون شرا .. وإلى أي ناحية من نواحي الجدول يخرون اتجاههم .. ! ؟

قالت أقدم الأسماك العارفة بأسرار السباقة :

— خير لي أن أموت جوعا في الجدول ، من أن أسلم نفسي طعما في فم أي من الوحشين الهائلين !

واتجهت الأسماك إلى « الحنكليس » .. أدق الأسماك جسما وأبرعها انسلالا وأخفها حركة ...

وسألته الأسماك :

— ما الذي نستطيع أن نفعل يا سيدنا الحنكليس ؟

أجاب الحنكليس :

— ليس هناك أمل يا سادة .. فالغذاء يتناقص ويختفي .. والزحف لايكتفيان بأكل ما يمر من الأسماك ، بل يلتهمان أيضا كل مايحمله الماء من أنواع الغذاء والهوام والحشرات التي نقتات بها .

قالت الأسماك :

— ولكن ما الذي يجب أن نفعله ؟

أجاب الحنكليس :

— إنه ليبدو لي أن التضحية بعدد منا خير لنا من التضحية بالجميع . والرأي عندي أن نفكر في الرحيل الشامل مجتمعين متجنبين أحد الجانبين .. وعندما يفاجأ الوحش بجموعنا الهائلة فلن يستطيع مهما فعل أن يفترسنا جميعا .. بل سيبتلع البعض حين يسرع الباقون في طريق الهرب ...

وتبادلت الأسماك كلها النظرات ... وارتفعت همهمة الرفض .. !

وعاد الحنكليس يقول :

— إذا لم توافقوا على تلك الخطة فليس أمامنا إلا البقاء كما نحن .. فإذا لم نمت جوعا ، فأنا أعلم أن كلا الوحشين يتربص للآخر .. فعملاقة الطاحونة ووحش الخيزران يتباريان هولا ونهما ، وكل منهما يضمر للآخر الشر ، ويريد أن ينتهز الفرصة ليخدعه، ويقترب من مكانه ويفترسه . وعندما يحدث ذلك سيكتسح الوحش أمامه كل من ظل على قيد الحياة ، ويبتلعنا من أجل أن يمتلىء قوة تمنحه القدرة على مغالبة منافسه !

وقالت الأسماك :

— إذا بقينا كما نحن يوما آخر لسنختنق ...

وقبلها يفقس البيض الذي وضعناه ،وتخرج فراخنا فإلى أين تذهب ؟ وكيف تستطيع أن تحصل على الطعام ؟ إنها ستموت كما تموت نحن أيضا قبل أن يبدأ المعركة بين الوحشين . وإلا إذن لمن الهالكين .. !

وسكت الجميع .. وراح الحنكليس يفكر ...

وفجأة برقت عيناه وهتف :

— استمعوا لي .. لقد خطرت ببالي فكرة تنجينا من المأزق دون أن نفقد كثيرا من الضحايا .

واجتمعت الأسماك من جديد والتفت حول زعيم الجدول وهتفت :

— ما هي الفكرة ؟ دلنا على الوسيلة .

قال الزعيم :

— إن خطورتها ستصيب واحدا منا فقط .. هو الذي يقبل أن يكون له فخر القيام بها ، والتضحية بنفسه قربانا للآخرين .

وسكت الجميع .. فلم يكن هناك أحد يريد أن يسلم نفسه للموت .. من أجل شرف التضحية .

وخرج صوت رفيع من بين الأسماك :

— إنك أنت وحدك يا زعيم تملك أن تنال هذا المجد . فأنت قائدنا وزعيمنا .. ومن العدل — إذا كان في المخاطر مجد — أن يكون المجد لك .. !

وصاحت الأسماك كلها :

— أجل .. أجل .. المجد لك يا زعيم .. المجد لك .. !

وامتعض الحنكليس وقد أدرك أن زعامته ستكلفه حياته .. لكنه عاد يفكر من جديد ، وذكر أنه أسرع الجميع سباحة وأبرعهم انسلالا .. وهو لطول عهده بالجدول يعرف جيدا كل حفره وزواياه. وأي الأماكن فيه أكثر حظا للنجاة وأيها أكثر تعرضا للخطر ...

وأطل أمامه إلى الأسماك الصغيرة ، فوجدها لاتزال ترتعد فزعا ورعبا ، فأشفق عليها ، وملأت حمى الزعامة رأسه ، وقرر أن ينهض بالأعباء التي ألقتها على كاهله تلك الزعامة .

وتكلم الحنكليس في صوت عميق :

— لنبدأ إذن .

واستعدت الأسماك جميعا لتأدية الدور الذي تؤمر به ، وبدأ القائد يلقي أوامره :

— عليكم جميعا أن تزدحموا بشدة على الضفتين

.. وعلى من يستطيع منكم القفز الى الشط خارج الماء فليفعل عند أول إشارة أصدرها .. حتى تفسح ممرا واسعا وسط الجدول الصغير .. ابدأوا الآن .. وليحذر اى فرد منكم مخالفة اوامري .. فنجاتكم جميعا رهن بالطاعة العمياء .. !

وانطلق الزعيم في لحظة سابحا في اتجاه الطاحونة ، وملأ القلق والرعب قلوب كل الاسماك فصاحت به :

— إلى أين تذهب يا زعيم ؟ هل تريد ان تستعدي عملاقة الطاحونة الجبارة .. !؟

أجاب الزعيم :

— نعم .. !

قالت الاسماك :

— حذار يازعيم .. فماذا عسانا نفعل إذا فقدناك ! ؟

ولم يجب الحنكليس ، بل ظل في انطلاقه مسرعا في اتجاه عملاقة الطاحونة . وعندما بلغ المكان صاح بها :

— ايتها السمكة الجبارة .. يا أميرة الماء وسيدة الطاحونة وربة الساقية .. إني احمل اليك تحديا من سلطان الخيزران .. !

وانتفضت السمكة العملاقة ، وانطلقت من عينيها شرارات الغضب ، وخرجت من تحت الصخرة تطل في غيظ الى الرسول الذى يحمل إليها تحدى سلطان الخيزران . وقالت له :

— من هذا الذى يجرؤ على أن يتحداني ؟ وما الذي تعنيه بذلك ؟ ومن انت ؟ تكلم فان يطلني لحاي ، وان بي لرغبة في ازدراد ذلك الجرئ .. وحاملي رسالته .. !!

— وتظاهر الحنكليس بالهدوء بينما هو يرتعد ، ويرقب في حذر كل حركات العملاقة الموحشة . وقال :

— أنا لا امتنع عن التقدم اليك بنفسي لازدرادي .. غير اني لا انصحك ان تفعلي .. فقد يكون لك شأن مع من هو اشد منك سلطانا وأعظم قدرا وأكثر جبروتا .. إنه سلطان الخيزران الذى أرسلني اليك سفيرا ولن يغفر تلك الإهانة التي توجهينها اليه في شخص رسوله الضعيف .. !

وازداد الغضب بعملاقة الطاحونة وانفجرت تقول :

— اخرس ايها الوقح .. اتقول لن يغفر لى ؟ من هو هذا الذي يملك أن يغفر او لا يغفر ! ؟ وهل انا بحاجة الى أن أستجدي غفران ذلك الطاغية المزعوم ؟ ذلك الدعي الذي تسميه بسلطان الخيزران .. ! يا للسخرية .. سلطان الخيزران .. ! أيظن نفسه سلطانا بينما انا الملكة هنا .. وسيدة كل الاسماك ! ؟

قال الحنكليس يستزيد إثارتها :

— معاذ الله .. ! كيف تكونين ملكة المكان وسيدة الاسماك كلها ، وهو يؤكد انه وحده صاحب السلطان المطلق على الجدول والساقية والخيزران جميعا .. ؟! لقد طالما سمعت منه انك إذ تتمتعين بأن تكوني سيدة التيار حيث تقيمين ، فما ذلك إلا لانه هو صاحب السلطان .. قد منحك حتى الآن بعض الحرية .. وهو يملك أن يسحبها منك متى اراد !

وصرخت ملكة الطاحونة :

— القصاص القصاص .. ! إن هذا الزهو الذي يملأ صاحبك ليوجب على أن اريه وأرد له الصواب وانزل به اشد العقاب .. !

واجاب الحنكليس وهو يتحفز للهروب :

— العقاب .. ! ؟ إن العقاب سينزل بك وحدك . فقد رأيته قبل حضوري إلى هنا يستعد للقدوم اليك ليؤدبك تأديبا شديدا ولينزل بك العقاب الدامي كما يقول .. لقد سمعته يهتف وهو يستعد للقضاء عليك بانه سيتخلص منك ليستطيع الحكم وحده في هذه المملكة بموجب الحق الذى اعطاه إياه «وينَدي» .. والذي منحته إياه قوته وأهله وشرف سلالته واجداده .. !

وقهقهت ملكة الطاحونة في سخرية صاخبة وهى تقول :

— إذن فسانتظره .. وسنرى إذا كان الامر كما زعمت وزعم صاحبك الأفاق .. ! إني لانتظره هنا في شجاعة ولهفة واشتياق .. !

وبينما كانت ملكة الطاحونة تستعد للمعركة ، كان الحنكليس قد انطلق كالسهم الى الجهة المقابلة حيث يقيم وحش الخيزران . وصاح به وهو لا يزال يجرى متجها إليه :

— استعد يا مسكين . فان مولاتك قادمة لتنزل بك العقاب جزاء انتقاصك سلطانها ومحاولتك انتزاع قطعة من مملكتها والسيطرة على ذلك الجزء من جدولها .. !

وبرقت عينا الوحش ، وضغط على فكيه بشكل مخيف وهو يقول :

ـــ مولاتي !! وهل لي سيد هنا ؟ أجاب الحنكليس:

ـــ مليكة السناقية والجدول وصاحبة القصر المجاور للطاحونة .. لقد ملأها الغضب عندما عرفت انك قد وضعت يدك على أطراف مملكتها ، وقررت ان تبرهن لك أنها السيد الأوحد هنا .. وقالت انها ستقتلك إذا حاولت أن تزهو وعمدت الى المقاومة .. !

صرخ الوحش في صخب :

ـــ فلتأت مليكتك المزعومة .. فانا لا أخشى احدا . ولولا انى اكلت منذ لحظات لابتلعتك لأريك وأرى سيدتك ماهى قيمة التهديدات التى ترسلها إلى والأوامر التى تلقيها على .. !

قال الحنكليس :

ـــ مسكين أنت .. إنى لأنصحك أن تنقذ نفسك وتبتعد عن المكان أو تختبىء فى الأعماق لعلك بذلك تثنيها عن غضبها ورغبتها فى القضاء عليك .. !

ووثب الوحش غاضبا يصرخ :

ـــ أختبىء .. !؟ أختبىء .. !؟ أجل سأختبىء .. ولكن فى الجحر الذى تقيم فيه ملكتك المزعومة لتعلم أن الموت جزاء من يدعى الملك سواى .. !

وقبل أن يبدأ الوحش اختراقه للماء ، كان الحنكليس قد أسرع إلى أفراد شعبه من السمك الصغير وأملى أوامره فى سرعة بالابتعاد عن الطريق والاختباء فى الزوايا وبين الأعشاب ، والاستلقاء على جانب الجدول لمن استطاع ...

واقترب وحش الخيزران ، بينما اقتربت مليكة الطاحونة ... ونشبت المعركة دامية عنيفة وسط الجدول الذى أخلته الأسماك فى لحظات لتفسح الميدان للصراع الجبار ...

وظل الخصمان يسبحان ويتخبطان فى الماء ، ويضربان بذنبيهما العريضين وبعراوح زعانفهما . والعيون منهما تندلع شررا ونارا ، وكل منهما فاغر شدقيه ليبتلع غريمه إذا استطاع ...

وبين الضرب والعض تطايرت القروش وتمزقت الزعانف واصطبغت مياه الجدول بالدم ...

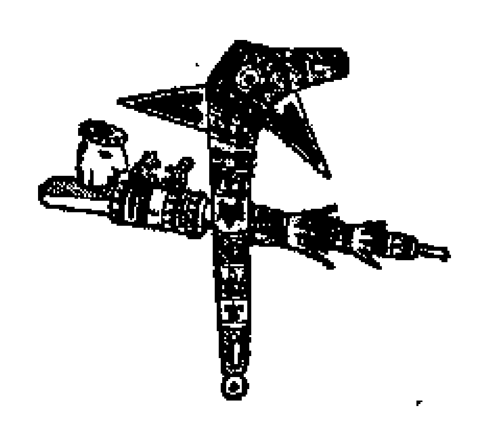
وأطل الحنكليس يتابع المعركة .. لقد صدق سلطان الخيزران إذ كان أقوى من ملكة الطاحونة .. فقد حاول الوحش أن يبتلعها آخر الأمر .. ودخل أغلب جسمها المملاق فى حلقومه .. وإن لم يستطع ازدراده .. !

وفتح الحنكليس عينيه فى دهشة وتبعته كل الأسماك ...

لقد هدأت المعركة فجأة .. وكان وحش الخيزران يلهث ويثب وثباته تضعف وتختلج شيئا فشيئا .. بينما جسد عملاقة السناقية جمد وسكن إذ رأسها كله فى حلقوم الوحش ...

وفى لحظة .. سكن كل شىء .. وطفت على سطح الماء كتلة سوداء يدفعها التيار ...

لقد مات الغالب مخنوقا بجثة المغلوب .. !





فى أعمـــاق أفريقيا .. كان الزنوج يعيشون حياة بدائية تتفق مع بيئة الغابات والأحراش التى تحيط بهم من كل جانب .. ومن هنا فاتسمت أساطيرهم بأخبار الجن والسحرة والمشعوذين .. واتخذوا من الحيـــوانات والوحوش أبطالا حقيقيين لأغلب ما اخترعوا من أساطير ...

ولعل هـــذه الأســـطورة التى جمعت بين الســـحرة والجـــن والشـــياطين .. كما جمعت بين ملوك الانس وملوك الغاب .. تعد أبرز أساطير الزنوج وأصدقها فى تصوير الحياة التى كانوا يعيشونها ..



وفجأة شعرت الأميرة بلفحة ساخنة كالنار فوق رأسها

ضـــاق ملك الثعابين ذات يوم بحياة الغابة .. واخذت به رغبة طاغية فى الزواج من احدى بنات البشر .. وكان يستطيع الذهاب الى المدينة والزواج من أى فتاة يريد .. غير انه كان يعتبر نفسه ملك الغابة كلها .. فأبى إلا ان يبحث عن أجمل الفتيات وانضرهن .. وإذ ســأل عن العروس التى تتفق ورغبتـــه .. عرف ان خير الفتيـــات هى الاميرة « فتيما » .. كبرى بنات ملك الغرب واقربهن الى قلبه الكبير ...

وقرر ملك الثعابين ان يستعمل القوة السحرية التى منحها له الاله « ويندى » للوصول الى بغيته .. واختفى تحت ظلال شجرة معينة يعرفها فى الغاب ، وتلا الصيغة السحرية وهو يبتلع إحدى ورقات الشجرة ، فاستحال فى الحال الى امير شاب جميل ، يرتدى أفخر الثياب ، وبالقرب منه جواد رائع وسيم .. شىء واحد كان يستطيع ان يكشف حقيقة الأمير الشاب لأى امرىء له بعض الالمام بالسحر .. هو ذلك البريق العجيب الذى يشع من عينى الأمير الشاب .. فقد احتفظ بنظرات الثعبان .. كمـا احتفظ بأعمق غرائزه ...

وانطلق الامير الشاب الى القصر وهو يحدث نفسه بأن جماله ووسامته جديران بأن يسلبا عقل الأميرة حتى ولو كانت جامدة القلب عسيرة المنال ..

غير ان « فتيما » لم تكن عسيرة المنال قط .. فطالما تمنت ان تتزوج حتى تترك بلاط أبيها الذى يسائل بناته كأنهن مسجونات بين حوائط القصر

الذي لا يدخله شاب قط . ولذلك فانها لم تكد ترى الأمير حتى غمرتها السعادة ، واحست كأن احلامها قد بلغت منتهاها . ولقد عرف الأمير كيف يستميل قلوب أهل القصر جميعا .. حتى الملك الذي اشتهر بجفائه وغلظته .. عرف الأمير كيف يتكلم معه برزانة وجد .. جذباه اليه وحبباه فيه .. في حين كان مع الأميرة نفسها ، يرقص ويغني ويهزل ، ويصنع كل مايستهوى قلوب الفتيات .. !

ورحبت «فتيما» بالزفاف إلى الأمير .. وما اهتمت قط باعتراضات أمها التي أخذت تحاول أن تقنعها بالتروى في قبول الزواج من أمير مجهول لايعرف احد عن مملكته اي شيء .. فقد كانت وسائل الاقناع التي اخذ يصبها في أذنيها تطغى دائما على كل ما تسوقه أمها من حجج ... حتى تم الاحتفال بالزواج .

وبينما الأميرة تستعد للانطلاق مع زوجها الى مملكته البعيدة .. دعتها أمها إليها وقبلتها .. ثم قالت لها :

— لكم تمنيت يا ابنتي ذلك اليوم .. غير اني اعجب للأمير الذي يرفض ان يكون بصحبتك اي فتاة من وصيفاتك أو ضابط من حراسك المخلصين . إنه يرفض أن يصحبك احد قط .. حتى الحلى والذهب والمال ، والقطعان الكثيرة التي أصبحت لك يوم زفافك .. كل هذه الاشياء لايريد الأمير ان يأخذها ويقول انك لن تكوني في حاجة إليها ابدا ..

وكان الملك قد جاء في تلك اللحظة .. فأخذ يهدىء من روع زوجته وهو يقول :

— ليس للأمير حاجة بكل هذه الاشياء .. ففي مملكته اكثر مما نستطيع إعطاءها وافضل ...

بيد أن الشك بدأ يتسرب الى قلب فتيما .. واستبد بها قلق مجهول فاخذت تراجع عقلها وعواطفها ، وتتمنى لو تستطيع ان تنكث العهد .

وبينما الدوامة تدور في اعماقها ، دخل الأمير في ضجة لم تترك لها مجالا للتفكير .. إذ اندفع إليها فحملها بين ذراعيه ، وابعدها في سرعة غريبة عن أمها التي أسرعت خلفهما .. واخذت تتوسل الى الأمير أن يسمح لعروسه بأن تأخذ معها اي شيء يذكرها بأهلها وبلادها . وعرض الملك ان يعطيها احد جياده ليكون مطيتها في السفر ، ويكون مطية لها في نزهاتها وصيدها عندما تبلغ بلاد زوجها الحبيب .

ولم يجد الأمير وسيلة لرفض الهدية .. وانطلقت الأميرة الى الحظيرة تتخير جوادا من بين الجياد الخمسين التي تغمرها .

كانت الجياد كلها جميلة رائعة .. وإذ حيرها الاختيار قررت ان تجرى قرعة بينها جميعا .. فامسكت بمخلاة الذرة واخذت تحركها يمينا ويسارا ، وقد قررت ان تختار اول من يتقدم من جياد الحظيرة ...

ولم تكد الأميرة تحرك المخلاة حتى انطلقت اليها فرس عجوز .. هي أم كل الجياد الخمسين ... !

وهزت الأميرة كتفيها وقررت ان تعيد القرعة .. غير ان أمها اعترضتها وهي تقول :

— كلا يابنتي .. إن الاله « وينـدى » ليكره الاعادة .. وعليك ان تقبلي ماقسم لك به ...

قالت فتيما :

— ولكنها قبيحة المنظر تصطك ركبتاها عند كل خطوة تخطوها .. وحتى فمها تنقصه الاسنان .. فلا تصلح ابدا ان تكون مطية ملكية ...

قالت الأم :

— لاتغتري بالظواهر . وتأكدي ان القدر يحسن الاختيار .. !

واذعنت الاميرة .. وقبلت الفرس العجوز ...

وكان وقت السفر قد حان .. واقتيدت الفرس بعد أن وضع عليها سرج من القطيفة الموشاة بالذهب ، واقترب الامير ليساعد عروسه على الركوب .

وهنا .. في تلك اللحظة بالذات .. اجفلت الفرس ونفرت نفورا شديدا كادت الأميرة معه ان تسقط على الارض .. !

وملأ التشاؤم كل أهل القصر .. واحس الأمير قلقا خفيا جعله يطلب استبدال الفرس .. غير أن الملكة التي كانت تكره التغيير ، اقنعته بأن الفرس ظلت حبيسة في الحظيرة زمنا طويلا .. مما جعلها تجمح عند خروجها أول مرة بعد كل ذلك الزمن الطويل ...

وركبت الأميرة فرسها .. وامتطى الأمير جواده ، وانطلقا معا في سرعة مرعبة .. كاعصار يتوارى في غياهب المجهول ...

وظل الأمير وعروسه ينهبان الارض طيلة اليوم .. حتى بلغا آخر الأمر حدود الغاب الكبير الذي يبدو من مملكة الجنوب خطا قاتما في الأفق لاحد له .

وطلب الأمير من عروسه أن تنتظره حتى يعود .. ثم انطلق بين الأشجار لينفرد بنفسه ويتلو الصيغة السحرية ، ويعود سيرته الاولى .. ثعبانا هائلا كالفيل .. !

وشعرت « فتيما » فجاة بالفرس ترتعش تحتها. فربتت بكفها فى حنو على رقبتها وهى تقول وكأنها تخاطبها :

ـــ ماذا دهاك أيتهـا الفرس العزيزة .. ؟ إنك تنضحين عرقا باردا غزيرا . فهل يكون طول الطريق قد أعياك واجهـدك ؟ ومـع ذلك فمـا أسـعدنى باصطحابك .. فقد بذلت من الجهـد خـلال ذلك الطريق الطويل مالم أكن أتصور أن تبذليه .. ولقد غرتنى الظواهر من قبـل حتى ظننتك تعجزين من المسير .. ! الا ما كان أصدق أمى وهى تطلب منى الا أغتر بالظواهر .. !

وفوجئت الأميرة بالفرس العجوز تجيبها فى صوت رقيق حزين :

ـــ إن هذا مع الأسف ما صنعته وتصنعينه الآن إذ تسيرين مع ذلك الأمير .. ؟ لقد خدعك بمظهره فلم تعرفى أيتها المسكينة أنك تزوجت وحشا ضاريا . إنه ثعبان ضخم .. تنين هائل .. استطاع بمهارته السحرية أن يتحول بشرا ليخدعك فتتزوجيه !

وندت من الأميرة صرخة هائلة يملؤها الرعب .. وهتفت :

ـــ ثعبان .. تنين .. ماذا تقولين .. ! ؟

وهزت الفرس رأسها وهى تقول :

ـــ أجل يا ابنتى ... لقد وقعت فى شرك مجرم محتال لن يرحمك أبدا .. !

وهتفت الفتاة :

ـــ كيف السبيل الآن الى الفرار والعودة إلى أهلى .. رحماك أيتها الفرس الصالحة .. أعيدينى الى قصر أبى بأسرع منا يبرق البرق قبل أن يعود التنين فيجرى بى إلى أعماق الغاب ...

وانطلق من بين شفتى الفرس صـوت سـاخر :

ـــ وكيف استطيع أن أسرع بك وقد قلت عنى من قبـل إننى فيحة المنظر تصطك ركبتاى حتى لأعجز عن الجرى .. ! ؟

وبكت الأميرة وهى تتوسل وتستعطف وتقول :

ـــ لا . لا تلوميني أيتها الفرس العزيزة .

وأشفقت الفرس العجوز على الأميرة الباكية .. واستعدت للهرب بها بعيدا عن موطن التنين .. غير أنها قبل أن تمضى طلبت من الأميرة أن تقبض بشدة عـلى عرفها فلا تتركه أبدا .. ونبهتهـا الا تلكز جنبها بالمهماز حتى ولو كان التنين يسبيل أن يلحق بهما ، لأنها لو فعلت فستطير بها فى الهواء الى حيث المجهول .. !

وصرخت « فتيما » تستحثها :

ـــ أسرعى إذن .. أسرعى .. إنه قادم .. هاهوذا يقترب منا .. الا تسمعين .. ! ؟

وكان الثعبان الهائل قد خرج فى تلك اللحظة من بين شجيرات الغـاب يتلوى وينفح ويبسـط حلقاته الجبارة على الأرض . وأسرعت الفرس تسابق الريح وحوافرها لا تكاد تمس الأرض . غير أن الثعبان كان أسرع من الفرس فى اجتياز الحقول .. وكان لسانه يمتد فى فحيح كالرعد .. وعيناه ترسلان الشرر وتومضان فى غضب عنيف مجنون ...

وصاحت « فتيما » وقد أذهلها الرعب :

ـــ سيدركنا .. إنه يقترب منا .. !

ولم يـكن لدى الفرس من الوقت ماتضـيعه فى تشجيع الأميرة الصـغيرة .. بل أخـذت تزيد من سرعتها وتجتاز من الطريق فى ساعة مايستغرق عدو يوم كامل .. وظلت منطلقة فى سرعتها المذهلة حتى بدت لها من بعيد مملكة الغرب وراء نطاق من الظلال. وعرفت الأميرة انه لم يعد امامها للوصول أكثر من ساعة او بعض ساعة ...

وفجاة .. شعرت الأميرة بلفحة ساخنة كالنار فوق رأسها .. فقد كان التنين الهائل يتقدم فى سرعة ويهبط فوق رأسـهـا ليختطفها . واحنت الأميرة المسكينة رأسها وهى تصرخ فى رعب وفزع . وفى خلال الرعب نسيت نصيحة الفرس .. ولكزتها بالمهماز فى جنبيها بقسوة وعنف ...

واحدث صرير المهماز فى جلد الفرس دويا يشبه قصف الرعد .

وفى لحظة .. كانت الفرس ترتفع فى الهواء .. وتخترق السحب ، وكأنها تسبح فى لج من الأمواج .

واغمى على « فتيما » .. فلم تحس الصدمة الهائلة التى اصطدمتها الفرس بالسماء .. ولا بالهبوط السريع الذى هبطته نحو الأرض .. !

غير انها عندما افاقت .. واطلت حولها .. لم

بعد غير حقول خضراء واسعة تحيط بهـا من كل جانب ، لا تشبه من قريب او بعيد مملكة ابيها الحبيبة . ونظرت امامها .. ولكن شيئا من سطوح العاصمة لم يبد لها قط .. فما كان هناك شيء مألوف يحيط بها على الاطلاق .. كل شيء باوه غريب .. غارق في المجهول ...

واحنت الاميرة رأسها تستنجد بفرسـها العجوز .. غير أن الفرس كانت هي الأخرى قـد انغرست بقوائمها الاربع في الارض تحت الصدمة .. وكانت عيناها تنفثان شررا .. !

وخاطبتها الفرس وهي تقول في قسوة :

ـــ لمـاذا فعلت ذلك .. ! ؟ اما اندركك الا تلكزيني بالمهماز مهما بلغ بك الامر .. ؟

وسكتت الامـيرة ، ولم تعرف كيف تجيب ... واستمر بكاؤها صاخبا هادرا حتى رق لها قلب الفرس ... واختفى من عينيها الشرر المجنون ...

واطلت الفرس في حزن الى الاميرة الباكية وهي تقول :

ـــ كفي عن البكاء الآن يا ابنتي .. فهو لن يجديك نفعا قط .. والاولى بك ان تنهضي فتنظري مايحيط بنا .. لندرك اين نحن .. وكيف يمكن أن نصالح امرنا ...

وتنفست « فتيما » الصعداء .. وترجلت من فوق ظهر الفرس ، وراحت تخطو في حذر وهي تطل امامها .. ثم توقفت فجأة وقد بدت في مواجهتها بضعة اكواخ ضئيلة قصيرة لا نوافذ لها على الاطلاق .

واخذت « فتيما » تجيل عينيها ، وتدير بصرها في كل مكان .. فاخذ بهـا العجب الا ترى احـدا من السكان . وازداد عجبها وارتعشت عندما سـمـعت اذنها فجأة صوتا رفيعا ضئيلا يسأل :

ـــ من هذا الذي هناك .. ! ؟

واجابت « فتيمـا » في رجفتها .. وهي تحاول معرفة مصـدر الصوت :

ـــ انا اميرة تائهة في ذلك المجهول بعيدا عن بلدي واهلي .. أطلب مأوى وغذاء لي ولرفيقتي العجوز .

وسمعت الصوت يقول :

ـــ ومن هي رفيقتك تلك ؟

اجابت فتيما :

ـــ هي فرسي .. ارادت ان تنقـذني من بلاء احاط بي .. فحملتني الى هذا المكان .

قال الصوت :

ـــ كان اولى بها ألا تأتي بك إلى هنا .. فحاكم هذا البلد ملك يخشى النساء ويكرههن .. ويأمر بقتل كل أجنبية تطأ أرضـه .. وانت بمجيئك هنا إنما تتعرضين لموت محقق رهيب ...

وصرخت الأميرة شاحبة :

ـــ موت .. موت .. اين يمكن إذن ان اختبيء . أواه .. ماذا جئت ابتغي في هذا المكان .. ؟

وفي هذه اللحظة سمعت صهيل الفرس ، فانتبهت وسمعتها تسألها عمن تحدثها فقالت :

ـــ لست أدري .. إنني اسـمع صوتا ولا ارى احدا .. تعالي ايتها الفرس نخرج من تلك الأدغال المخيفة هاربين من المصير المجهول .

واجابتها الفرس :

ـــ إنني لا استطيع حراكا كما تعلمين .. لقد غرقت في الارض بقوى السـحر ، ولن استطيع الآن التخلص منه . إن لكزة مهمازك اثارت في جسدي قوة مجهولة وسـاقتني إلى حيث لا أدري .. وكل ما اعرفه هو انه يجب لكي يفك أسـاري وابرح هذه الأرض ...

فقاطعتها الاميرة قائلة :

ـــ قولي ماذا يجب ان افعل لامنع الذي السحر الذي شل حركتك .. لقـد اخطأت الى فيمـا مضى ، فلسـوف ابذل حياتي لاعيد اليك حريتك .

وقالت الفرس في بطء :

ـــ لكي افلت من السـحر .. يجب أن تقتلي املك .. ! !

وشحب وجه «فتيما» .. ومضى بالاثنتين فترة من السـكون المخيف قطعها الصوت الخافت الضئيل وهو يقول من جديد :

ـــ لا تبكي ايتهـا الفتاة .. فنحن نستطيع ان نساعدك .. !

وتلفتت «فتيما» والفرس إلى مصدر الصوت .. لم يكن هناك شيء قط .. غير ان الفرس صـاحت بعد لحظات :

ـــ آه .. قد رأيتك .. إنك لست كبيرا .. هل انت زعيم قومك .. ؟

ـــ اجل

ـــ إذن فانت تستطيع مساعدتي في حماية هذه

الفتاة ؟ فأنا الآن عاجزة عن الحركة بفعل السحر ولا أقوى على إرشادها الى حيث الأمان ..

وأجاب الصوت :

ـــ لقد فرغت من العمل بعد أن بنيت بيتي .. وسأرعى الفتاة وأتعهدها وأظل معها في كل خطواتها وأجيئك بأخبارها .. غير أن أول مايجب أن تفعله هو أن تصبح ذكرا .. !

وصاحت الفتاة وهى تحاول جاهدة العثور على محدثها :

ـــ ذكر .. !! كيف يمكن ان يحدث هذا ؟

قال الصوت :

ـــ سأحضر لك ثوب فتى صنعناه من اجلك منذ وأينك تهبطين هذا المكان . إنني هنا واخوتي بناءون ماهرون .. فالديدان والعناكب والنمال تشتغل ما وسعها ، والثوب على وشك الانجاز ...

وما كاد المجهول ينتهي من كلامه حتى لمحت «فتيما» ثوبا من الأطلس الفاخر يتقدم على الارض في بطء كبير .. وحملقت الأميرة غير مصدقة عينيها لها كأن الأرض تتحرك من تحت الثوب ، غير أن الأرض في الحقيقة لم تكن تمشي .. بل كان هناك جيش كثيف من النمل يحمل الثوب ويقترب به من الفتاة حتى استقر امامها ...

وانحنت « فتيما » فارتدت الثوب . وبدت فيه شابا وسيما . الفا بارع القسمات .

وقالت الأميرة :

ـ كم أنا شاكرة من شكرك جميعا ايتها الديدان والعناكب والنمال .. ولكنى لا استطيع الذهاب وصديقتي الفرس حبيسة هنا لاتعرف كيف تتحرك .. ولا تجد ما يقيها المطر والريح ..

وعاد الصوت يحدثها :

ـــ لاتنزعجي .. فسيعمل أصدقاؤنا على إقامة بيت حول صديقتك الفرس .. هيا الى العمل يا إخوتي .. !

وفي لحظات ، كانت الارض تنشق وتنفتح وترتفع منها جنباتها تحيط بالفرس حتى اصبح حولها حائط دائري متين .

وهتفت « فتيما » وهى تصفق في مرح :

ـــ عرفت من انت .. انت نملة كبيرة .. !

قالت النملة وهى تجثم على قدم الفتاة :

ـــ أصبت .. وبما اننا قد اطمأننا الى ملجأ الفرس .. فينبغي ان تمثلي امام الملك في زى رجل ، لعلك تجدين وسيلة للعودة الى الوطن »

وعانقت « فتيما » صديقتها الفرس .. وتعلقت النملة بحذاء الفتاة ، وانطلقتا معا في الطريق الى قصر الملك ...

ولم يكن الطريق سهلا . ولعلّ مازاد من صعوبته لدى « فتيما » أن هياكل عظمية كثيرة كانت مبعثرة هنا وهناك ، تحكى كيف بذلت النساء الأجنبيات حياتهن مقابل سفرهن المشئوم .

وبلغت «فتيما» القصر . واحاط بها الحراس وراحوا يرهقونها بالأسئلة .. بيد ان النملة هيأت لفتيما الأجوبة المناسبة لأسئلتهم في كل مرة ، فكانت تلقيها اليهم في براعة وثقة واتزان ...

وقادوها ـ وهى في ثوب الأمير ـ لتقف بين يدى الملك ...

وكان الملك رجلا ضخما كعملاق .. صاخب الصوت ، قاسي القلب ، قال لها وهو يضع يده فوق كتفها :

ـــ من حسن طالعك ايها الفتى الغريب أنك لست امرأة .. فأهلا بك في مملكتى .. ولكن .. ما الذى جاء بك هنا ! ؟

وبدأت الأميرة ، وقد اكسبت صوتها خشونة الرجال ، تلفق قصة طويلة حول الصيد ، وضلال الطريق . ولكن الملك لم يكد يعرف ان « الأمير » يتقن الصيد ، حتى ملأته الفرحة .. فقد كان يبحث عبثا عن رفيق لرحلات صيده .. فوجده في ذلك الشاب الغريب .. وقرر ان يجعل إقامته في بيت لايفصله عن البلاط الملكى سوى باب قصير .

وكان البيت الذى أعد « للفتى » قريبا جدا من جناح الحريم ، حيث تعيش نسوة الملك وبناته في حراسة « صوما » العجوز ... عمة الملك ...

وفي الحق ، أن « صوما » كانت أجدر النساء بمنصب الحارس .. فقد كانت بالغة القبح والدمامة .. لاتعرف من الحياة كلها سوى الفضول والحقد على الجميع ...

وحذر ضباط الحرس ضيفهم الشاب من مخاصمة « صوما » .. حتى لا تسبب له المتاعب . واحست النملة قلقا من هذا الجوار المخيف ، فنصحت « فتيما » باغلاق الباب الذى يطل على

جنباح الحريم جيدا ، حتى تذهب هي الى الفرس وتسألها النصح .

وعندما ذهبت النملة كان الاعياء قد اخذ بقبيها التي لم تكد تستلقي على الفراش حتى نامت . . ونسيت الباب مفتوحا . . .

ومضى الليل حتى انتصف . وفتح الباب في بطء وهدوء . . وبدا فيه وجه العجوز « صوما » التي جاءت تتلصص على الشاب الصغير ، بعد ان غاظها اهتمام الملك به ، وقراره بان يجعله رفيق صيده . . وشيء آخر دفعها الى الحضور . . فقد أثار شكها صوت الفتى الرقيق . . . والخشونة التي تبدو غريبة مصطنعة . . !

وانحنت « صوما » تحدق في وجه « الفتى » مليا . . كان الوجه جميلا باهدابه الطويلة ولونه الاسمر بشير الشك . وعادت « صوما » تتأمل الوجه جيدا . آه . . إنه ليس شابا . . بل امرأة فتاة تستتر في ثوب شاب . . . !

واعجبها الاكتشاف ، وقررت أن تلعب بالفتاة وتعبث ، حتى تكتشف امرها في الوقت الذي يحلو لها . . .

وعادت النملة في الوقت الذي كانت «صوما» تغادر فيه المكان . وادركت أن العجوز قد اكتشفت السر . فازدادت قلقا ، واضطربت وايقظت الاميرة لتقص عليها ماكان من أمر العجوز . . وتنصحها بأن تنهض حالما يطلع النهار ، وتجتهد في اكتساب صداقة الملك قبل أن تدبر العجوز « صوما » دسيسة . !

وانطلقت « فتيما » الى الملك فما تركته لحظة . وافتتن الملك باحاديث « الفتى » ، واخذه معه الى الصيد حيث كاد الامر ان يفتضح مرات . . إذ لم تستطع احتمال الجهد الشاق ، والجرى وراء الغزلان . .

ومع ذلك . . فقد انقضى اليوم الاول بسلام . . .

وجاء يوم آخر . . وكانت « صوما » قد انطلقت الى الملك خلال الليل ، وراحت تقول له إن الفتى ضعيف شديد الحاجة الى التقوية . . ونصحته ان يزيد من اعبائه ، وأن يعوده على الاعمال الشاقة ، ليصبح رجلا قويا رائعا . وشيء آخر اقنعت الملك بان يفعله . . هو أن يأمر الشاب بالاستحمام الكثير في النهر . . والتدرب على المصارعة مع اترابه من الشبان . . ! ؟

وقد احتملت الفتاة كل المتاعب . . وإن كادت تفتضح مرات خلال المصارعة ، والاستحمام في النهر .

ومضى ذلك اليوم ايضا . . .

غير ان الفتاة لم تدر انها كادت تنكشف تماما في آخر اليوم . عندما استأذنت الملك في الانصراف . . افترت شفتا العجوز « صوما » عن ابتسامة ساخرة وهي تهتف بالملك الا يأذن لها . . وكاد السر ان ينطلق من بين شفتيها . . لولا أنها عادت فكتمت الامر قبل ان يغادر فمها . . . لتبقيه الى فرصة اخرى خطرت ببالها . . .

واسرعت « فتيما » عندما اذن لها الملك ، ودخلت غرفتها واغلقت من خلفها الباب . ولم تكد تستند إليه في راحة ورضا حتى وجدت العجوز تتوسط الغرفة . . .

وغمرها رعب هائل . . . وبدأت العجوز تتكلم . . قالت صوما :

— لقد جئت لأهنئك . . فقد استطعت أن اقنع الملك بمصاهرتك . . واتفقنا على ان يزوجك كبرى بناته . . وان يجعل لك ولاية العهد . . !

وبهتت الاميرة وغمغمت في ذهول :

— ولكنني . . .

وقاطعتها العجوز بابتسامة ساخرة كأنها الشيطان وقالت :

— اراك لا تشكرني ايها الأمير العزيز . . بل تنظر إلي وكأنني رسول الشيطان . . . اهكذا تقابل من يحمل اليك خبر المصاهرة التي تعتبر هدية رائعة لملك . . ! ؟ لقد أردت ان اخدمك . . لانني اشعر نحوك بحب الأم . . وعليك ان تعتبرني امك حقا . . ايها الامير . . ولا تنادينى إلا بيا امي . . !

وانهارت فتيما . . واخذت العجوز الشيطانة تعدها بان الغد سيكون اعظم ايام « الأمير الشاب » . . !

وما إن تركت « صوما » الاميرة . . . حتى انكبت هذه تبكي وقد فقدت كل قدرة على التفكير والادراك . . .

وسمعت الفتاة صوت النملة تحدثها :

— لا تنزعجي . . فلا يزال امامنا الوقت الذي تضيعه «صوما» في كتمان السر من اجل ان تجعل المفاجأة اكثر وقعا لدى الملك إرضاء لنفسها الشريرة . نامي الآن في هدوء . . . وثقي بي وبأصدقائي الذين يعملون من اجلك . . !

وجاء الغد يحمل أمرا من الملك «للأمير» بالمثول بين يديه .. وعندما وقف « الأمير » امام الملك .. مد الملك يده إليه يباركه .. ويبشره باختياره وليا للعهد ... وزوجا لكبرى بنات الملك ... !

واضطربت فتيما . غير انها تماسكت وهي تحاول ان تخرج من بين شفتيها مايعبر عن شكرها للملك .. اما هو فقد عزا ارتباكها الى شدة الفرح .. إذ « سيكون الامير وليا للعهد » .. !

واقتربت العجوز صوما .. واخذت بيد « الأمير » تقوده الى حيث العروس .. واطلت «فتيما» أمامها ... لقد كانت العروس قزما حدباء لاتختلف في شيء قط عن عمتها العجوز ... حتى في سواد النفس ..!

وتمتمت « فتيما » وهي تتراجع امام « الخطيبة الرائعة » :

— ولكن ... لكنني لا ازال حدثا بعد .. !

وهتفت صوما :

— ستعرف ايها الأمير العزيز فن الزواج .. عندما يتم الزواج ... !

وانطلقت العجوز في قهقهة قوية صاخبة . واخذت العروس تضحك هي الاخرى في سرور وفرح . فبدا « لفتيما » كأنما ضحكات الشياطين تخرج من فوهة الجحيم .. !

وفجأة .. صرخت العروس « روميرا » وسقطت على الارض .. وبادر اليها الاطباء والسحرة لانقاذها . لكن بغير طائل . فقد ماتت روميرا .. مخنوقة .. !

وقال بعض من كان في القاعة إنهم رأوا نملة تخرج من فمها .. ثم مضت على الأرض متسللة الى حيث لايدرون ... غير ان الباقين نظروا الى ذلك التعليل على انه خرافة .. في حين قال الاطباء إن الاميرة روميرا ماتت من شدة الفرح .. !

وزفرت «فتيما» زفرة النجاة .. !

غير أن «صوما» انطلقت الى الملك عندما لمحت بريق الفرح في عيني « الأمير » وهمست إليه :

— أيها الملك ... يا ابن اخي .. إن هذه إرادة الإله « ويندي » فلا تحزن . ولا ينسينك حزن المساءة عزمك على أن يكون صديقك الأمير وليا لعهدك .. فلننتهز هذه الفرصة ونحتفل بزواجه من ابنتك الثانية « روهاريا » ...

واحست «فتيما» كأنه الطوفان .. وبدت كمحكوم عليه بالموت يسمع قرار إعدامه . وانتبهت خلال رعبها



وانحنت صوما العجوز تحدق في وجه الفتاة مليا

الى صوت النملة تهمس اليها أن تتسلل قرب الباب .. فراحت تحرك خطواتها الى الخلف في بطء لا يكاد يستطيع ملاحظته احد ...

وسكتت « صوما » فجأة .. ورفعت سبابتها تأمر بالصمت ، وراحت تصغي الى ضجة خافتة احدثتها اصوات كأنها مناقير دقيقة تقرض شيئا غير معروف ...

واستمرت «فتيما» تتراجع للناحية الباب في بطء . غير انها اضطرت الى التوقف عندما صرخ الملك وهو ينهض من مكانه ويهتف :

— إنه صوت إعصار .. !

وقال آخر من الحاضرين :

— إنه الاله « ويندى » يريد شق الأرض .. !

وهتف ثالث :

— إنه « ويندى » يقتلع جميع الغابات من الناحية المقابلة للبحر العظيم .

وفجأة .. صرخت صوما :

— اوقفوا الشيطانة .. اوقفوها ...

واخذت تجري وهي تمد يدها المعقوفة لتمسك بفتيما التي كانت في تلك اللحظة تخطو الخطوة الاخيرة لاجتياز باب القاعة ...

وفى تلك اللحظة نفسها .. صرخ الملك فى رعب .. كما صرخ كل الحاضرين فى القاعة .. فقد كانت القاعة كلها تنهار بالجميع ...

وبرغم ذلك .. وثبت « فتيما » الى الخارج وراحت تجرى فى قوة وعنف .. والنملة تهديها الى أسرع الطرق واقصدها قصرا .. وتجتاز بهـا الحفر والتلال والقنوات . وعندما ظنت « فتيما » أنها قد نجحت فى الهروب ، وكادت تقف لاهثة .. سمعت من ورائها صوتا ساخرا يضحك ويقهقه .. لقد كانت صـوما .. التى اجتازت الباب فى نفس اللحظة التى اجتازته فيها فتيما .. وقبل ان ينهار البلاط كله على من فيه ، إذ كانت النمال قد قرضت عمد القاعة فى الوقت المناسب ليتاح للأميرة الهروب ...

لم تهتم «صوما» بانهيار القاعة على من فيها .. إذ كان كل همها أن تنتقم من الفتاة الجميلة .. التى خدعت الجميع بمظهر الرجال ...

واستمرت «صوما» تجرى خلفها وتصيح :

ـــ لاتسرع يابنى فتدق عنقك .. لـماذا تهرب منى أيها الشقى .. إننى احبك كثيرا .. ولو كنت أنا فتاة أيها الأمير الجميل لما زوجتك «روميرا» ولا «روهارا» . بل لأخفتك لنفسى .. ! الا تريد أن تسمع .. ! ؟ الا تريد ان تشكرنى أيها الفتى الجميل .. ! ؟ توقف يابنى .. توقف ..

وكانت « فتيما » قد فقدت كل ما بها من قوة .. وبدات تنهار ... ولم تعد تستطيع أن تجرى بعد .. غير أن النملة راحت تشجعها وتثير فيها القوة وتهتف فى أذنها انه لم يعد سوى خطوات لتصل الى الفرس وتركبها وتطير ...

وعادت فتيما تـــتجمع ما بقى بهـا من قـوة لتجرى ... حتى بلغت آخر الأمر مربط الفرس .. فقفزت فوقها .. وامسكت بعُرْفها .. واستوت على سرجها فى امل ... وخوف .. !

ومـع ذلك فقد كانت « صـوما » العجوز لاتزال تركض وراءها ويداهـا المعقوفتان مبسـوطتان الى الأمام ... وصاحت بصوت حاد :

ـــ ايتها الشياطين .. قفوها .. قفوا هـذا الولد القاسى الهارب من امه ...

فقالت « فتيما » وهى تهذى ذعرا :

ـــ امى .. امى .. امى .. اواه .. اقتليها أيتها النمال .. اقتلى امى !

ولم تكد « فتيما » تنتهى من كلماتها المذعورة .. حتى لمحت جسد العجوز يتساقط وينهار على الارض .. ومن حوله ملايين النمال تقرضها وتنهشها .. !

وبدأ الجســـد يتلاشى شيئا فشيئا .. حتى اختفى .. !

وفى تلك اللحظة نفسها .. وجدت الفرس قوائمها ترتفع من الأرض .. وبدات تطير ... فى الهواء ...!

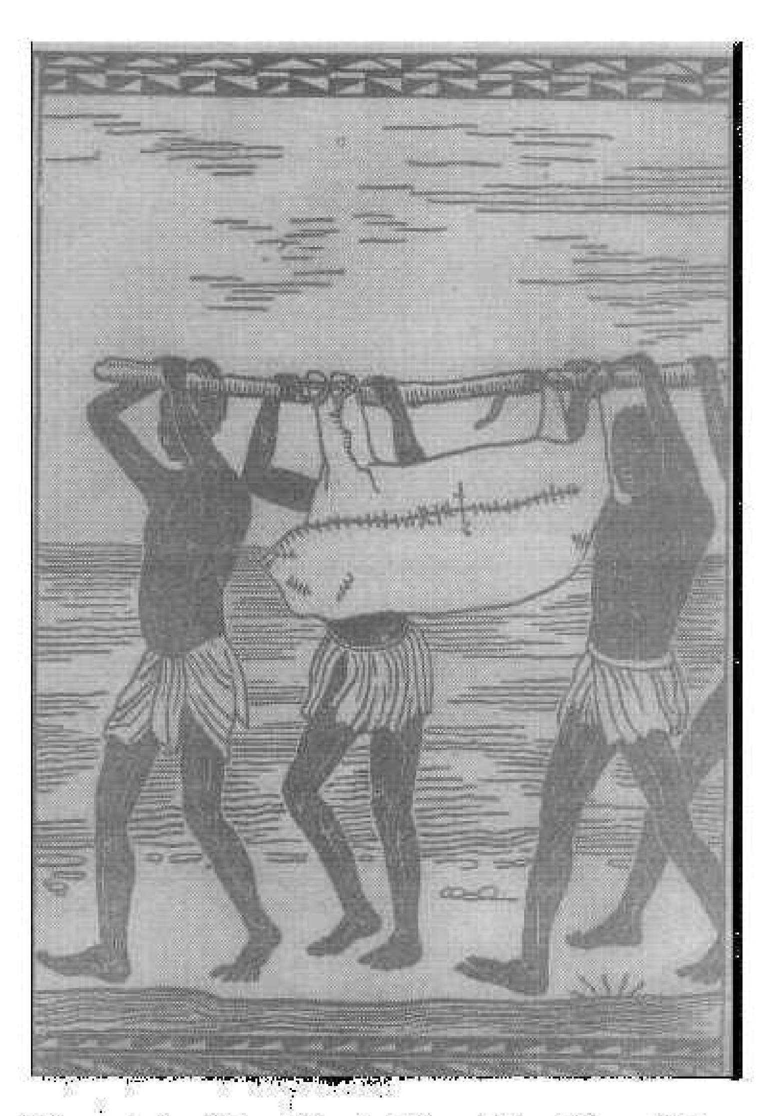
ولم يدر أحد كم من الزمن ظلت تطير ...

غير ان الناس ـ فى مملكة الغرب ـ ظلوا يتحدثون عن فتيما .. ابنة الملك .. التى رفعها الاله «ويندى» الى السماء وتزوجها .. ثم اعادها بعد ايام على ظهر فرس عجوز .. ليجعل منهـا زوجـة الاله على ظهر الأرض .. ! ؟





تصور أساطير الزنوج دائماً ألواناً من المكر والدهاء والبراعة في التخلص من المآزق .. جبلتهم عليها مجاهل الغابات والأحراش التي تدفعهم الى ابتكار السبل لاجتياز ما يواجههم خلال حياتهم من صعاب وعقبات .. ومع ذلك فلا تكاد أسطورة واحدة تخلو من القيم الاخلاقية التي تميز أسلوب الحياة كما يراه البيض من أسلوب الحياة يراه السود ..



وحمل العبيد الكيس الثقيل وبداخله سساما .. تنفيذا لأمر الملك

كان كل ماتركه وراءه عندما مات .. زوجته وابنه .. وحصانه الصغير . غير أن الحصان كان له شأن يفوق ما للزوجة والابن .. فهو يأكل ، وهما يجوعان .. وهو يسمن ، وهما يهزلان . ولم يكن أحد على ظهر الارض مسئولا عن الحالين .. فالعشب والاوراق والحشائش لا تشترى ولا تكلف سوى المضغ ، في حين أن الخبز يشترى ويباع .. والفقر يتحكم دائما في طريقة التعامل به في الحالتين ...

وقالت الأم لابنها الهزيل ساما ذات يوم وهى تتأمل حصانها السمين :

— وماذا بعد ياولدي ؟ ما الذي يحل بنا إذا فقدنا ذلك الشيء العزيز .. ؟ بل ما الذي نجنيه من ورائه وهو لايزال حقا صغيرا بعد ... ؟ !

وهز الفتى كتفيه وهو يفكر ثم قال :

— سينفعنا نفعا كبيرا يا امي .. وسيقدم لنا أجل الخدمات .. !

وهتفت الأم الجائعة :

— كيف يستطيع ان يخدمنا وهو عاجز عن ان يجر حتى عربة .. ! ؟

قال الفتى :

— عندما يقول ساما .. فكلامه صدق . وليس عليك الآن إلا ان تعطيني قطعة الذهب التي وصلتك من والدك لتصنعي منها قرطا .. انا لن أبيعها بل سأعيدها إليك كما هي تماما ... ولكنها ستكون قبل ذلك وسيلتي للحصول على الغنى والمال .

ووضعت الأم في يد ولدها قطعة الذهب .. وهى

تستحقانه أن يحافظ عليها ويهتم بها .. فهي كل ثروتهما في ذلك العالم الكبير ...

ونهض «ساميا» فوضع قطعة الذهب في جيبه .. وقاد حصانه الى مكان في مدخل المدينة اعتاد الملك ان يجتازه خلال رحلة صيده كل يوم . وهناك ، ربط «ساميا» الحصان الى وتد ، وراح يمسح جسده في اهتمام ، ويدلكه في عناية ، ويمسك المشط باحترام في عُرفه وذنبه وركبتيه .. !

وخلال ذلك كله كانت نظراته لاترتد عن الطريق قط .. حتى إذا ما ظهر موكب صيد الملك من بعيد ، ابتسم «ساميا» وهو يعتدل ، وراح يضاعف اهتمامه بالحصان وينظف حوافره ، ويعامله كأحسن ما يعامل خير العباد .

واقترب الملك واطل نحوه . وعندما شهد ذلك الاهتمام توقف عنده وهو يقول :

— إن حصانك يلقى عناية عجيبة .. !

وأجاب «ساميا» وهو يصعد بصره في فرس الملك وكأنه يستصغر شأنه :

— إنه لأهل لذلك يا مولاى .. فان له ميزة تجعلنى ارفض ان استبدل به خزائن الملك والعرش معا .. !

وحملق الملك في عجب الى الفتى وقال :

— ماهى تلك الميزة العجيبة يابنى ! ؟

— ان روثه من ذهب يامولاى .. ! !

وقهقه الملك ، وقد راح يسخر منه .. غير ان الفتى أشار إلى كومة من الروث كان قد وضع فيها قطعة الذهب التى اخذها من أمه .. وقال :

— انظر بنفسك يامولاى .. فهذا من روثه الآن . ولا أظن الروث يخلو من الذهب وإن كان ذلك يتصل الى حد كبير بالطعام الذى تناوله .

وأمر الملك عبيده بالبحث عن الذهب في روث الحصان . فلم تكد تمضى لحظة حتى مد احد العبيد يده الى الملك وبين اصابعه قطعة صغيرة من الذهب ..

قال ساميا مبتهجا :

— انظر أيها الملك .. ها هو ذا الذهب في روث حصانى .. !

وكان الملك قد تناول قطعة الذهب فتأملها ، ثم اخذ يعرضها على رجال بلاطه وقد آمن بصدق الفتى وقال له :

— أجل .. إنك لصادق .. وإنه لذهب خالص براق .. فبكم تبيعنى ذلك الحصان ايها الفتى .. ؟!

واحنى الفتى رأسه خاشعا وهو يقول :

— لا استطيع ان ابيعه احدا أيها الملك .. فهو عزيز على .. ولكن .. ولكنى لا استطيع أيضا ان اعصى أمرك يا مولاى .. فانا ارضى ثمنا له عشرة ثيران وخمس بقرات ... !

ولم يساوم الملك .. فقد كان كل همه ان يحصل على الحصان الذى يخرج من بطنه كنز الذهب .

وعندما عاد «ساميا» الى بيته في المساء ، كان يسوق امامه خمس بقرات وعشرة ثيران .

اما الملك .. فقد أمر بالحصان الثمين فأرسل الى اجمل حظائره ، وقدم له خير الطعام ، وراح ينتظر في شوق ولهفة قدوم الصباح ...

ومع مطلع الشمس نهض الملك ليشهد بنفسه الذهب الذى في روث الحصان .. ولكن العبيد لم يجدوا شيئا في الروث على الاطلاق .

ولم يشك الملك في الامر .. فقد خطر له أن تغيير طعام الحصان جعل امعاءه عاجزة عن الاتيان بالثمرة المرجوة إلا بعد ان تعتاده .. وقرر ان ينتظر اياما اخر ...

غير أن الأيام مرت ، ومن خلفها الاسابيع .. وروث المهر لايتغير .. ولا يخرج منه الذهب .. !

واستبد الغضب بالملك .. وامر بالقبض على « ساميا » واحضاره بين يديه .

واحس «ساميا» الخطر .. وقبل أن يمضى مع الجنود ، ذبح ثورا واخذ دمه فوضعه في كيس صغير من الجلد ، دفعه الى امه ، وطلب منها ان تعلقه على صدرها تحت الثياب .. وهمس في اذنها بما تقوله وتفعله عندما تذهب معه وتمثل بين يدى الملك .. !

ووقف الفتى يرتعد والملك يصب عليه جام غضبه، ويصفه بأنه كاذب شرير ..

واشتركت الأم في لوم ولدها ... وهى تقول :

— صدقت ايها الملك .. إن ولدى كاذب شرير لا يحترم احدا . وهو جدير بأن يلقى في سجن مظلم ، او يسلم الى الجلاد حتى يعرف اقدار الناس .. !

وصاح «ساميا» متظاهرا بالغضب :

— اهكذا تدافعين عن ابنك أيتها الأم المعولة .! ؟ إن لسانك لاحق بأن يقطع ويخرس حتى لاتطلبى لولدك الموت ...

وبكت الأم وهي تقول :

— أنا بقطع لسانى أيها الولد .. ! ؟ لقد فقدت أباك الذي لم يستطع أن يلزمني الصمت ويخرسني . وتريد أنت أن تقطع لساني وتخرسني .. ! ؟ أواه أيها الملك .. أرأيت مدى الشر الذي تمتلىء به نفسه ؟

وضرب «ساميا» رأسه بيديه وكأنه عجز عن أن يملك نفسه وصرخ :

— اسكتي أيتها الشريرة .. أتجرؤين على اتهام ابنك ومهاجمته .. ؟ ألا فلتحل عليك اللعنة .. !

قالت الأم وهي ترفع قبضتها مهددة :

— وعليك أولا يا ساميا . ليكن ملعونا ذلك اليوم الذي خرجت فيه من بطني ورأيت النور . ليكن ملعونا ذلك اليوم الذي أرضعتك فيه ولم أخلص العالم شرك .. ألا ليتني ماولدتك وما أرضعتك .. إذن لما شتمتني وصرخت في وجهي وطلبت أن تحل علي اللعنة .. !

وبدا على « ساميا » كأنه قد فقد زمام نفسه ، وصرخ وهو ينقض على أمه شاهرا خنجره !

— فلتذهبي الى جهنم يا مجرمة .. !

وقبل أن يتمكن أحد من الاقتراب ، كان الفتى قد غرس خنجره في صدر أمه .. !

وانبثق الدم قانيا من صدر الأم .. أو على الأصح من الكيس المملوء بالدم .. والذي شقه الفتى في براعة وهو يبدو كأنه قد طعن أمه .

ولقد كانت الأم هي الأخرى بارعة .. فقد أتقنت تمثيل الدور ، واستلقت على الأرض كجثة هامدة .. والدم يغمر ثيابها ويسيل كأنه ينبثق من شريان .. !

وصاح الملك في غضب وذعر :

— سأقتلك أيها القاتل الشقي .. يامن طغى كيل إجرامك حتى قتلت أمك . إن انتقامي سيحل بك مرتين .. مرة للجرم الذي صنعت معي .. ومرة للجرم الذي صنعت مع أمك .. !

وأغمض «ساميا» عينيه ، ثم فتحهما وهو يهز رأسه في عنف وكأنه يوقظها من كابوس . وتطلع أمامه وكأنه ينكر الجثة الملقاة تحت قدميه .. ثم حملق في الخنجر الذي لايزال يلوث يديه .. ثم بدا كأنه قد أدرك أنه قتل أمه وهو غافل عن نفسه .. وراح يبكي .. !

وفجأة ، سكت ساميا .. ثم نظر الى الملك في هدوء وقال :

— لا عليك أيها الملك .. ويجب ألا يحزنك الأمر .. ولتكف نفسك عنت الانتقام .. فأنا أستطيع أن أجعل الجريمة كأنها ماوقعت قط .. إذ أنني أعرف سر إحياء الموتى .. أصدر الأمر الى حرسك أيها الملك أن يبعدوا أيديهم عني .. ودعوني أعمل في هدوء وفق هواي .. وسترى أن هذه الجثة الهامدة أمامك سترتد اليها الحياة في لحظات .. !

وفتح الملك عينيه في ذهول .. في حين راح الفتى يصرخ في رجال البلاط :

— مالكم واجمون .. ! ؟ ائتوني بإناء به ماء صاف .. وسترون كيف أعيد إليها الحياة .. !

وأومأ الملك الى الحرس فأتوا اليه بإناء ماء . وحدق ساميا في الاناء كأنه يتأكد من صفائه ، ثم انتزع من تحت كمه ذيل الثور الذي ذبحه منذ ساعات ، وغمسه في الماء ثلاث مرات .. ثم نضح صدر الميتة ورأسها وقدميها . وهنا فقط تحرك الجسد الميت ، وفتحت المرأة عينيها وكأنها تفيق من نوم عميق ..

وأحاط الجميع بالمرأة ، وراحوا يتحسسونها بأيديهم ليستوثقوا من أنها حية حقا . ودهش الملك وقال لساميا :

— أعطني ذيل الثور الذي تحيي به الموتى .. فأعفو عنك !

ولكن ساميا أجاب الملك :

— لا أستطيع التخلي عنه يا مولاي .. وما أغلى ثمنه ! ومع ذلك فأنا أخشى لو تخليت لك عنه مقابل ثمن غال ، أن يفقد قيمته بين يديك كما فقد روث الحصان قيمته عندما بعتك إياه .. !

قال له الملك :

— لا شأن لك بذلك .. بعني الذيل أعطك الثمن الذي تريد ، ولو كان قطيعا من أربعمائة ثور ومائتي بقرة .. !

وأحنى «ساميا» رأسه وقال في استسلام :

— ليكن ماتريد يا مولاي .. إن ثمنه لايقل عما عرضته .. فأصدر أمرك الى عبيدك بتسليمي القطيع أعطك الذيل العجيب .. !

وتمت الصفقة ...

وبينما كان «ساميا» يسوق القطيع ومعه أمه إلى بيتهما ، كان الملك قد بدأ يجرب سحر الذيل في إحياء الموتى .

أمر الملك أحد الضباط بالاقتراب منه ، ثم طعنه بسيفه في صدره تماما كما طعن «ساميا» صدر أمه .

وطلب إناء به ماء صاف فأحضر اليه ، وغمس ذيل الثور في الماء ثلاث مرات ، ثم نضح به صدر الميت ورأسه وقدميه . . .

ولكن الحياة لم تعد الى الجثة قط . .

وأمر الملك بطائفة من الأسرى يعيد عليها التجربة، ولكن الأسرى المساكين لم يعودوا أبدا الى الحياة . .

وجن جنون الملك . . وعرف أن « ساميا » قد سخر منه . . !

واستدعى أوامره بأن يساق الفتى الكذاب إليه ، بعد أن يقبض عليه الحرس ويضعوه في جلد ثور يخيطوه عليه بشدة . .

وعندما عاد الحراس الى الملك وهم يحملون جلد الثور ، وبداخله الفتى يصرخ ، رفسه الملك برجله في جنبه وهو يقول :

— والآن لا عفو عنك أبدا . . وستعرف عندما تلقى في البحر أن الكذب لن يغنيك . . وعندما تتعلم وسيلة أخرى في العالم الآخر وتتقنها ، فعد إلينا لتعلمها منك !

وأمر الملك عبيده أن يحملوا الكيس ويلقوا به في البحر وهم في طريقهم الى العمل .

وحمل العبيد الكيس الثقيل ومضوا ينفذون أمر الملك . . وبينما هم في الطريق ، والحمل ثقيل ، والشمس محرقة ، والجو لافح ، توقف أحد العبيد يمسح العرق ، واقترح على زملائه ان يضعوا الحمل الثقيل ويمضوا الى العمل ، ثم يعودوا اليه وقد خفت الحرارة قبل الغروب ، فيلقوا به في البحر . .

وكان الجهد والحر قد أقنعا زملاءه قبل أن يحاول هو إقناعهم . . فرسموا الكيس على حافة الطريق ومضوا الى الحقل البعيد . . !

أما ساميا . . فبعد أن كاد يختنق داخل الكيس، امتلأ من جديد أملا في أن يعيش . فقد كان لايزال أمامه وقت طويل يمتد حتى الغروب . . !

وراح «ساميا» يتسمع هل أحدا يمر . . غير ان الوقت راح يمضي . . . ولا احد يمر بالطريق قط . . !

وأخذت الشمس تميل نحو الغروب ، ولا أحد يقترب . . والأمل في قلب « ساميا » يتحول الى يأس مرير .

وفجأة ، أصاخ «ساميا» السمع . . لقد كان هناك من يسير في الطريق ، ببطء الخطو يتمتم في تثاقل .

ولقد كان على حق . فقد كان هناك عجوز زاهد يسير في الطريق يتمتم بصلواته ويتلوها في بطء .

وبدأ «ساميا» يقوم بدوره . . وكان الدور يقتضي ان يتصنع أصواتا كثيرة مختلفة . . تتشاجر وتتعارك .

وسكت الاصوات سمع الشيخ فوقف ينصت . . ولا يدرى من أين تصدر الأصوات المتعاركة المتباينة.

— تعال معنا . . كيف تريد أن تهرب ؟

— لا . . لا أني معكم . . اتركوني . .

— كيف لاتريد أن تذهب معنا . . إننا لانستطيع أن نذهب الى الجنة بدونك . . !

— ولكني لا أريد أن أذهب معكم . . إن أمامي أعمالا كثيرة فوق الأرض يجب أن أنتهي من إنجازها .

— أترفض أيها الأحمق الذهاب الى الجنة حيث تنتظرك السعادة الأبدية ؟ من أجل أعمال ضئيلة حقيرة يستطيع غيرك إنجازها .

— لا أريد السعادة . . ولكني أريد أن أظل على الأرض .

— اتبعنا أيها الجاهل ولا تضطرنا الى إسعادك بالقوة . . إن الجنة تنتظرك والأبواب مفتوحة لاستقبالك . .

— لا أستطيع أن أذهب معكم ، فثيراني في حاجة لرعايتي .

— أيها المسكين . . أترفض الجنة من أجل بضعة ثيران حقيرة . . ؟ فكر يابني وسندعك لحظات . . ثم نعود اليك وقد استقر رأيك . . !

وكان الشيخ الزاهد يستمع الى المناقشة في استغراب وذهول ، ويعجب من الرجل الذي يرفض الذهاب الى الجنة مع من يريدون أخذه اليها . . واقترب من الكيس الذي يصدر منه الصوت وسأل :

— من هناك . . ! ؟

سمع الصوت يجيبه :

— أنا ساميا الفلاح . . يريد الملائكة ان يأخذوني بالقوة الى الجنة . . ويجبروني على أن أترك ثيراني المسكينة التي لا أستطيع ان أتركها وحيدة . .

قال الزاهد :

— لاتذهب في عنادك الى هذا المدى يابني . . فتغضب الملائكة وتأبى ان تعود اليك تأخذك الى الجنة

ولكن الصوت عاد يقول له :

— لايهمني عادت الملائكة أو لم تعد . فليأخذوا معها أي إنسان آخر . . أما أنا فلا أريد الذهاب الى الجنة الآن أبدا . .

وهز الزاهد رأسه وهو يقول :

— وحق السماء لولا أنني مكلف بأن احمل ذلك الصندوق المملوء بالذهب هدية من قريتي الى كبير الرهبان في المدينة .. لذهبت بدلا منك .

قال له الصوت :

— أيها الزاهد الصالح ، اذا كان هذا الصندوق وحده هو الذي يمنعك ، فأنا أحمله عنك وأسلمه الى صاحبه بنفسي وأنا في طريقي الى قريتي .. وأنا كفيل بعد ذلك بأن استرضي الملائكة لتعود الى بعد ان أتم واجبي نحو ثيراني وبقراتي العزيزات .. !

وفرح الزاهد وهو يقول :

— مادمت تطوعت يابني بحمل الصندوق وإيصاله الى صاحبه ، فلا بأس عندي من ان احل محلك وأذهب بدلا منك في الرحلة الجميلة الى الجنة . ولكن كيف الوصول الى المكان الذى أنت فيه .. ! ؟

قال له ساميا :

— إن الأمر سهل .. يكفي ان تقطع بسكينك الخيط الذى يضم أطراف جلد الثور .. ولكن حذار من أن تضغط شفرة السكين أكثر من اللازم فتجرح أحد الملائكة .. !

ومد الزاهد سكينه وأخذ يقطع بها الخيط في عناية وحذر ، ووثب « ساميا » من داخل جلد الثور في فرح كبير وهو يقول للشيخ :

— والآن ادخل انت في الكيس ولأخيطه انا عليك . وانتظر حتى تعود الملائكة فتحملك . ولكن عليك ان تشهر السكين في يدك . ومتى شعرت بالبرودة تتسرب اليك ، فشق الكيس تجد نفسك في داخل الجنة .. !

وشكر الزاهد « ساميا » لتنازله له عن رحلة الجنة .. وسلمه صندوق الذهب ، ثم دخل في جلد الثور حيث خاطه «ساميا» عليه ، ثم مضى في طريقه فرحا يقفز ويرقص .

اما الزاهد فقد ظل ينتظر حضور الملائكة لحمله . وفي قلبه خوف من ان يكتشفوا أمره ويعرفوا انه ليس الشخص الذى كانوا يحملون . وانقضت ساعة سمع بعدها همهمة وكلاما ، فراح يستعد للحظة التى قد يكتشفونه فيها ، ولكن الفرحة ملأته عندما شعر أن الكيس يرتفع به .. فقد ادرك ان الملائكة لم يكتشفوه .. وانه الآن في طريقه الى الجنة .. !

وشعر الزاهد ان الطريق الذى يسير فيه الملائكة طويل .. فاشفق عليهم . وعندما توقفوا عرف انه قد وصل الى المكان المعهود .. وبدأ الكيس يهتز من جديد إلى أمام والى خلف عدة مرات .. ثم شعر الزاهد بأنه يطير ...

واحس صدمة قوية .. شعر بعدها بالبرودة ...

وتذكر الزاهد نصيحة ساميا ، فمد السكين وشق به الكيس ليهبط الى الجنة ...

وما كاد يفعل ، حتى وجد نفسه محاطا بالماء من كل جانب .. فراح يسبح ويسبح .. ولولا انه ظل يسبح بقوة نحو الشاطىء لبلغ فعلا أبواب السماء .. !

❋ ❋ ❋

في ذلك الوقت كان «ساميا» قد بلغ المدينة .. وصندوق الذهب لا يزال في يده . واختبأ الفتى خلف شجرة حتى مر به عبيد الملك عائدين من العمل .. وعندئذ ظهر ساميا ، وسار في طريقه ببطء ليبلغ القصر بعد عودة العبيد بوقت يكون كافيا ليبلغوا الملك خلاله بنجاح مهمتهم .. !

وبينما كان الملك مستلقيا على عرشه مغتبطا بنجاحه في الانتقام من الفتى الكذاب بالقائه في البحر .. فوجىء به هو نفسه يقف فوق رأسه ...

وصرخ الملك في ذعر .. وامتلأ القصر بالعبيد والحراس .. بل بكل اهل المدينة بعد أن بلغهم نبأ ذلك العائد من الموت .. وبين أهل المدينة كانت امه تقف في ذهول ، وتحاول الاقتراب منه .

وصرخ « ساميا » يمنع امه وقال لها :

— ابتعدي يا اماه .. لاتلمسيني .. فجسدي تغطيه ذرات الكواكب التى كنت أسير بينها منذ قليل . إن كل من يلمسني يشتعل كالنار قبل ان تنقضي ساعات . ولا بد ان يمضي بعض الوقت قبل ان تسقط ذرات الكواكب الملتصقة بي ...

والتفت الملك الى العبيد وصرخ فيهم في غيظ :

— ايها العبيد المجرمون .. الموت لكم جميعا نظير كذبكم علي وادعائكم أنكم ألقيتموه في البحر ..

وسجد العبيد امام الملك وهم يقسمون انهم قد ألقوه في البحر .

وتكلم ساميا مخاطبا الملك في هدوء :

— إنهم صادقون يامولاى .. وانا عائد الآن من العالم الآخر طوع امرك .. انسيت أنك طلبت مني ان اعود عندما اتعلم شيئا جديدا هناك لأعلمك إياه ..

وبهت الجميع وسكتوا .. خاصة عندما كشف لهم «ساميا» غطاء صندوق الذهب .. وراح يقول :

— عندما ولجت باب السماء ، احاطت بي ملائكة

طويلة الشعر ترتدى أشعة الشمس ، وتبرز من ظهورها أجنحة تلمع كأجنحة الفراشات . وراحت الملائكة تنشد لى الأناشيد وتقدم كل واحدة منها لى هدية .. فهذه تقدم لى ماسا ، وأخرى تقدم ياقوتا، وثالثة تقدم ذهبا وفضة وقلائد وأساور .. ولكنى رفضتها جميعا ، إلا ذلك الصندوق المملوء بالذهب ، حتى لا أثقل كاهلى بحملها جميعا عندما أعود الى الملك سريعا كما طلب منى ، لأخبره بوسيلة الوصول الى الغنى والثروة . إن ماتعلمته هو أن الغنى فى السماء أسهل منه على ظهر الأرض .. وكم أسفت إذ لم تكن معى شربة أستطيع أن أحمل فيها كل تلك الهدايا الكريمة التى قدمت لى .. غير أنى سأعود مرة أخرى ، وسآخذ معى كيسا كبيرا أضع فيه كل الهدايا التى قدمتها لى الملائكة ووضعوها عند باب الجنة حتى أعود .. !

وقال له الملك وهو لايزال مذهولا :

— ولكن كيف لم تمت .. وكل امرىء أغرقناه من قبل مات ولم يعد .. ؟!

وأجاب سامبا مبتسما :

— ذلك لأنك وضعتنى فى جلد ثور .. والثور مقدس كما تعلم فهو يمنع الموت أن يخطفنا .. والدليل على ذلك هو أننى لا أزال حيا بين يديك .. !

وفجأة ، اندفع من أقصى القاعة أحد ضباط الحرس ، وسجد أمام الملك فى سرعة وهو يتوسل :

— مولاى .. أرجو أن تضعنى فى جلد ثور لأذهب الى الجنة وأعود بالثروات المتروكة على بابها .. فأنا أخشى أن يأخذها «سامبا» إذا ذهب ، ثم يختفى بها بعيدا عنا .. !

وفى الحال .. أخذ الضباط الآخرون يتقدمون من الملك وهم يتوسلون :

— ونحن أيضا .. ونحن أيضا أيها الملك ..

وهتف فيهم الملك فى قسوة وعنف :

— أتريدون الذهاب لتثروا ، وأظل أنا فقيرا .. ؟! إن هذا لن يكون ، فلنسلخ من الثيران مايكفينا جميعا ، ولنذهب كلنا الى الجنة ، ونعد بهدايا الملائكة .. !

وصفق الجميع للملك ...

وفى ذلك اليوم .. ذبح أكثر من ألف ثور .. فقد كان كل ضابط يسعى لأن يضع نفسه داخل الجلد المقدس .. ويلقى فى البحر .. ليذهب الى الجنة .. !!

وذعر «سامبا» عندما وجد أن كذبته ستؤدى الى غرق عدد كبير . فحاول منعهم وأخذ يصرخ فيهم أنه كان يكذب .. غير أن الجميع لم يصدقوه ، وظنوا أنه يريد أن يمنعهم لينفرد هو بالذهاب الى الجنة ، والحصول على الكنوز وحده ...

ودخل الملك فى جلد ثور .. كما دخل كل ضباط البلاط فى جلود الثيران التى ذبحوها .. ووضعت الأكياس المكدسة على العربات واتجهت الى البحر .

وراح «سامبا» يجرى بين العربات ويتوسل الى كل من دخلوا الأكياس أن يصدقوه .. غير أن الملك ، من داخل كيسه ، أصدر أمره إليه بالابتعاد وهو يصرخ :

— اسكت أيها الكذاب .. هانتذا تكذب الآن أيضا لتمنعنا من الحصول على الثروة .. اقتلوه أيها العبيد إذا اقترب منا مرة أخرى . وسأعرف أنا كيف أربيه وأرد صوابه عندما أعود .. !

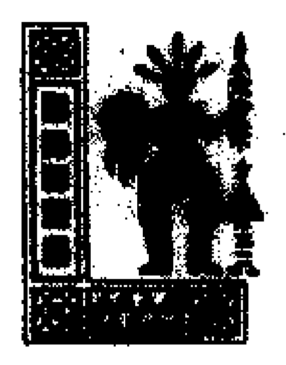
وأوقف العبيد سامبا .. واستمرت العربات فى الطريق الى البحر ..

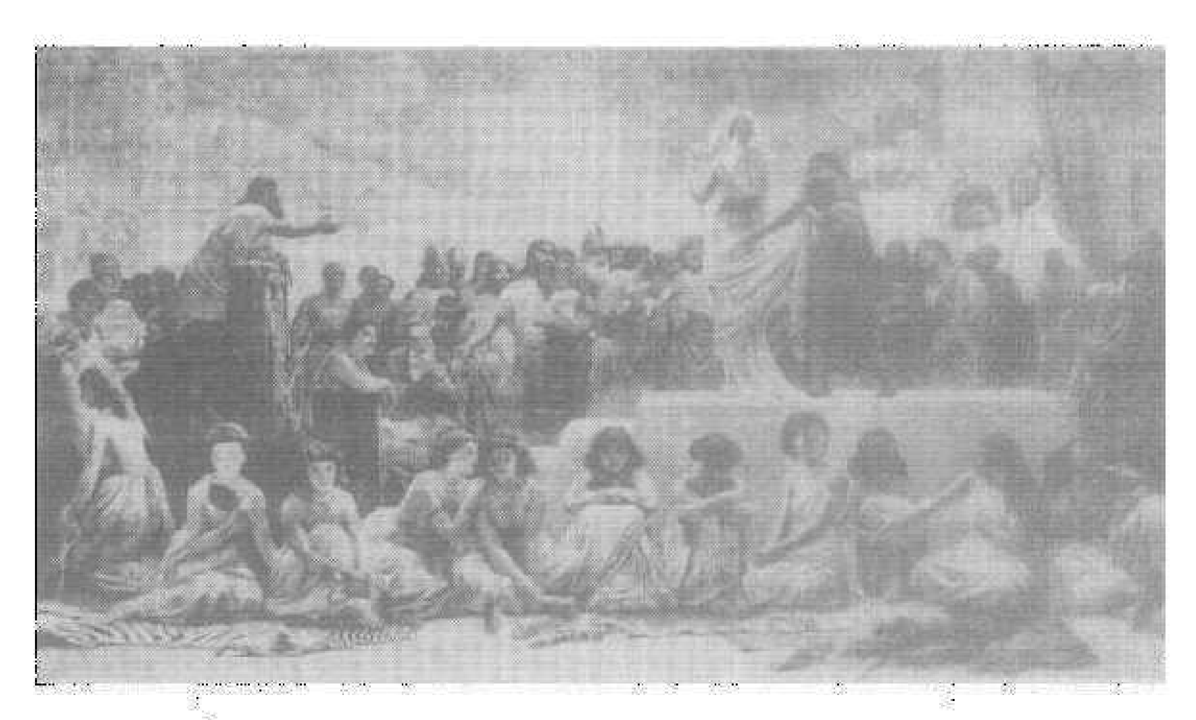
وهز سامبا كتفيه .. وانتظر بعيدا حتى ألقيت كل الأكياس فى البحر . ثم أومأ الى كل الشعب أن يتبعوه ...

وعاد الجميع الى المدينة .. وفى خلال الأيام التى تلت ذلك ، كان «سامبا» قد أقنع الناس أن بالجنة من الحور والمسرات ما أطمع الملك وضباطه بالبقاء هناك .. وأنهم لن يعودوا مرة أخرى أبدا .. !

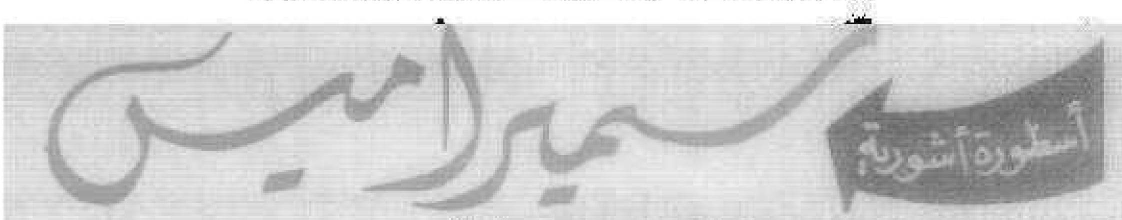
واقتنع الناس .. وبايعوا سامبا الكذاب ليجلس على العرش ...

ويروى التاريخ أنه لم يعرف منذ ذلك الوقت أصدق منه ملكا قط .. !





ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء الى حيث يعرضونها للبيع





واقتربت سميراميس من الوزير وركعت امامه على ركبتيها

اختلف المؤرخون في حقيقة سميراميس ، فقال بعضهم ان وجودها خرافة .. ويؤكد آخرون أن الاعمال التى تنسب اليها متداخلة في تاريخ الاشوريين والبابليين الذين عاشوا على نهر دجلة والفرات .. اما المنقبون عن الآثار فيرون ان سميراميس الهة أسطورية شرقية .. هي عندهم كفينوس عند الرومان .. وأن اسمها ، ومعناه حمامة ، انما أطلق عليها لان الحمائم احتضنتها عند مولدها وغذتها .. وهم يرونها رمز الحب والسعادة ، وفرح الرجال ، والظفر في الحرب .. كما يعتبرونها وسيطا اسمى بين مبدأي الخير والشر على ظهر الأرض .. !

انسابت سيول طاغية ذات يوم على منابع نهر الفرات في جبال ارمينيا ، ففاض النهر ، وتدفقت مياهه ، وخرجت الأسماك تستلقي وتتجلد على اديم الأرض ...

وبين تلك الأسماك ، كانت هناك سمكتان كبيرتان شهدتا بيضة كبيرة طافية على وجه الماء ، فسبحتا اليها ، ودفعتاها امامهما الى الضفة ... وإذا حمامة بيضاء تهبط من السماء وتحتضن البيضة ، ثم ظلت تحميها حتى تراجع ماء الفيضان عائدا الى مجرى النهر ...

واستمرت الحمامة تحتضن البيضة حتى فقست . ومن داخل البيضة خرجت الربة «ديركيتو» بوجه امرأة .. وجسم سمكة ... !

واعجب الاله الأعظم بالربة الصغيرة ، بعد ان كبرت وملأت الآفاق بعدلها وفضلها وحكمتها ، وتمثل إعجاب الاله في وعد قدمه اليها بان تطلب منه اي شيء تريد . ولم تدع «ديركيتو» الفرصة تضيع .. فسألته أن يخلد السمكتين اللتين انقذتاها من الطوفان .. فرفعهما الاله الأكبر الى السماء .. وجعلهما ألمع نجمتين في برج الحوت .. !

ورغبت الربة «ديركيتو» في ان تحمل .. والربات يحملن ويلدن بغير زواج حسب رغبتهن ... وحملت الربة ، ثم وضعت طفلة لها جسد انسان كامل .. يشع من بدنها النور اروع ما منحته من الوان الجمال .

وأطلت الربة «ديركيتو» الى ابنتها .. وملأها الذعر .. وقد اثار رعبها ألا تكون طفلتها في شكلها الالهي .. مما يجعل الربات الأخريات ينظرن اليها بعين الريبة والشك ، ويعيرنها ، ويتهمنها بما هي منه براء .

وحملت الربة مولودتها ذات ليلة مظلمة الى البادية .. حيث تركتها هناك عارية مهملة .. ليس حولها من شيء على الاطلاق سوى البرد والريح والزمهرير .. والجوع القاتل .. !

وكان بيلوس .. اله نينوى العظيم .. يطل من عليائه ، فرأى الطفلة المسكينة تلقى في العراء بغير سلاح او معين .. فارسل من السماء رسوله «ينبو» يرعاها ويحميها ، ويحمل معه سربا من الحمائم يرف بعضها عليها بأجنحته لترد عنها حر النهار وبرد الليل . وتنطلق الأخريات الى حيث ينزل الرعاة لتحمل اليها بمناقيرها نقطا من الحليب تقطرها في فمها لتغذيها وتروي ظمأها ...

ومع مر الشهور والسنين ، تحولت الحمائم الى الأمكنة التي يضع فيها الرعاة مايصنعون من جبن ، فتأخذ منه بمقدار ما تسع مناقيرها ، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حمائمها سعيدة لاتعرف قط طعم الشقاء .

وكان الرعاة إذا عادوا في المساء يرون جبنهم منقورا فيدهشون . ولما ازداد ذلك الأمر وتتابع ، قرروا ان يتركوا واحدا منهم يرقب المكان وهم غائبون ..

وشهد الراعي الحمائم وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة فتحملها بمناقيرها الى مكان تطير اليه . واخبر الرقيب رفاقه فتتبعوا الحمائم حتى وصلوا الى حيث صبية ذات جمال رائع لم يخلق لغير الآلهة . فأخذوها الى خيامهم ، واتفقوا على ان يحملوها معهم حيث يبيعونها في سوق «نينوى» العظيم ...

وحمل الرعاة الصبية الحسناء الى نينوى .. وكانوا قد سموها سميراميس .. وهي تعني الحمامة البيضاء .

واتفق ان كان يوم وصولهم الى المدينة يوم موسم الزواج الذي يقام كل عام ، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحي المملكة ، لينتقي كل شاب عروسا شابة ، او ينتقي صبية يحملها الى داره فيربيها الى ان تبلغ سن الزواج .. فيتزوجها .. او يقدمها عروسا لأحد بنيه .. !

وكانت الساحة غاصة بالشيوخ والكهول والشبان ، ودخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء الى حيث يعرضونها للبيع . وبينما هم يضعونها في اول الصف ، إذ شاهدهم « سيما » ناظر مرابط خيول الملك . وكان « سيما » عقيما لا ولد له ، فهفا قلبه الى سميراميس ، ورغب في تبنيها .

ودعا « سيما » الرعاة وساومهم على ثمنها . وعندما تمت الصفقة حملها الى منزله ، فما إن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت بها فرحا غامرا ، واعتنت بها المرأة عنايتها بابنتها .. وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت .. وبرزت انوثتها كأجمل ماتكون النساء .. !

* * *

وذات ربيع ، جاء مينوتس ـ قائد الملك ووزيره ـ إلى مرابط الخيل يتفقدها . وشهد الوزير « سميراميس » الحسناء فراعه جمالها وبهاؤها ، وسحرته عيناها اللتان يشع منهما النور .. ورنت إليه «سميراميس» بفتور يحمل الدعوة . فوقف الوزير في مكانه حائراً مبهوراً .. حتى انتبه الى نفسه آخر الأمر فشدا الفتاة وسار بها الى حديقة القصر يتحدث اليها وتتحدث إليه .

وانطلقت « سميراميس » على استحياء تتبع الوزير . وعندما وقفا في بستان القصر اقتربت منه وركعت أمامه على ركبتيها تقدم له كل فروض الاحترام . ومد مينوتس يده فرفعها لتقف أمامه . وأخذ يسائلها من تكون ...

ولم تستطع «سميراميس» أول الأمر أن تجيب .. ثم لم تجد إلا أن تقول له إنها ابنة ناظر المرابط الملكية .

ونادى الوزير على سيما ، ولكن ناظر المرابط لم يستطع أن يكذب كما بدا له أن يفعل أول الأمر .. واضطر أن يقص قصتها كاملة على الوزير .. منذ وجدها الرعاة تحت رعاية الحمائم في البيداء .. حتى اتخذها ابنة له .. لا يطيق فراقا لها أبداً .. !

واحس الوزير من طريقة الرجل في الحديث ، انه لا يمانع في تركها مقابل مبلغ كبير .. فاخرج « صرة » من المال قذف بها اليه .. ثم انطلق بالفتاة في الطريق الى العاصمة .

وكان قلب الرجل قد شغف بالفتاة حبا . وعندما بلغا القصر كان أول ما فعله أن سلمها للمزينات والماشطات ، وأخرج لها من خزائنه حليا لا يوجد مثلها الا في كنوز الملك . وأخذتها نساء القصر الى الحمام وغسلن بدنها بالماء المعطر ، ومشطن شعرها الأسود الطويل وأسدلنه على كتفيها خصلا معقودة بالجواهر .. ثم ألبسنها الارجوان الفينيقي الموشى بالذهب ، وأخرجنها للوزير كأجمل وأروع ما عرفت « نينوى » من عرائس .

واحتفل « مينوتس » بزواجه احتفالا لم يقمه أحد من قبل ، وكان لا بد أن يصبح لسميراميس المقام الاول بين محظيات الوزير ونسائه .. حتى لقد كان يلازمها ملازمة الظل ولا يطيق منها فراقا لحظة . وكان لمرأة استطاعت سميراميس ان تغذي ذلك الشوق والحب وتستغلهما لتتحكم في الرجل الذي عبدها ، فخضع لرغباتها ، واحترم أفكارها ، وصار يأخذ بآرائها في كل مايلم به من أحداث ومهام .

ومرت الايام ، وسميراميس كل شيء في حياة الوزير .. وكل شيء ايضا في حياة الجماهير . إلا ان شيئا اكثر من جمالها كان سببا في تعلق الشعب والوزير بالعروس الالهية .. هو ذلك النصر الذي استطاعت أن تقدمه للمملكة كلها .. عندما عرفت كيف تسقط اضخم حصن من حصون الأعداء .

كان ذلك يوما خالدا في تاريخ البلاد . وكان الملك « نينوس » قد انتهى من تشييد عاصمة ملكه ، وراح يبحث عن السبيل الى امجاد جديدة يحققها لنفسه ولمملكته الواسعة الاطراف . فما مضت أيام حتى كان قد استقر رأيه مع وزيره وقائد جيشه «مينوتس» على تجهيز جيش كبير ضخم ، يقتحم به ممالك أخرى مجاورة . ثم لم تمض أيام أخر حتى شهدت نينوى خروج جيش عظيم يخترق شوارعها ويبتعد عنها ليجاوز حدود البلاد نحو الشرق .

كان الجيش ضخما بالغ القوة لا قبل لأحد به على الاطلاق . فلم يكن عجيبا الا تثبت أمامه بلدة أو جيش . إلا أن الذي أثار «نينوى» وأغضب ملكها ، هو أن ذلك الجيش الضخم ، وعلى رأسه القائد ، والملك نفسه ، عجز عن اقتحام عاصمة الأعداء .. « بكتريا » لأيام طويلة ظلت الهجمات تتكسر خلالها على الاسوار المحيطة بالقلعة الشامخة .

وعجب الملك ووزيره أن يقف الجيش دون العاصمة لا يستطيع لها اقتحاما . ومع ذلك فقد أبى الملك إلا أن يستمر على حصارها ولو أودى ذلك بالجيش كله . ولما طالت غيبة الوزير على زوجته سميراميس ، أرسل اليها يستدعيها لتوافيه في ميدان القتال .

وحضرت سميراميس . ولم يعرفها رجال الجيش إلا بعد أن تأملوها طويلا . وعرفوا جمالها الأخاذ الوضيء .. فقد كانت ترتدي ملابس الرجال على غير ماكانوا يعهدون .. !

وطلع صباح .. ووقفت «سميراميس» على باب الخيمة تتأمل العاصمة الزاهية التي انهكت الجيش الذي لم يهزم أبدا . ولاحظت « سميراميس » أن الهجوم كان موجها الى قسم المدينة القائم في السهل ، لا ضد قلعتها ، مما جعل البكاترة يحرسون حصونها بقليل من اليقظة . وخطرت لها فكرة .. الا يمكن أن تنهار مقاومة الأعداء لو هوجمت تلك القلعة الشامخة مباشرة .. وهل يمكن أن تقوم هي نفسها بهذا الهجوم .. ! ؟

وانطلقت « سميراميس » الى الخيمة فايقظت زوجها . ولم تمض لحظات حتى عرفت كيف تقنعه بخطتها التي رسمتها من خلال تأملها القصير لجوانب الموقعة .. !

وانتفضت القلعة بعد ساعة من بزوغ الشمس على هجوم عارم عنيف ، تشنه عليهما فرقة قوية من الجنود اختارتهم « سميراميس » بنفسها وتقدمتهم الى اقتحام القلعة الشامخة .

وانقضت ساعة وبعض الساعة .. وانتبه الملك ، والوزير مينونوس ، والجيش جميعا .. فاذا « سميراميس » واقفة على قمة القلعة تلوح بذراعيها ان تقدموا .. !

وعرف الكل انه النصر .. وادركوا ان المرأة التي قادت بضعة رجال قد اقتحمت القلعة التي انهارت .. وان العاصمة قد باتت بين أيديهم ...

والتفت الملك الى قائده مينونس يسأله :

— من تكون هذه المرأة يامينونس .. ! ؟

وشعر «مينونس» بدنو الكارثة .. وادرك أن «سميراميس» قد راقت في عيني الملك ، فسكت على رغم كأنه لم يسمع .. وكرر الملك السؤال ، ولم يجد القائد بدا من أن يجيبه :

— إنها زوجتي يامولاي .. !

وعاد الملك الى العاصمة .. ودخل قصره .. وتفرق الجند والناس . وأرسل الملك الى قائده يأمره بدعوة «سميراميس» اليه . ولم يستطع الوزير إلا أن يحني هامته .

أما سميراميس .. فقد وجدتها فرصة للوصول الى المجد الذي طالما حلمت به .. وحملت نفسها على محفة يرفعها أربعة من العبيد السود ، ويصاحبها فيها وصيفتان جميلتان .. هذه راكعة وراءها تروح لها ، وتلك ساجدة امامها تلبي الرغبات ...

وعندما دخلت على الملك ... ووقعت عليها عيناه في انكلاتها والتفاتها وزينتها وتألق طلعتها .. انهار قلبه في هوى مريد .. وزادت هي من لهيبه بنظرات كلها دل وفتور .. لم يدع له مجال الاختيار .. !

وعندما صارا وحدهما .. اتفق معها الملك على أن تترك زوجها .. لتكون له وحده .

وعادت « سميراميس » الى قصر زوجها وفي إثرها رسول الملك يقول لمينونس :

— إن سميراميس قد راقت في عيني الملك ، فهو يريد أن يراها في قصره بين محظياته ونسائه ، فاذا كنت في حاجة الى زوجة تحل مكانها فليس لدى الملك مايمنعه من ان يسمح لك بالزواج من ابنته بدلا من سميراميس .. !

وصعق الوزير لرسالة الملك ورغبته التي لا يمكن ان ترد ، ولبث امدا لا يدري ما يفعل . واستدعى «سميراميس» زوجته يسألها كيف يتخلص من رغبة الملك .. فاذا بها تشير عليه بتلبيتها .. على ان تسعى هي خلال إقامتها في البلاط .. بما أوتيت من فطنة ودهاء .. لعلها تقنع الملك باعادتها اليه .. !

ونزل القائد عند إشارة سميراميس .. وكله حزن ويأس .. ولكنه ما كاد يبصرها خارجة من القصر في محفتها .. حتى اسودت الدنيا كلها في عينيه .. وانطلق الى شجرة قائمة في اقصى المدينة ..

ومن غصن قوى من اغصان الشجرة العجوز .. تدلت جثة لم تجد من يواريها التراب ...

وكانت هي جثة الوزير .. الذي حكم على نفسه بالاعدام .. !

* * *

بلغ الخبر «سميراميس» وهي بعد لاتزال في طريقها الى قصر الملك . ولكن ماذا يعنيها من انتحار رجل ما أحست يوما واحدا أنها تحبه .. ابدا ما أحبته قط .. وما كان ليملأ قلبها سوى حب المجد ، والسلطان ، والسيطرة .. وهي تستطيع أن تجدها جميعا في قصر نينوس ... !

وكان القصر ينتظرها كما لم ينتظر ملكة من قبل ابدا . وعندما دخلته كانت تعلم انها لن تكون أولى المحظيات فحسب .. بل ستكون هي وحدها الملكة .. ولا محظيات سواها ...

وكان هذا هو بالضبط ماحدث ...

فقد عرفت « سميراميس » اللعوب كيف تجعل الملك يكتفي بها هي وحدها .. ويطرد محظيات القصر ونساءه كلهن .. كأن الدنيا لم يعد فيها غير سميراميس ...

ورفعها الملك من محظية الى ملكة ...

وولدت له الملكة ولدا سماه إيناس ...

وظلت الحياة تسير .

* * *

عرفت «سميراميس» كيف تجعل من نفسها كل

شيء في قصر الملك ... وعرفت كيف تجعله لايطيق فراقا لها لحظة .. حتى ولو كان خروجا لحرب .. أو لاخماد ثورة فحسب ...

غير أن خروجها معه في كل غزواته ملأها كراهة له واحتقارا . فقد كان يستعمل في حروبه أبشع واقسى انواع التنكيل والارهاب تماما ككل من سبقوه من ملوك بابل واشور .. فكيف تطيق هي التي رعتها حمامات السلام في البيداء مشاهد الدم المسفوك هنا وهناك .. وفي كل مكان .. ! ؟

وكان آخر ماشهدته من حروب الملك ، عندما خرج الى بلاد الطورانيين الثائرين عليه .. فعندما ظفر باعدائه وفتحت له ابواب مدينتهم ، امر بسلخ جلود كل الشبان وهم احياء .. وعلق الجلود على جدران بناها امام ابواب المدينة الثائرة . ولم يكتف الملك الوحش بكل ذلك .. فقد امر بقطع رءوس الثوار .. ونظمها في حبل على شكل عقد ، وحكم على من بقى حيا من الرجال بان ياكلوا لحوم ابنائهم وبناتهم .. اما من ابى نفسه فقطع انفه واذناه وشفتاه .. ثم سيق مع الآخرين الى العاصمة .. ليدخل بهم دخول الغزاة المنتصرين .. !

ولم تطق « سميراميس » كل تلك الفظائع .. وكرهت الرجل الذي عرفت فيه اقسى من وجد على ظهر الارض . ودفعتها تلك الكراهة - جنبا الى جنب مع حب الطموح والسيطرة - إلى أن تسعى للتخلص من هذا الزوج .. من اى طريق .. !

وكانت «سميراميس» تعرف الطريق جيدا . فقد عرفت من قبل كيف تمنع على الملك لتقربه .. وكيف تقصيه عنها لتشعل في قلبه نار الشوق .. فاذا ماتهاوى أمامها وتحطمت منه الأعصاب .. كان هذا هو الوقت الذي تطلب فيه ماتريد .. وسرعان ماتلبى وتجيب ... !

وكان مساء .. وبينما الملك يجلس في مقصورتها وكله شوق ، اخذ يحدثها بأن الوقت قد حان لتطلب ما تريد .. وكان طلبها هو ان يسلمها سلطته كلها لأيام ثلاثة .. تجلس فيها وحدها على العرش .. ويكون لها اثناءها ان تامر فتطاع .. ولو كان الأمر صادرا اليه هو نفسه .. !

وابتسم الملك .. ثم ضحك .. ثم كاد يستلقي لطول ماضحك .. ثم قال لها :

- لك ماتريدين .. !

وجلست «سميراميس» على عرش تيقسوى .. تامر وتنهى وتحكم ...

وانقضى اليوم الأول بسلام ...

وطلع صباح اليوم الثاني من الايام الثلاثة التي منحها لها الملك .. فكان اول امر اصدرته سميراميس للجنود ان يقبضوا على الملك .. !

واطاع الجنود .. واقتيد نينوس إلى السجن امام عينيها . وعندما راح الملك يستعطفها في ذلة وخضوع .. ابتسمت له ساخرة .. ثم انطلق من بين شفتيها امر جديد إلى الجنود . بان يذبحوه .. !

واثبتت سميراميس انها لم تعد بعد ابنة الحمائم . وانها قد اصبحت - في بابل وآشور - اكثر قسوة من كل طغاة بابل وأشور .. !

وعلم الشعب بما صنعته الملكة .. فهاج .. وتألبت الجماهير زاحفة الى القصر تهتف بالثار ، وتطالب براس الملكة ...

وتلقت سميراميس نبأ الثورة وهي في الحمام .. فلم تذعر .. ولم تأخذها رعدة . بل خرجت من الحمام تصف عارية .. في شعر منفوش .. وغدائر تتسدل على كتفيها كريش الطاووس .. واطلت من شرفة القصر .. !

وتحول الصخب فجأة إلى همس خافت ، وصمت الضجيج ثم اخذ يتحول بعد ذلك إلى عبادة وصلاة للملكة القاتلة .. !

وسجد الجميع .. ثم تفرقوا .. وقد اصبحت الملكة في مقام الآلهة ...

ومنذ ذلك اليوم .. جلست سميراميس وحدها على عرش آشور ، تحكم دولة مترامية الاطراف .. وتقود الشعب كل يوم إلى مجد جديد ...

واستمرت « سميراميس » تحكم وحدها عشرين عاما .

ولم يعد ينقصها بعد كل الأمجاد التي صنعتها للشعب إلا ان تتحول الى الفتوح ، وتحطم كبرياء كل الثوار .

وصنعت سميراميس جيشا لم تر آشور جيشا مثله قط . زحفت به لتخضع آسيا وميديا وفارس وإرمينيا وفينقيا .. ولم يعد هناك من بلد يقف في وجهها إلا الهند .. ذلك البلد المسحور الذي تحدثت عنه القرون الأولى .

وإذن فالى الهند ...

وخرجت سميراميس على رأس جيشها الجرار . فما وقف امامها عدو .. وما صمد دونها بلد .. حتى بلغت اطراف الهند وقد انهكها طول السفر ...

وكانت سميراميس قد استعدت قبل ذلك بسنين لملاقاة جيش ملك الهند . وكان الهنود مشهورين بقدرة فيلتهم التي تستخدم في الحرب فلا تقهر . فسمت هي الى التغلب على هذه العقبة بحيلة حربية .. وامرت بتغطية مائة الف جمل بجلود الثيران السوداء لتقلد بها الفيلة .. وصنعت الفي مركب لتشق بها نهر السند .. وحملها الجيش على ظهور الجمال .

وبدأت الحرب وجها لوجه .. وكانت سميراميس قد انزلت قبلتها الزائفة في المعركة .. فكسبت اولى الجولات .. واسرت مائة الف هندي .. واغرقت الف مركب من مراكب الاعداء في نهر السند .

وتظاهر الملك الهندي بالتراجع والهرب .. ومن ورائه انطلق جيش « سميراميس » بغير نظام يبغي الغنيمة . وكانت هناك قنطرة كبيرة على النهر اضطرت سميراميس ان تنزل جيشها على جانبها .. وتوقفت المعركة ...

وفي اليوم التالي عاد القتال .. وانطلقت الفيلة الزائفة براكبيها تطارد جيش الهند المتقهقر .. ولكن الهنود الذين اكتشفوا الزيف عندما عثروا على جثث « الفيلة » الميتة .. عادوا يكرون على جيش سميراميس بفيلتهم الحقيقية التي تمرست بالحروب وخبرتها ..

وانهار جيش « سميراميس » .. وفر الرجال والجمال في اضطراب لم يكن بعده سوى الهزيمة ...

اما هي .. فقد اصابها سهم من يد الملك الهندي ، جعلها تسرع مع فلول جيشها المقهور الى عبور نهر السند مرتدة الى بلادها .. ولم يتبعها الملك الهندي بجيوشه إذ حذره كهانه من العبور ..

وتم الصلح على تبادل الأسرى .. وعندما عادت سميراميس الى آشور .. لم يكن يحيط بهـا من الجيش الذى خرجت به من قبل .. سوى الربع أو أقل قليلا .. !

وفى عاصمتها احست سميراميس خيوط مؤامرة جديدة .. فقد كان ابنها ميناس قد ضاق بخمول ذكره امام عظمة امه وسلطانها .. فملأته الغيرة .. وطمع في الحصول على ازمة الأمور .. !

شعرت سميراميس بما يدبره ولدها .. وارادت ان تجتذبه اليها وتتدارك امر نفسها فتزوجته . لكن هذا الزواج لم يجدها نفعا .. فقد لبث ميناس يحوك لهـا المكائد والدسائس حتى احست كأنهـا محصورة فى مصيدة .. !

واتعبها الجهد .. ولم تجد أمامها إلا أن تتنازل عن العرش لولدها ميناس .

وخلعت سميراميس التاج الذى كسبته بالدم .. وخرجت من عاصمتها ـ بابل ـ التى شيدتها أيام مجدها .. لتعود الى البادية التى تلقتها وليدة من قبل .. وهناك عاشت منبوذة وحيدة .. كأنها لم تكن ذات يوم شيئا مذكورا .. !

ولم تطق « سميراميس » صبرا بعد .. فرفعت يديها الى السماء تطلب من الاله بيلوس أن يأخذها اليه ...

واستجاب لها رب الارباب .. فحولها إلى حمامة بيضاء ، رفرفت لتطير الى السماء ومن حولها غمامة هائلة من حمائم أخرى بيض ، تماما كتلك التى ربتها ورعتها ذات يوم ...

وهناك .. عاشت سميراميس .. كواحدة من ربات آشور وبابل .. وعبدها أهل الأرض تماما كما يعبدون أهل السماء .. !





كانت الآلهة هي الشرطة الخفية للدولة البابلية التي عاشت منذ خمسة آلاف سنة على شواطئ دجلة والفرات .. والتي سارت حضارتها جنبا لجنب مع حضارة الفراعنة . غير أن آلهة بابل كانوا أكثر عددا من آلهة مصر .. حتى لقد بلغ عددها في احصاء رسمي ٦٥٠٠٠ اله ، اذ كان لكل قرية اله يحرسها . ولم يكن الآلهة يعيشون بعيدا عن الأعين .. فلقد كان معظمهم يعيشون على الأرض في الهياكل ، يأكلون الطعام الذي يشتهونه ، ويزورون الصالحات من النساء في اثناء الليل . فيمنحونهن أطفالا لم يكن أهل بابل الصالحون المجدون يشعرون أن يرفضوا أبدا .

غير أن الناس مع كل ذلك كانوا يؤمنون بإله أكبر .. هو أعظم الآلهة جميعا ... ثم انتصر الإله « مردوخ » على كل الآلهة .. وستبان هو كبيرهم .. وعلى يديه خلقت البشرية .. وجرى الطوفان .. !

لم يكن هنالك سوى « ابسو » الفضاء المظلم .. و « تيامات » المياه التي لا تحد ، لا سماء ولا أرض ، لا آلهه ولا بشر ، لا شيء من ذلك أبدا سوى الفضاء المحيط ، ابي كل شيء ، والمياه الممتدة الى ما لا نهاية .. بكل ما فيها من اضطراب وفوضى . تضرب كلها الاطناب ، وتخرج ـ من بعد ـ كل شيء حي .. !

ولم تكن المياه قد تشكلت بعد في محيطات



ورفع مردوخ شبكته الهائلة والقى بها في قوة الى حيث وقفت تيامات . ثم اطلق على فمها ريحا صرصرا عاتية

وبحار ، أو بحيرات وأنهار . بل كانت كلها شيئا واحدا ، واسعا الى غير حدود ، عميقا الى اللانهاية .. اما المستقبل ، فما كان يبدو منه شيء قط .. لا شيء سوى ظلمة اخرى حالكة .. اشد سوادا من اعماق الليل نفسه .. !

وتعاقبت الأزمان ، حتى جاء زمن اختلط فيه الماء بالفضاء ، ومن اختلاطهما خرجت أشياء أخذت تنمو وتتخذ لها أشكالا عديدة غريبة . ثم ظلت ترتفع حتى استقرت في أعلى . وكان منها كل آلهة النور .. وأطلت « تيامات » إلى المخلوقات الجديدة ! وملأها الفزع .. فما كانوا قط من طينتها ،

ولا تشتكوا أبدا بأفعالها . فهي لم تكن تعرف في حياتها سوى الظلام والفوضى والاضطراب . أما الذين يعيشون في أعلى .. بلا يريدون غير النور والنظام والاستقرار . وكان هذا أمرا تحس بالمرارة .. بل كان هذا كله أول أسباب الحقد والكراهية والعداوة على آلهة النور ..

وقررت « تيامات » أن تتخلص من المخلوقات الجديدة .. وأن تشن عليهم حربا لا هوادة فيها قط ..

وظلت تيامات تعمل بلا انقطاع .. فمن جوفها جاءت الوحوش المخيفة المخربة ، وانطلقت الثعابين المهولة ذات السم .. وعلى سطح الماء برزت رؤوس التنانين ، بهيئة تثير الرعب ، وخرجت الكلاب مفترسة لا مثيل لوحشيتها ، والعقارب مخيفة سوداء كالمردة . ومن كل مكان انطلقت حيوانات أخرى كمخلوق شرير مجنونة .. لتتحرك تحت إمرة الوحش « كنجو » العملاق ، الذي وعدته تيامات بالزواج واعطائه ملك كل شيء ، إذا تغلب على آلهة النور ، وسحقهم بذراعه القوى الجبار ..

وفوجىء الآلهة بعدوان تيامات . وكان أول من عرف نواياها هو الإله « آي » الذي ساق الخبر إلى الآلهة « انصار » . وعجب هذا لموقف تيامات ، وامتلأ قلبه حنقا وسخطا ، يختلط بالخوف والرهبة مما قد يحل بمجتمع الآلهة . وانطلق انصار إلى « الإله أونو » فكلفه الذهاب إلى تيامات يسألها عن سر تحديها للآلهة .. !

وانطلق أونو الى مملكة تيامات ..

غير انه ما كاد يقترب ، حتى نهض له « كنجو » .. الوحش المارد المستلقى إلى جوار تيامات ، وهاجمه في شدة وعنف وجنون . وتوقف أونو ، ثم حرك قدميه إلى الخلف ، ثم أدار ظهره ، ثم ولى الأدبار هاربا يجرى من مواجهة الحيوان الصاخب المهول ..!

وتوالت مواكب الآلهة واحدا في إثر آخر ، لمقابلة تيامات .. ولكن أحدا منهم لم يستطع الوصول إليها أو مناقشتها . ولا عرف أحد منهم كيف يبحث معها سر ذلك الغضب العنيف .

وجلس الجميع ذات يوم يبحثون الأمر . وكان بينهم الإله « مردك » الذي لم يكن قد جرب حظه مع تيامات من قبل . ومن خلال الفشل الذي منى به الجميع ، اطلوا إلى « مردك » وطلبوا منه ان ينازل الالهة المتوحشة . وبغير ما خوف ، انحنى لهم مردك .. وقد قبل النزال بشرط ان يقر له الجميع متى انتصر بانه هو الاقوى .. ولا احد أقوى منه .

ولم يكن أمام إلهة النور بد من القبول .. ومنح مردك السلطة السماوية الكاملة ليكون له حكم الكون كله ..!

* * *

اراد مردك — قبل ان يمضي لمصارعة تيامات — ان يجرب ما لديه من فنون القوة . وأتى الاله برداء طويل ألقاه أمام كل الالهة .. وتلا بضعة تراتيل لم يكد ينهيها حتى اختفى الثوب وتلاشى . واخذ بالآلهة العجب وطلبوا منه أن يعيد الرداء كما كان . وعاد مردك يتلو تراتيله فاذا الرداء يعود ، ويمتد في نفس المكان الذى كان قد تلاشى فيه .

واقتنع مردك بان احدا من الآلهة لم يعد له مثل قوته وسلطانه . فقرر البدء في رحلة الانتقام .

وانتفض مردك وهو ينهض ليبدا الصراع الجبار . فبدا وانما وهو يتحرك ومن امامه تبرق البروق ، ومن فوقه ترعد الرعود ، والقوس الضخم فوق ظهره ، والرمح الثقيل في يده ، والشبكة الهائلة التى قرر ان يصطاد بها الوحش كنجو الرهيب يجرجرها خلفه . لقد كان الاله المنتقم قد أعد عدته للكفاح ، ولم يعد هناك سوى ان يلتقى بروح الشر في جسد تيامات ..!

واستمر الاله مردك يقود مركبة القدر ليصل إلى حيث تجرى المعركة . وعند ما وجد انه قد اقترب من المكان ، نطق كلمة واحدة ، فاذا ريح مروعة تجرى أمامه ، وإذا الريح تتحول فتصير عواصف وزوابع وأعاصير ، تتجمع كلها لتكون سلاحا في يد مردك ، سلاحا أقوى من اى سلاح يمكن أن يحمله إله ...

واطلت الحيوانات المهولة فاذا كل شيء قد انقلب ، وإذا نور ينبع من خوذته يخطف الابصار ، فهرعت تختفي في أعماق الظلمة ، وأفواهها من الخوف ترسل الزبد ..!

واستمر مردك ، مصحوبا بكل دعوات آلهة السماء ، في طريقه المرسوم .

وبلغ مملكة تيامات . واطل فاذا وحش مهول في شكل تنين مخيف ، يحاول النهوض من استلقائه ، ومن عينيه ينطلق بريق مخيف ، ومن منخاريه يندلع لظى اللهب . وفتح التنين فمه

فاذا به كجهنم .. النار تغلي فيه ، والاصوات المرعبة ترعد وتدوى ، ولا تسكت أبدا .

وتوقف مردك فى مكانه . وزعق يخاطب تيامات من بعيد .. ويطلب منها أن تجنح إلى السلم ، وتبعد عن رأسها فكرة العدوان .

وقهقهت تيامات وهى تهتز . ثم سلطت فى سرعة على عدوها أقوى ما عرفته من تعاويذ السحر وأشدها أثرا ..

ولكن مردك كان قد أعد العدة لابعاد السحر عنه .. وفى لحظة ، رفع شبكته الهائلة وألقى بها فى قوة إلى حيث وقفت تيامات .. واندفعت الآلهة المهولة إلى الخلف ، ولكن الشبكة أمسكتها ، وجذبها الاله إليه ثم أطلق على فمها ريحا صرصرا عاتية .

ودخلت الزوبعة عنيفة بين فكى تيامات .. واخترقت الحلقوم لتدخل فى بطنها الذى ظل ينتفخ وينتفخ .. وعندما بلغ آخر درجات الانتفاخ ، رفع مردك رمحه الضخم وطعن البطن المنتفخ . فانفجر فى صوت صاخب كالرعد . وسقطت تيامات ميتة ..!

عندما انتهى مردك من قتل تيامات ، وقف فوق جسدها ، ثم قطع قلبها الشرير فألقى به فى الفضاء الأسود . ثم تحول إلى التنين الهائل فقضى عليه .. أما وحوشها الأخرى ، وتوابعها السود ، فقد أخذوا يصرخون وهم يحاولون الفرار ، ولكنه لم يمهلهم بل أخذ يلقى عليهم شبكة تصطادهم واحدا فى إثر آخر . ووقعوا كلهم فى الأسر .

وانحنى مردك على جثة التنين فأخذ منها حبوب القضاء والقدر التى أعطتها له تيامات المذبوحة ، تلك الحبوب التى تمنح النفوذ والسلطان — لكل من يحملها .. على المصائر والأقدار .

وحملت رياح الجنوب دماء تيامات إلى أماكن سرية مجهولة ، حين كان مردك قد انحنى من جديد على جثتها ، وشقها جزءين مستطيلين : رفع أحدهما ليكون السموات .. وخفض الآخر ليكون الأرض ..!

وعند ما انتهى مردك من رفع السماء ، نثر على صفحتها الكواكب لتضىء ، ولتجرى فى طريق منتظم مرسوم .

وعند ما أضاء مردك السماء .. جعلها مكانا لاقامة الآلهة « أونو وبعل وآى » أما الآلهة الآخرون فقد قسم عليهم الكواكب ، ليكون كل كوكب بيتا



وأقام شمس نيشتين مذبحا .. وقدم عليه القرابين السكر وانطلق دخان البخور فارتفع الى حيث يجلس الآلهة

لاله . ثم قسم السنة وجعل لكل شهر ثلاثة كواكب . كما جعل لاله القمر حكم الليل وإضاءته . ومنحه كل شهر يوما يستريح فيه . أما الشبكة الهائلة التى صحبته فى معركته مع تيامات ، فقد جعل لها كوكبا ومعها القوس .. وأما الرياح التى ساعدته فى القضاء عليها ، فقد جعل لكل منها كوكبا جديدا .

وإذ انتهى مردك من إقرار كل إله فوق كوكبه ، وضع نفسه هو الآخر فى كوكب كان أكبر من كل الكواكب الأخرى وأضخم .. وجعله المصدر الرئيسى للنور فى صفحة السماء ..

غير أن مردك لم ينس الأرض عند ما كان يرفع صفحة السماء .. فقد كانت الأرض التى وضعها فى حاجة هى الأخرى إلى معجزة .

وأطال مردك وهو يفكر . لقد كانت الآلهة فى حاجة إلى من يصلى لها ويعبدها ..

وإذن .. فلتكن المعجزة هى خلق الانسان ..

وانحنى مردك على الأرض ، وشرع يعجن التراب بدمائه ، ويصنع من الطين ناسا تقوم على خدمة الآلهة ، والصلاة لهم وعبادتهم ..

وهكذا خلقت البشرية ..!

❋ ❋ ❋

عمرت الأرض بالمخلوقات الجديدة وطفق البشر

يتزاوجون ويتناسلون ، ويقيمون الصلاة للآلهة التي خلقتهم وسوت لهم الأرض وقدمت لهم النور من السماء ..

ولكن الأمر لم يكن ليستمر طويلا على منوال واحد .. فاذا القوم كلما ازداد عددهم تنافروا وتنازعوا ، وإذا الصلوات تقل والعبادة تنهار ، والشر يدخل كل يوم من حيث خرج الخير .. واصبح الخلق غير الخلق .. والناس غير الناس . وظهرت على الأرض سلسلتان من البشر تسيران فى خطين متوازيين .. إحداهما لاتزال متصلة بالآلهة .. اما الأخرى فقد قطعت كل صلاتها بهم ، ولم يعد امام أصحابها من هدف سوى الوصول إلى اللذة من اى طريق .

وامتلأت الأرض بالشر ..

واطل الآلهة من عليائهم وملأهم الحزن ..

إن الانسان لم يعد هو الانسان الذى خلقه مردك .. وجعله صورة منه كريمة بريئة طاهرة ..

وغضبت الآلهة على مخلوقات الأرض .. وكان اكثر الكل غضبا الاله مردك ، الذى قرر ان يرسل طوفانا عارما ليهلك البشر ويمحو به آثار اعمالهم العامرة بكل ما هو سيء وخبيث .. !

غير أن آي .. إله الحكمة ، اخذته الشفقة على البشر ، واعتزم أن ينجي منهم على الأقل رجلا وامرأة .. يحفظان سر الخلق .

وكان « شمس نيشتين » وزوجته هما اللذان وقع عليهما اختيار الاله ..

وفى ذلك اليوم .. وبينما كان شمس نائما ، جاءه صوت الاله فى الحلم يقول :

— إنهض يا إبن « أوبارا توتو » .. يا من اطعت الآلهة ، وحفظت لهم العهد الذى وضعوه فيك .. انهض فاهدم بيتك ، واصنع من الخشب فلكا ضع فيه كل ما تحتاجه لحياتك .. وخذ معك حبة حية من كل شيء ... نحميهما كما نحميك من الطوفان الذى سيحل على الأرض التى امتلأت بالشر والفساد والطغيان ..!

وصدع « شمس نيشتين » باوامر الاله ..

ومع مطلع النهار نهض من نومه ليهدم بيته ، ويبنى من الخشب فلكا ضخما ..

واستخدم شمس عددا من العمال واخذوا يعاونونه ويشقون له الالواح ، حتى إذا ما انتهت ايام سبعة ، كان الفلك قد نهض قائما على الأرض كاحسن مايكون الفلك ، وقد ضم بين جنباته كميات كبيرة من الخمر والزيت ، واكوام من حبوب حية من كل نبت ظهر على الأرض ، وزوجين من كل حيوان أو طير جرت فى عروقه الحياة .

واطل شمس إلى فلكه وامتلأ رضا .. لقد كان طوله يصل إلى ١٢٠ ذراعا وارتفاعه ١٢٠ اخرى . وكان مقسما إلى ستة طوابق كل طابق مقسم إلى تسع غرف .. اما سطحه الخارجى فمدهون بالقطران ، وسطحه الداخلى بالقار .

وعرف شمس من إلهه ان عليه الدخول فى فلكه وإغلاقه ، متى ظهرت الاشارة المتفق عليها .. وهى مطر غزير يسقط من السماء ..

ومرت أيام .. وسقط المطر مدرارا ..

لقد اتت الساعة ..!

وانطلق شمس نيشتين إلى الفلك ومعه زوجته وابناؤه .. ومن خلفه اغلق الأبواب ..

ومرت بالافق سحابة سوداء غطت كل الأرض .. يسوقها الاله رامان مطلق الرعود ، وتمسك بسكانها الالهة « آورجال » .. ومن خلفهما الالهان « نابو » «ومردك» .. يفتحان للمطر كل طاقات السماء .. !

واطبقت العاصفة والظلام على الأرض .. وراح الناس يتساقطون غرقى وصرعى .. حتى الذين ركضوا يطلبون النجاة فى الأقبية والغرف ذات السقوف ، ما استطاعوا أن يجدوا تحتها منقذا من الطوفان .. ولا الذين لجأوا إلى قمم الجبال ، فقد طغت المياه وارتفعت حتى اختفت كل الجبال التى تحت السماء ..!

واستمر الطوفان ستة ايام .. كان فيها الكفاية لتطهير الأرض من كل من فى انفه نسمة حياة .. من إنس وطير وبهائم ووحش .. ولم يعد هناك سوى شمس .. وكل من حل معه فى الفلك الأمين ..

وجاء اليوم السابع .. فهدأت الأمطار ، وانسدت ينابيع السماء .. وبدأت المياه تنجاب عن الأرض ..

واطل شمس نيشتين من طاقة فى الفلك لم يصرخ عاليا .. لقد كان الناس جميعا غرقى فى الطين ، وحيث كانت تمتد الحقول ، ظهرت هناك مستنقعات وبرك .. لم يكن هناك شيء حي .. وكل العالم لم يعد يظهر منه سوى بحر مهول مغلاق .

وظل شمس يبكي ، والفلك يسير على سطح الماء فى اتجاه التيار ، ينخفض ويرتفع والمياه تتناقص من حوله شيئا فشيئا .. حتى إذا مامضى اثنا عشر يوما ظهرت الأرض من بعد ..

ورسا الفلك على الأرض التي ظهرت ، في قمة جبل نازير ..

وأرسل « شمس » غرابا يستطلع حال الأرض .. ولكن الغراب برغم أنه لم يجد مكانا يحط عليه ، إلا أنه انشغل في نهش الجثث الكثيرة المستلقية ، ولم يفكر في العودة إلى الفلك ..

وانقضت أيام سبعة أخرى ..

وأرسل شمس عصفورا .. ولكن العصفور ظل يطير من مكان إلى مكان فلا يبصر شجرا أو أرضا جافة ، ولم يجد مستقرا لساقيه فاضطر آخر اليوم للعودة إلى الفلك ..

وانقضت أيام سبعة ثانية ..

وأرسل شمس يمامة .. ظلت تطير وتطير باحثة عن مقر تحط عليه فلا تبصر أرضا جافة .. ولكنها ما تكاد تفكر في العودة حتى تبصر أشجارا خضراء ، فتحط عليها ، ثم تحمل في منقارها ورقة من غصن الزيتون تعود بها إلى الفلك ..!

وابتهج شمس .. وعرف أنه الفرج ..

وفتح أبواب الفلك ، وخرج ومعه حاجاته وعائلته ، وكل الأزواج المنتخبة من حيوان وطيور ..

وفي اللحظة التي لمست أقدامهم فيها الأرض ، انكفأ شمس على وجهه وخر ساجدا .. ثم بنى مذبحا وقدم عليه قرابين الشكر .. من أعواد القصب والبخور ..

وانطلق دخان البخور العطر فارتفع حيث يجلس الآلهة ..

وشمت الآلهة الرائحة الزكية فتجمعت .. ثم راحت تتجمع كالذباب حول القربان .

وبين الجميع .. كانت هناك إشتار ـ ربة الحب والربيع ـ التي رفعت قلادتها الآلهية تحيي بها صاحب القربان .. ثم قالت :

ـ باسم جواهري الالهية التي تحيط بعنقي ، لن أنسى هذا اليوم أبدا .. سأضمه دائما في ذاكرتي ، وسأذكر به كل الآلهة الذين يحيطون الآن بالقربان .. حتى مردك .. مردك الذي لا يريد أن يقترب من قربان الانسان .. ورفض من قبل أن يجمع مجمع الآلهة يستشيرهم ، وأرسل الطوفان يقضي به على عبيدي المخلصين ويسلمهم للهلاك والدمار ..

والحق أن مردك لم يكن بعيدا عن القربان .. فقد كان يقترب منه هو الآخر ، ويتعجب غاضبا المخلوق الفاني كيف نجا من الطوفان .. ويقسم أن لابد من قتل شمس ..

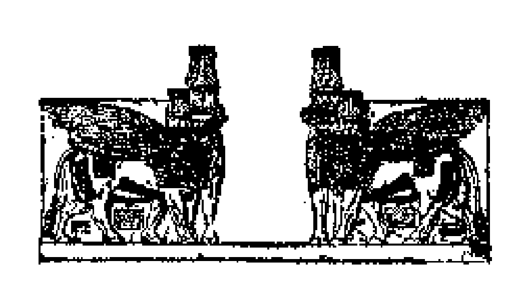
ووقف الإله آي .. الذي كان قد أوحى إلى شمس ببناء الفلك فأنقذه .. وقف يدافع عن المخلوق الفاني الذي أخلص للآلهة ولم يحقد عليها ، بل كان أول ما فعله حين وضع قدمه على الأرض أن قدم لها القرابين .. وانتقد آي مردك الذي لم يستشر الآلهة عندما اتخذ قراره المدمر لمخلوقات الأرض ..

واستسلم مردك آخر الأمر .. واقترب من القربان .. ثم أخذ بيد شمس وزوجته وباركهما .. وبنى لهما مستقرا جديدا عند مداخل أنهار الأرض ..

وعادت الآلهة إلى السموات .. ولكنها لم تنس قبل عودتها أن تكافئ شمس الذي قدم لها القربان .. وحفظ لها الجنس البشري ..

ومنح شمس سر الخلود .. ورفع إلى مرتبة الآلهة .. وأصبح عليه أن يقيم في مستقره عند مدخل الأرض حتى الأبد .. لا يغادره إلا في رحلة يومية طويلة يرافق فيها موكب مردك ، ليشرف على أبنائه البشر الذين ينطلقون في الأرض ليعيدوا إليها المجد والحياة .. ثم يعود آخر اليوم إلى مستقره ، ليستأنف مع الصبح رحلته الطويلة الخالدة من الشرق إلى الغرب ..

وانطلقت البشرية تحيا من جديد ..



أسطورة بابلية



تعد ملحمة جلجميش أشهر الملاحم البابلية . وتتألف فى أصلها من طائفة من القصص غير الوثيقة الاتصال ، نسب بعضها الى بعض فى عهود مختلفة ترجع الى ما قبل المسيح بثلاثة آلاف عام . وكان جلجميش بطل هذه القصة حاكما أسطوريا ينسبونه شمشون ، واستطاع الاطلاع على جميع أسرار الكون .. وجاء بأخبار الأيام التى سبقت الطوفان . وسار فى طريق بعيد شاق .. ثم كتب على لوح حجرى كل ما قام به من أعمال كانت من أصل هذه الأسطورة .



وفى تلك اللحظة أطلت اشتار .. وراحت ترنو اليه بعينيها الكبيرتين ..!

كان جلجميش .. حاكم أوروك — جبارا فى الأرض . وكان سعيدا بقامته الممتدة العملاقة ، وجسمه الضخم المملوء بالعنفوان ، وجماله الباهر الذى يفتن الناس ..

وكان ثلثاه إلها وثلثه آدميا . فهو من نسل شمس نيشتين ؛ المخلوق الخالد الوحيد الذى نجا من الطوفان . ولم يكن أحد يشبهه فى صورة جسمه ، واطلاعه على أسرار الغيب ، ورؤيته جميع الأشياء ولو كانت فى أطراف العالم المجهول ..

وكان فى قلبه شوق ظامىء إلى الحب .. وبسبب مغامراته لاطفاء ظمئه الدءوب ، راح الآباء والأزواج يشكون كل يوم لربة الحب والجمال « اشتار » كيف أن جلجميش لا يترك زوجة لزوجها ولا عذراء واحدة لأمها .. ويطلبون منها حمايتهم وحماية زوجاتهم وعذاراهم .

واستجابت إشتار لتوسلات الخلق ..

وذهبت إلى الالهة أرورو — عرابة جلجميش — ترجوها أن تخلق ابنا آخر فى قوة جلجميش وجبروته ، يكون قادرا على أن يشغله فى نزاع طويل ، حتى يستريح بال الأزواج والآباء فى كل أنحاء أوروك ..

وقبلت أرورو رجاء اشتار .. فعجنت قطعة من الطين تفلت فيها ، ثم صورت « انجيدو » ..

وكان انجيدو رجلا له بأس الخنزير .. ولبدة الأسد ، وبأس الطير . وكان جسده يغطيه شعر كثيف .. وفوق كتفيه ينسدل شعر طويل كامرأة .. ذهبى كشعر إله القمح .

ولم يكن انجيدو منذ خلق ليعبأ بصحبة ابنــاء البشر . بل اعتزلهم وابتعد عنهم .. ثم عاش مــع حيوانات الغاب ، يرعى العشــب مع الظباء ، ويلعب مع مخلوقات البحر ، ويروى ظمــــاه مع وحوش الحقول ..

وذات يوم أراد صياد يدعى تسابادو اقتناصــه بالشــالو ، غير أنه عجز عن اقتناصــه ، وكرر الصياد محاولته يوما بعد الآخر .. ولكن انجيدو كان بارعا دائما في الافلات منه .

وملأ الغيظ قلب الصياد . وانطلق إلى الحــاكم جلجميش يشرح له الأمر .. ويقول له إن انجيدو لن يقع في الشباك المصنوعة قط . ولكن شباكا اخرى تستطيع وحدها ان تقتنصه .. هي شباك النساء ..!

وقال له جلجميش :

ـــ وما الذى تريد منى ؟ المرأة أم الشباك ؟

قال له الصياد :

ـــ إن انجيدو يدعى انه اعظم منك قوة ، وانا اريد ان احضره هنا امامك ، لتثبت له أن قوته هى الضعف نفسه بجوار قوتك .. ولهذا فانا اتوسل اليك ان تعيرنى كاهنة حسناء ، تستطيع إيقاع انجيدو فى شباك غرامها .. لتقوده إليك ..!

وقال جلجميش :

ـــ اذهب إذن أيها الصــياد وخذ معك الكاهنة « اخوتى » .. وعنــد ما تحضر الوحوش ومعها انجيدو إلى مورد الماء تستقى اجعلها تكشف عن وجهها وساقيها ، واختف انت .. وســيتم بعــد ذلك كل ما تريد ..!

وانطلق الصياد والكاهنة « اخوتى » إلى حيث يستقى انجيدو مع صحبه من الوحوش .

وعند ما جاء الوحش الآدمى .. مدت الكاهنة الحلوة يدها ، وشرعت تخلع ارديتها واحدا بعــد آخر . ثم وقفت أمامه عارية ، فى جسدها رعشات ظامئات .

وادار انجيدو رأسه ناحية الحسناء وتوقف .. ثم بدا يختلس إليهــا النظر فى شوق ولهفـــة .. واشتعل فى أعماقه لهيب النار ..!

وحث الصياد من مخبئه الكاهنة اخوتى على أن تقترب من انجيدو .. وتمنحه كل ما ينسيــه نفسـه .. واصدقاءه .. وغابته ..!

وبقى انجيــدو مع الكاهنة ســتة أيام وســبع ليال ، يعب فيها الســعادة . حتى إذا جاءه الملل وانتبه إلى نفسه ، أطل فاذا كل حيوان الغابة من اصدقائه قد انفضوا من حوله .. وتركوه ..!

وملأ الحزن قلب انجيدو .. غير ان الكاهنــة ظلت تهزه وتقول :

ـــ أنت يا من بلغت عظمة الآلهة .. كيف يطيب لك العيش بين وحوش الغابة ونســائها . تعال معى ننطلق إلى مملكة أوروك حيث يعيش جلجميش الذى لا يدانيه احد فى جبروته . تعــال معى أقــدك إلى القصر الرائع الذى يعيش فيه الاله أونو والآلهــة إشتار .. يمنحانك سر القوة .. وسر العنفوان ..!

ووجد انجيدو العرض مغريا . وبدا يتشــوق إلى لقاء جلجميش . فأعلن موافقته على اتباع المرأة إلى مدينة أوروك .. وقال لها :

ـــ تعالى بنا إلى حيث ارى المكان الذى يعيش فيه جلجميش .. اقاتله .. واهزمه .. واظهر له قوتى وعنفوانى ..!

وسار الثلاثة فى طريقهم إلى أوروك .. اخوتى .. وانجيدو .. والصياد ..!

* * *

فى ذلك الوقت كانت أوروك تحتفل بعيــد « اشتار » .. وكان الناس يصخبون ويضجون ويشربون عندما بلغهم نبأ وصول انجيدو .. منافس جلجميش ..

وزاد رقص النــاس ، وابتهــاج الآلهة .. فقــد سرهم أن يتهزم جلجميش .. ســارق الزوجات والعذارى .. وان يهبط من العرش الذى دنسه ..

والحق ، لقد كان لانجيدو من القوة ما يستطيع ان يهزم به جلجميش . غير أن شيئا آخر كان قــد جــد فى الأمر .. فقــد كانت اشــتار قــد رأت جلجميش .. فأعجبها .. وقررت أن تمنع الصراع الوحشى الذى كان عليــه أن يخوضه . وبدت لانجيدو فى الحلم تهمس فى اذنه أن جلجميش أكثر منه قوة .. وخير له ان يركن إلى الحكمــة .. وان يبتعد عن الصراع ..!

ومع جلجميش حدث الشيء نفسه .. بدا له كان امــه قد جاءته فى الحلم تحذره من منازلة انجيدو ، وتطلب منه أن يكونا أصدقاء ..

وقد كان .. والتقى من أريد لهمــا أن يكونا عدوين ، فاذا بهما يصبحان صديقين وفيين .. وإذا بهما يسيران كل يوم جنبا إلى جنب .. يحميان أوروك من هجمات « عيلام » ويعودان معا ظافرين بعد ان يقوما بأمجد الأعمال ..!

غير أن انجيدو لم يطق حيــاة المدينة طويلا ..

ويفا يضيق بها ويتمنى الرجوع إلى الغابة حيث كان يعيش . وظهر له في الحلم طيف شمس نيشتين .. واخذ يحبب اليه البقاء في الارض ويهديه الى الارباح التي تعود عليه من الحياة فيها ..

وقال له شمس :

ـــ إن جلجميش صديقك واخوك .. وسيمنحك فراشا ضخما تنام فيه ، ومقعدا كالعرش إلى جانبه الايسر .. وسيجعل كل ملوك الأرض يركعون تحت قدميك إعجابا وتقديرا ..!

واطاش الاغراء رأسه .. واقتنع بالبقاء الى جوار جلجميش .. ولم يعد يشكو بعد وجوده في مملكة أوروك ..

وحتى جلجميش .. سره وجود انجيدو الى جواره .. واعلن أن السلام قد حل .. وخلع عدة الحرب ولبس الثياب القدسية البيضاء ، وزين نفسه بالشارة الملكية .. ولبس التاج ..!

وفي تلك اللحظة اطلت « إشتار » .. فراعها جماله وجبروته .. وراحت ترنو إليه بعينيها الكبيرتين وتقول له :

ـــ تعال يا جلجميش وكن لي زوجا .. تعال نتبادل كئوس الهوى والحب ، أضعك في عربة من لازورد وذهب .. لها جوانب مطعمة بالعقيق .. وتجرها لك سباع سبعة ، وتدخل بيتنا وحولك البخور المنطلق من خشب الصندل .. تعال امنحك السلطان .. واجعل قدميك تحتضنان كل الأراضي المجاورة للبحر .. واحني رءوس الملوك كلهم سجدا لك ويأتوك بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها صاغرين ..!

غير أن جلجميش كان يعرف إشتار .. وكان يعرف لها قصصا عنيفة مخيفة .. فهز رأسه وهو يقول :

ـــ انت خائنة يا إشتار .. ولن يطمئن راسي فوق كتفي اذا انا آمنت بحبك واستسلمت لعنون عشقك .. !

قالت إشتار :

ـــ وما الذي تعرفه من خياناتي يا فتى ..!؟

اجاب جلجميش :

ـــ إن الجميع هنا يتحدثون عما فعله عشقك الخائن بكل من وقع في شباك غرامك .. احببت النسر ثم قصصت جناحيه . وعشقت الحصان حتى نفق .. وملأت كئوس الحب للأسد حتى فقد لبدته ..

وقاطعته إشتار :

ـــ ولكن هل سمعت عن تضحياتي في سبيل من اعشق واحب .. هل سمعت عن قصتي مع حبيبي تموز ..!؟

وهز جلجميش كتفيه .. وشرعت إلهة الحب والجمال تقص عليه القصة ..

❊ ❊ ❊

كان تموز .. الفتى الراعي المملوء بالفتوة .. من نسل الاله العظيم آي .. ولقد شاهدته إشتار ربة الحب والجمال وهو يرعى غنمه تحت شجرة « إريد » المقدسة التي تغطي بظلها الأرض . فشغفت به حبا .. واختارته زوجا لها وهي في إبان الشباب ..

وعاش الحبيبان أمدا طويلا في قصة حب ندية رائعة ، لم تشهد مثلها السماء قط . حتى كان يوم خرج فيه تموز يرعى غنمه .. وإذا بخنزير برى يهاجمه ويطعنه في مقتل .. فهوى تموز كما يهوى الموتى إلى « أرالو » الجحيم المظلم في العالم السفلي ..!

وكانت الالهة « أرشكجال » اخت إشتار هي التي تحكم مملكة أرالو الممتدة في اعماق الارض . إلا انها كانت تغار من اختها وتمتلىء لها حسدا .. فما كاد الفتى يهبط إلى مملكتها حتى احكمت إغلاق الابواب .. واقسمت الا يعود إلى الأرض حيا قط ..!

والحق ان إشتار كانت قد قررت ان تهبط إلى أرالو في محاولة يائسة لاسترداد زوجها الحبيب .

وانطلقت إشتار في رحلة طويلة قاسية ، مرت خلالها بألوان مخيفة من الاخطار .. حتى بلغت ابواب أرالو .. وطلبت الاذن لها بالدخول .

وسمعت أرشكجال طلب اختها إشتار .. فأمرت خازن النار الا يفتح لها الابواب ابدا ..

وصرخت إشتار غاضبة .. واخذت تدق ابواب أرالو .. تهدد وتتوعد .. وتقسم ان تحطمها وتسحق اقفالها وقضبانها إذا لم يسمح لها بالدخول .

وامتلأ حارس الأبواب رعبا وفزعا . واسرع إلى أرشكجال يتوسل إليها أن تتقدم بالسماح لاختها بالدخول ..

وبرغم المرارة والحقد اللذين تكنهما ارشكجال لاختها .. فقد اضطرها الأمر ان تخفي ما يعتمل في اعماقها امام الحارس .. وسمحت له بفتح

الأبواب .. غير أنها منعته ما أذنت له .. قالت إن هذا الإذن لا يمنع أن تعامل أختها بما يقضي به قانون الآلهة .. الذي يحرم دخول أرالو .. إلا للعراة ..!

وسمح حارس النار لإشتار بالدخول . وأخذ يخلع عنها جزءا من ثيابها وحليها عند كل باب تجتازه من أبواب مملكة الظلمات .

ولم تغضب إشتار .. فقد كان حسبها الوصول إلى حيث وضع تموز .. ولا شيء بعد ذلك ..!

وعند الباب الأول خلع الحارس من إشتار تاجها ، وعند الباب الثاني خلع قرطيها .. ثم عقودها .. ثم قلائدها .. ثم منطقتها ذات الجواهر المقدسة .. ثم رداءها المزركش البراق الذي يغطي يديها وقدميها ..

وبرغم كل ذلك فما اكتفى الحارس .. بل طلب منها قبل اجتياز الباب الأخير أن تخلع آخر الأثواب .. وتمنعت إشتار أول الأمر في رقة .. ثم خضعت له واستسلمت ..!

وهبطت إشتار عارية إلى أعماق أرالو ..

وفتحت أرشكيجال عينيها في غيظ وحقد .. لقد كانت أختها فتانة خلابة رائعة .. أما هي فدميمة قبيحة عرجاء .. من حقها أن تنزل بأختها غضبها ونقمتها ..!

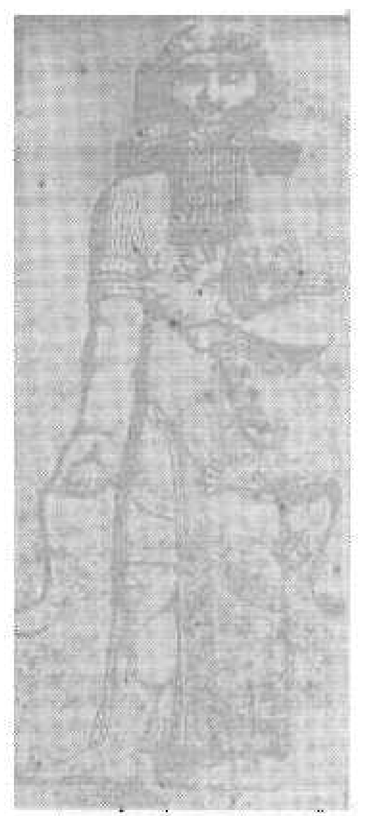
واتتفضت أرشكيجال وهي تصدر أمرا جديدا لرسولها « نمتار » :

— اذهب يا نمتار واسجنها في قصري .. وسلط عليها ستين مرضا .. مرض العيون على عينيها .. ومرض الجنب على جنبيها .. ومرض الأقدام على قدميها ، ومرض القلوب على قلبها .. ومرض الرءوس على رأسها .. سلط كل ما نعرف من الأمراض على كل جزء من أجزاء جسمها البغيض ..!

ونفذ نمتار أمر مولاته ..

ووجدت إشتار نفسها داخل سجن أختها .. وفي كل عضو من أعضائها مرض خبيث .. !

ونظرت إلى الأرض بعينيها .. فما وجدت فوق ظهرها أثرا لإشتار ربة الحب والجمال والربيع .. وشعرت الأرض أنها فقدت كل ما كان يوحيه وجود إشتار .. فنسيت جميع الفنون وطرق الحب . ولم يعد النبت يختلط بالنبت .. فقطت الخضر .. ولم تشعر الحيوانات بحرارة الرغبة قط .. حتى



كان جلجميش سعيدا بقامته المتدة العملاقة .. وجسمه الضخم المملوء بالعنفوان

سكان الأرض من رجال ونساء .. انفصل كل منهم من الآخر .. وما عاد هناك من سبيل لانجاب جيل جديد ..!

وأخذ البشر يتناقصون . وروع الآلهة حين رأوا نقص ما يرسله لهم البشر من قرابين . واستولى عليهم الفزع حين شهدوا عددا كبيرا من الناس قد انصرفوا عن عبادتهم منذ اختفت إشتار بين قضبان السجن المقيت ..!

وكان إله الشمس هو أكثر آلهة السماء حزنا على أهل الأرض .. فذهب إلى إله الأرض آيا يبكي .. وهو يحمل إليه قصة الخراب والدمار التي حلت على كل المخلوقات .. كما يشهدها كل يوم بين الشروق والغروب ..

وحزن أيا للمصائب التي حلت بأرضه .. فخلق رسولا سماه أشوشونامير انطلق يحمل رسالته إلى أرالو .. ويطلب من أرشكيجال باسم كل الآلهة إطلاق سراح إشتار ..

وغضبت أرشكيجال عندما وصلها الأمر المقدس باسم الآلهة على لسان أشوشنو .. فراحت تصبه

وبلعته .. ثم ألقت به فالقى في جب مظلم في أعماق أرالو .. حتى يموت ..!

ومع ذلك فما كانت أرشكجال تستطيع الوقوف في وجه كل الآلهة .. فلم يمض وقت حتى أمرت رسولها نمتار بأن يطلق سراح أختها الإلهة إشتار .. :

وانطلق نمتار صادعا بأمر مولاته .. غير أنه فوجىء بإشتار ترفض الخروج من السجن ، وتقسم ألا تغادره وتعود إلى الأرض إلا إذا سمح لها بأن تأخذ معها زوجها تموز ..!

ورفضت أرشكجال .. واستمرت الأرض قاحلة تبكي ..!

وغضب الإلهة ... وأرسلوا أمرا آخر إلى أرشكجال بالإفراج عن تموز .. إجابة لطلب إشتار ... وبالرغم منها أرسلت ربة الجحيم رسولها نمتار ليصب ماء الحياة على جسد تموز .. ويطلقه خارج أسوار أرالو .. ومعه إشتار .. !

وهكذا انطلقت إشتار تجتاز وهي ظافرة ومعها زوجها أبواب أرالو السبعة .. وتتسلم عند كل باب منها ما خلعته من قبل .. ملابس ما فوق الساقين .. والمنطقة ، وحلي الصدر .. والقرطين .. والتاج ..

واطلت الأرض فإذا إشتار وتموز يعودان .. فعاد معهما النبات ينمو .. والحيوانات تكثر .. وانطلق كل امرىء يبغي الإكثار من نسله .. وجلست إشتار من جديد على عرش الحب والجمال والربيع ..!

* * *

كان جلجميش يستمع في ذهول إلى قصة إشتار وتموز .. غير أنه عندما انتهت من سرد قصتها ، هز كتفيه وهو يتذكر النهاية القاسية التي انتهى إليها تموز نفسه ، فقد سمع أنه ظل يفقد كل يوم بعض أعصابه حتى انتهى الأمر به إلى الجنون .. ومات ..!

وأقسم جلجميش أن لن يستسلم قط لغرام إشتار .. ولو فعلت به الأفاعيل .. وقال لها وهو يمضي عنها :

— إنك تحبينني الآن .. ولكنك ستقضين علي بعد ، كما قضيت على كل هؤلاء ..!

وصرخت إشتار وهي تضرب الأرض وتندفع نحو السماء ، وانطلقت في غضبها الصاخب إلى أونو الإله الأعظم تطلب منه أن يخلق من الوحوش ثورا ماردا يقتل جلجميش .. غير أن أونو رفض طلبها وهو يقول :

— ألا تستحين يا إشتار وقد ذكرك جلجميش بكل مخازيك وفضائحك وألوان غدرك ..!؟

وعادت إشتار تصرخ .. وأقسمت بتعطيل كل ما في الكون من غرائز الحب والنسل حتى يهلك كل شيء ..

وكانت ذكرى خراب الأرض لا تزال عالقة في رأس أونو .. فاضطر إلى الخضوع لإرادة إشتار .. وأرسل ثورا ضخما إسمه « آلو » لينازل جلجميش ..!

والتقى آلو بجلجميش ..

وفي خلال الصراع العنيف الذي نشب بينهما .. كاد جلجميش يسقط ميتا .. إلا أن صديقه أنجيدو سعى إليه .. وانتشله من براثن الثور الوحشي .. واشترك الاثنان معا في القضاء عليه ..

واطلت إشتار من عليائها في غضب مجنون .. فرأت الثور يحتضر .. وجلجميش يقف من فوق جسده يضرب بالرمح كل أطرافه .. وهتفت إشتار :

— ملعون أنت يا جلجميش .. يا من أغضبني أنا التي لا أغضب .. ويا من قتلت ثوري الذي أرسلته من السماء ..!

وسمع أنجيدو لعنات إشتار .. فانقض على الوحش ومزق أحد أطرافه ثم ألقى به على وجه ربة الحب والجمال وهو يهتف :

— اغلقي فمك يا غادرة .. وإلا هاجمتك وحطمتك وفعلت بك مثل ما فعلنا برسولك ..!

واوغر الحقد صدر إشتار .. وأقسمت أن تنتقم ..

ولم تمض أيام حتى كان أنجيدو قد سقط وهو في عنفوان مجده ، ضحية داء عضال .. صرعه بعد اثنى عشر يوما مقيتة ..

وكانت إشتار هي التي أرسلت إليه رسول الموت ..!

* * *

ملأ الحزن قلب جلجميش ، وبدت له صورة الموت بشعة مخيفة .. وراح يفكر في وسيلة للفرار من المصير المحتوم .

وبلغ به التفكير إلى شخص واحد عزيز ..

لا يستطيع الموت أن يقترب منه .. إنه جده الأكبر .. شمس نيشتين .. الخالد الذي يعرف سر الخلود ..

وقرر جلجميش أن ينطلق للبحث عن المكان الذي يقيم فيه شمس نيشتين .. ولو اضطره البحث إلى الطواف بأطراف الأرض ..

وانطلق جلجميش في طريقه للوصول إلى أول الأرض .. حيث تغرب الشمس ..

وبعد أن قطع في الجبال والسهول مسيرة أيام .. بلغ جبلا ضخما تقف دونه حيوانات ووحوش ، لم تأذن له بالمرور إلا بعد أن سلط عليها الإله سن رب القمر قدرته فاستسلمت للنوم . واجتاز جلجميش الجبل المهول ليقف عند جبل آخر أكثر منه هولا وارتفاعا .. هو جبل الغروب حيث ينتهي الأفق الغربي بين الأرض والعالم السفلي ..!

وكان يحرس الجبل ماردان مهولان يلمس رأساهما قبة السماء ، ويصل ثدياهما إلى أعماق الأرض ..!

واقترب منهما جلجميش .. وعلى وجهه تتمثل كل ألوان الرعب والفزع ..

وأوقفه الماردان يسألانه عما يريد باقترابه من بداية العالم السفلي . وأجابهما جلجميش بأنه يريد الوصول إلى حيث جده الأكبر .. شمس نيشتين ..!

ونصحه الماردان بالعودة .. فقد كانا يعلمان أن سر الخلود لا يمكن أن يصل إليه واحد من البشر . ولكن جلجميش راح يتوسل إليهما وهو يبكي .. ورق له قلباهما .. وسمحا له بالمرور ..!

وسار جلجميش اثني عشر ميلا داخل نفق غارق في الظلمة .. وعند ما وصل إلى نهايته كان النور قد بدأ يسري ، ووجد نفسه أمام شاطيء بحر عظيم ، ينهض فوق مائه عرش سيتو العذراء .. ربة البحار ..!

وناداها جلجميش وهو يطلب منها أن تعينه على عبور الماء .. ورفضت ربة البحر . وراح هو يبكي ويتوعد . ويتهدد الربة بأنه إذا لم يفلح في الوصول إلى جده شمس نيشتين فسيلقي بنفسه من فوق قمة الجبل ليموت . وأشفقت عليه سيتو ، وسمحت له باجتياز البحر في قارب يقوده واحد من خدامها الأمناء ..

وبدأ جلجميش رحلة خطيرة مرعبة .. استغرقت من الأيام والليالي أربعين ، وجد نفسه في نهايتها يقف أمام جزيرة معفورة .. هي التي يقيم فيها شمس نيشتين .. المخلد أبد الدهر ..!

* * *

عجب شمس نيشتين عند ما رأى جلجميش يقترب من الجزيرة . وكان البطل في ذلك الوقت قد سقط في القارب فريسة داء عضال . فأخذ يتوسل وهو في رقدته إلى جده الأكبر أن يمنحه سر الخلود الذي اجتاز من أجله كل هذه المخاطر والأهوال ..

وهز شمس نيشتين رأسه ، وراح يقول له :

ـــ إن الموت هو نهاية كل بشري . وإنه لمحرم على الإنسان أن يعرف سر الساعة التي تنتهي عندها حياته . ففي السماء تجلس إلهات القدر تغزل خيوط الحياة لكل إنسان وترسم نهايته .. ولكن متى ينتهي الغزل الخاص بحياته ؟ . وفي أي ساعة ؟ . هذا ما لا يدريه أحد قط .. حتى الغازلات أنفسهن ..!

وأجاب جلجميش :

ـــ أنا لا أريد عدوانا على سلطان الآلهة .. ولكني أعجب لماذا تخلد أنت وأموت أنا .. بينما مظهري لا يختلف عن مظهرك ..! إنني أشبهك تماما .. ولست أكثر مني حكمة ولا أرجح عقلا .. ولي قلب مثل قلبك جريء قوي .. فكيف تدخل أنت مجمع الآلهة ولا أدخله أنا ..! ؟ كيف تجد سر الخلود ولا أجده أنا ..! ؟

ولم يجد شمس نيشتين لكي يقنعه سوى أن يقص عليه قصة الخلق .. والطوفان .. والخلود ..!

وعند ما انتهى شمس من قصته .. كان جلجميش قد سقط من اليأس والإعياء في أعماق قاربه ..!

وتألم شمس نيشتين وأشفق على حفيده . ووعد أن يعيد إليه صحته ويشفيه .

ونام جلجميش ستة أيام وسبع ليال .. وخلال نومه العميق كانت زوجة شمس نيشتين تمتليء عطفا عليه ورحمة . وتطلب في النهاية من زوجها أن يرده سالما إلى بيته ..!

واستجاب شمس نيشتين لرجاء زوجته .. وطلب منها أن تحضر له مادة سحرية تحتوي على سبعة عناصر مقدسة ، قطرها بين شفتي جلجميش النائم في أعماق قاربه ..!

ومرت أيام ستة .. وفي اليوم السابع ، عند ما

استيقظ جلجميش ، عاد يطلب من جده الاكبر سر الخلود ..

واذن له شمس بالنزول على الشاطيء .. ثم ارسله إلى ينبوع ماء ليزيل عن نفسه مفاسد حياته الماضية . وتطهر جلجميش بالماء المقدس ، ثم عاد مرة أخرى إلى جده وقد أيقن أنه سيمنحه سر الخلود ..!

كان هذا هو ما حدث .. فان شمس نيشستين اخذ بيد البطل إلى حيث يجد نبتة الخلود ..!

وكانت هذه النبتة القدسية التي تعيد الشباب وتمنح الخلود لمن يأكلها نوعا من حشائش زاحفة ، ذات أشواك تدمي من يحاول جمعها ..!

وحصل جلجميش على النبتة .. وطلب من جده أن يسمح له بالعودة إلى أوروك ..!

وهكذا بدأ رحلة العودة في القارب القدسي .. الذي يقوده ملاح سبتو المخلص ، ويحميه طوال الطريق ..

وقطع جلجميش من الطريق الأول ما مقداره ثلاثون قسما . وعند ما بلغ ذلك المكان وجد جزيرة صغيرة في وسطها بئر قال له الملاح إن بها ماء عذبا يغري بالاستحمام ..

وخلع جلجميش ملابسه .. وهبط الى البئر يستحم ..

ولم يكن جلجميش يدري أن ثمة حية رقطاء كانت ترقد إلى جوار المكان الذي خلع فيه ملابسه ، شمت رائحة النبتة القدسية فتقدمت منها .. وانقضت عليها في لحظة .. ثم اختفت ..!

وصرخ جلجميش إذ وجد نبتة الخلود تضيع .. وعاد يبكي كطفل .. وجرت الدموع على خديه شقية مدرارة .. ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا بعد ..

واستأنف جلجميش رحلته حزينا نحو الأرض . وعند ما بلغ أوروك راح يطوف بالهياكل ، ويدعو الآلهة أن ترد الحياة لأنجيدو ولو لحظة واحدة يكلمه فيها .

وبرغم القرابين التي راح يقدمها للآلهة ، بعل وسن ومردوك .. إلا ان احدا منهم لم يستجب له .

وذهب جلجميش آخر الأمر إلى الاله آي .. نعطف عليه وأمر رسوله نرجيل ان يحضر له روح انجيدو العزيز ..

وانشقت حفرة في الأرض .. وانطلقت من خلالها روح انجيدو كنفحة الطيب .. وراح جلجميش يحدث صديقه :

— اخبرني يا صديقي عما رايته .. فما مدت استطيع الخلود على ظهر الارض ، وسانطلق عاجلا أو آجلا حيث تقيم . فما الذي تراه هناك حتى أستعد له ..!

واجاب انجيدو :

— لا أستطيع أن اخبرك بسر العالم السفلي ..!

وبكى جلجميش .. وراح يلح على صديقه ان يجلس إليه ويحدثه ، ورق له روح انجيدو .. فاخذ يقص عليه قصة الاهوال في أرالو .. وكيف تجري الأمور في العالم السفلي ..

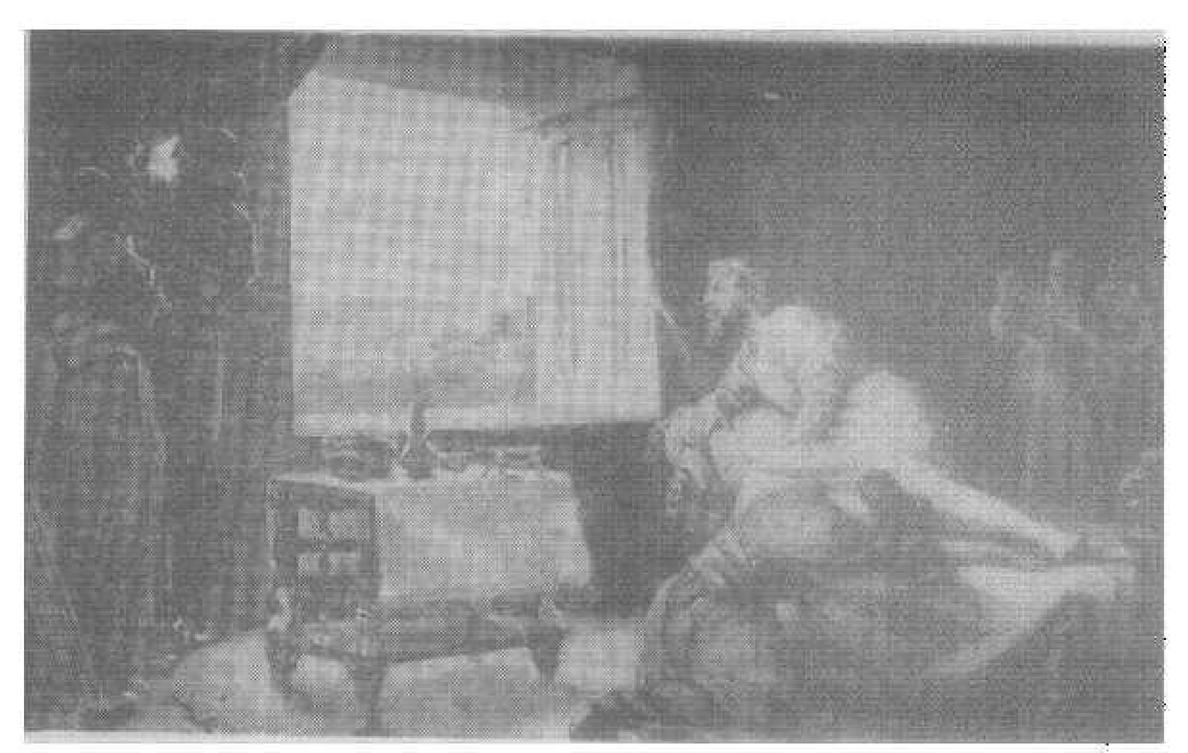
قص انجيدو كيف ينام الشهيد الذي يقتل في المعركة . إنه يرقد على السرير ، ويشرب الماء النقي .. تحيط به امه وابوه وابناؤه وزوجته .. اما الرجل الذي يموت ، وجثته ملقاة في الحقول .. لا تجد من يقيم على جسده مراسم الدفن بعد الوفاة .. فليس له إلا اختيار طعامه من النفاية والاقذار التي يلقيها الآخرون ..

وختم انجيدو حديثه وهو يقول :

— لقد مت شهيدا .. فسعدت في العالم السفلي . وإن أمامك الآن الخيار ..!

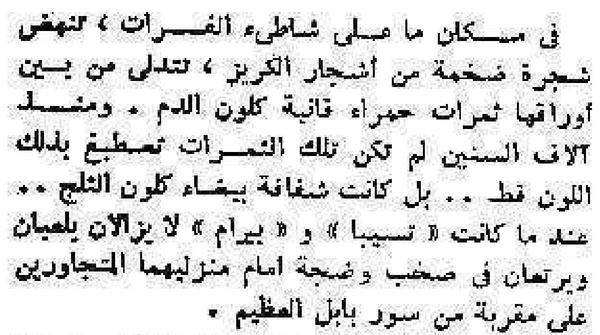
وفي لحظة .. انشقت الارض من تحت انجيدو فتلاشى .. اما جلجميش .. فقد اخذ يظل حوله ذاهلا . ثم خر على الأرض .. وقد ملأته الحيرة بين الرغبة في الموت .. والرغبة في الحياة ..





ولم يهتم ابو تسيبا لتوسلاتها ودموعهـا .. ولا لان قلبـه ابدا برغم اجتمـاع نساء بيته عليـه يستعطفن ويتوسلن





في مـكان ما عـلى شاطىء الفـرات ، تنهض شجرة ضخمة من اشجار الكريز ، تتدلى من بـين أوراقها ثمرات حمراء قانية كلون الدم . ومنـذ آلاف السنين لم تكن تلك الثمـرات تصطبغ بذلك اللون قط .. بل كانت شفافة بيضاء كلون الثلج .. عند ما كانت « تسيبا » و « بيرام » لا يزالان يلعبان ويرتعان في صخب وضجة امام منزليهما المتجاورين على مقربة من سور بابل العظيم .

كان منزلاهما متلاصـقين يشتركان في جـدار واحد يفصل بين حجرة بيرام في منزل أهله ، وحجرة تسيبا في بيت اهلها . وكان بيرام يفوق كل صبيان بابل في وسامته وروئقه واعتدال قوامه . كما كانت ربة الحب والجمال قد خلعت على الصبية تسـيبا اروع فتونها وابرع ألوان جمالها ومحاسنها . وتعارف الجاران الصغيران وتصادقا ، وصارا يلعبان في الفناء المنبسط امام الدارين كل يوم ، وكل سـاعة من سـاعات النهار ، حتى اتحدت حياته بحياتها ، ولم يعد احد منهما يستطيع فراق الاخر على الاطلاق .

ومرت الشـهور والسـنون . وشب بيرام ، وامتلأت تسيبا واستدارت ، وبدأ كل منهما يحس في اعماقه شيئا آخر غير الود الصبياني يملأ قلبه ..

هذه الاسطورة تنازعها كل من الأدب اليابانى والهندى والاغريقى . والشـجرة التى تعتبر بطلة الاسطورة تذكر مرة على انهـا شجرة ورد ، ومرة على انهاشجرة توت ، ومرة ـ وهى الغالبة في كل تلك الاساطير ـ على انها شجرة كريز .

ومهما يكن الامر ، فالصفة التى تجمع كل هذه الاساطير ، هي ان دم العاشـقين اللـذين انتحرا ، سـقى عروق الشـجرة وثمارها البيضـاء ، فاذا سيقانها ترتدى السـواد حدادا عليهمـا .. واذا ثمراتها تتحول الى لون احمر .. رمز الدم الذى جرى خلال حوادث المأساة .

ود آخر انسبه الغضب .. الحب يعمق كل يوم من قلبي الفتيين ، ويأخذ بفؤاديهما وحواسهما ، حتى ما كان أحد منهما يستطيع ان يتصور غياب زميله عنه لحظات ، مهما سما طوال النهار حتى إذا جن الليل انصرفا على عناق طويل وقبلات حنون .. وانطلق كل إلى فراشه وطيف صاحبه يرف حوله بأجنحة الأماني والآمال والأحلام الرائعات .

* * *

وجاء يوم .. عرفت فيه آلهة النميمة بالعاشقين الصغيرين . فملأها الحقد والغيرة لمشهد الحب الطاهر الذي يغمر القلبين الفتيين . وأبى حقدها إلا أن يمضي كما تعودت على تحطيم كل ما هو طاهر ونبيل . وتمثلت آلهة النميمة في ثوب فتاة تدعى « بورانيا » تطل دارها على الفناء الذي يجتمع فيه الحبيبان معتقدين ان لا رقيب عليهما هناك . وراحت « بورانيا » ، وفي أعماقها روح النميمة ، تتابع القلبين العاشقين في نجواهما وتسارهما وتبادلهما نجوى الهوى وحلو القبل . وظلت الغيرة تنهش قلبها وهي تشهد كل يوم ألوان ذلك العشق البريء ، وشرعت تنصب دورها الخائن الشرير ..

انطلقت بورانيا تحكي لكل صديقة تجلس إليها قصة العشق بين بيرام وتسبيا ، وتعظم لها في الأمر . واخذت تلك تنقل الخبر إلى غيرها من بنات الحي مهولا مضخما . وهذه تنقله إلى اخرى اشد هولا وأكثر إثما . وكان لابد أن يبلغ الأمر آذان الوالدين اللذين لم يشكا في ابنيهما يوما قط .. !

وملأ شعور الإثم رءوس أهليهما .. فقد دنس الولدان قدسية الأخلاق البابلية ، وداسا تقاليدها التي لا تأذن للشاب أن يهفو إلى فتاة إلا بعد أخذها من سوق الزواج ..

واسرع الوالدان معا الى حيث قيل لهما : إن العاشقين الصغيرين يجتمعان . فادركاهما يتعانقان ويتبادلان قبلات الحب البريء الطاهر . ولكن الابوين لم يحسا قط ذلك الطهر . بل اخذهما جنون العار ورعب الفضيحة .. وامسك ابو تسبيا بشعرها الطويل وأخذ يجرها على الارض حتى داره وهي تسحب عليها اللعنات . ودفع أبو بيرام ولده امامه بركله ، ويرميه على الارض كلما نهض . وأبى الابوان الغاضبان إلا أن يحرما على العاشقين الصغيرين أي لقاء .. !

واستمرت قسوة الابوين عنيفة رهيبة لا تلين . وطفقت تسبيا تتوسل إلى ابيها ان يرحمها ويقبل زواجها بحبيبها . ولكن الأب القاسي أبى إلا أن يذيقها صنوف العذاب ، وما أعجم قط لتوسلاتها ودموعها ، ولا لان قلبه أبدا برغم اجتماع كل نساء بيته عليه يستعطفن ويتوسلن والفتاة المسكينة منهارة أمامهن .. لا تكاد تدري كيف تبكي ..

وكان بيرام يلقى المصير نفسه في بيت أبيه .. لا أحد يرحم حبه ، ولا أحد يشفق على قلبه وهو يتوسل أن يباح له زواج فتاته التي عشقها وهويها في جنون .

غير أن الحب لا يعرف الهزيمة ابدا .. بل راح اليأس يدفع الفتيين العاشقين الى التفكير في وسائل اخرى للقاء .. والبعد عن رقابة الأبوين القاسيين ..

وادرك الفتيان أن حجرتيهما لا يفصل بينهما غير جدار واحد رقيق . فأخذ كل منهما يعمل من ناحيته حتى فتحا ثقبا صغيرا لا يكاد يبين بين الحجرتين .. وراحا يجلسان اليه ، يتشاكيان الام قلبيهما ، ويتبادلان أنفاس الهوى العطرة .. بعد ان أصبح الثقب هو سبيل اللقاء والاتصال بين المحبين الغارقين في الحرمان .. !

منذ ذلك الوقت والثقب الصغير يقوم جيدا بدور رسول الغرام . فهما يسهران الى جواره الليل كله ، يتناجيان ويتهامسان حتى يحين وقت الرقاد .. فيودع الحبيب حبيبه بأعذب الالفاظ وارقها ، ويقبلان الثقب الطاهر ، وينصرفان ليعودا مع اليوم التالي الى اللقاء الحبيب .. !

غير أن الثقب لم يكن يكفيهما على الإطلاق .. وما عاد يستطيع [illegible] بقلبيهما من تباريح الهوى والشوق ، فلم يلبثا [illegible] ابتكرا وسيلة اخرى للوصول بين قلبيهما الصغيرين . ولم تكن الوسيلة سوى مغافلة اهليهما خلال الليل .. وخداع حراس السور .. واجتياز أبواب المدينة .. والفرار الى الصحراء ..

وعندما اتفق الفتيان على الوسيلة .. قررا ان يكون لقاؤهما عند قبر نينوس الملك ..

* * *

كان يظلل قبر الملك نينوس شجرة كبيرة تتدلى من بين أوراقها ثمرات الكريز .. بيضاء شفافة كقطع الثلج . والى جوار الشجرة كان هناك نبع بارد الماء حلو المذاق كأنه عسل النحل .. !

وفي ظل تلك الشجرة اتفق الحبيبان على أن يكون اجتماعهما بعد طول فراق ..

وسكن الليل ، وغفلت العيون ، ونهضت «تسبيا»

من فراشها ، ووضعت على رأسها غطاء يخفي وجهها الوضيء . وسارت في خفة تتلمس الجدران وتستهدي بها الى باب الدار . وعندما دلفت منه امتلأت طمأنينة عذبة هادئة .. شجعتها على السير بجوار السور حتى بلغت البوابة الكبرى .. ولم يعد بينها وبين الصحراء سوى خطوات .

وأطلت ربة الحب والجمال من السماء فشهدت الحيرة تملأ الفتاة فلا تعرف كيف تجتاز الرتاج والحراس فالموت ...

وبعثت الربة رسولتها لتهبط بين الحراس تشغلهم بجلالها وأغانيها والحان مزمارها . وغفل الحراس عن الرتاج الذي انسلت منه « تسيبا » كما ينسل شعاع النور بين ظلمات الليل الداكن الطويل .

وفي خفر كبير مضت الحبيبة .. وهي تحس كأن نبضات قلبها دبيب خطوات عملاق . وكلما سمعت صوتا ، اغاثتها لمسات الحب فخففت عنها رعبها ، وشجعتها على المضي الى حيث لقاء « بيرام » الحبيب ...

وبلغت تسيبا آخر الامر قبر الملك نينوس . فانحنت على ماء النبع . وملأت منه كفيها فغسلت وجهها وروت ظماها . ثم مالت لاجئة الى ظلال شجرة الكريز المخيمة على النبع في انتظار بيرام .

ولم تكد تمضي بها لحظات .. حتى ملأ سمعها زئير رهيب ردد صداه الغاب . وانتفضت الفتاة في رعب قاتل ، وانطلقت تجري مذعورة على غير هدى حتى بلغت الغابة القريبة فاستترت بين ادغالها .. ونسيت في خلال الرعب منديلها الحريري الذي سقط عن كتفها وهي تجري .. واستلقى على الرمال ليرسم أول خيوط المأساة .. !

كان الزئير الذي أثار الرعب في قلب تسيبا .. صوت لبؤة افترست ثورا . وعندما انتهت من تناول طعامها أخذ بها العطش ، فانطلقت تبحث عن الماء حتى بلغت النبع السائل الى جوار شجرة الكريز ، فولغت في مائه حتى ارتوت ، وبينما هي تعود الى الغابة عثرت في طريقها بالمنديل الحريري الملقى على الرمال ..

وبدا المنديل للبؤة كأنه عدو عنيد . وزأرت من جديد وهي تنهال على المنديل تمزيقا بأنيابها ومخالبها التي كانت قد غطتها دماء الحيوان الذي افترسته منذ لحظات ...

وتلوث المنديل بدم الضحية المسكينة .. واستمر في مكانه ممزقا ملوثة تثير الرعب .. !

وكان الرعب من نصيب بيرام الذي وصل في تلك اللحظة يملؤها الأمل باللقاء الحبيب . وكانت اللبؤة قد توارت وراء الدغل .. بينما تسيبا لا تزال مختفية تنتفض رعبا وهلعا ، ولا تجرؤ على العودة الى مكان اللقاء ...

وظل بيرام يطل بعينيه يمنة ويسرة بحثا عن الحبيبة التي لم يعرف ما اذا كانت قد سبقته أم لا تزال على الطريق .

واخذت عيناه مشهدا عجبا .. لقد كان المنديل الذي أهداه لحبيبته ملقى على الارض ممزقا تلوثه الدماء .

وصرخ بيرام في جنون .. وقد ملأه اليقين ان عذراءه قد التهمها وحش كاسر لم يترك من بقاياها سوى ذلك المنديل المخضب بالدم ...

واستمرت صرخات بيرام رهيبة موجعة تمزق سكون الليل . وطفق الفتى يضرب صدره ورأسه بيديه ويصيح :

— يا ليل تبا لك .. لقد شهدت مصرع تسيبا الحبيبة . وستشهد الآن مصرع محبها التعس الحزين . يا ليل سحقا لك .. لقد كانت تسيبا احق مني بالحياة .. ولكنك أنت ، وربة القدر ، ورب الموت ، كلكم وحوش عمى لا تاخذكم رحمة ولا شفقة على قلوب من تصرعون . ولكن لا ايتها الحبيبة ، ما قتلوك وانما انا الذي قتلتك . أنا الذي انتزعتك من فراشك الدافيء ، وبيت اسرتك الآمن ، إلى حيث المفازع والأهوال . لماذا لم آت قبلك يا تسيبا .. اذن لكنت دونك فريسة الوحش الظلوم . أواه .. اين انت ايها الوحش القاتل .. اين انت جميعا ايتها الوحوش الضارية .. تعالي .. مزقي جسم بيرام إربا إربا .. فهو الذي قتل محبوبته .. واستحق العقاب على جريمته الشنعاء .. افترسيني ايتها الضواري الكاسرة . فأنا احق بالقتل والطعن والتمزيق . ولكن لا .. فلن انتظرك حتى لا يطول الانتظار . فلست اطيق ان اعيش لحظة بعد ان ذاقت حبيبتي كأس المنون . أبدا لن انتظرك أيها الموت . فالجبان وحده هو الذي ينتظر الموت ، اما انا فاسعى اليك .. لست جبانا ايها الموت .. إنما انا شجاع .. شجاع .. شجاع .. !

وانطلق بيرام فتناول المنديل المخضب بالدم ، وحمله الى ظل الشجرة وهو يقبله ويبلله بالدموع . ومد بيرام يده فأخرج خنجره المسنون ، وانقض به على صدره يثخنه . ثم انتزعه من جرحه وألقى به جانبا قبل أن يسقط مضرجا على أديم الصحراء .. مستندا على جذع شجرة الكريز ..

ونفر الدم سخينا قانيا على جسذع الشجرة وجذورها فتهاته . وتلونت ثمراتها الشفافة بلون قرمزي كلون الدم الذي رواها ..

وظل الجسد ينفث دما ، والمنديل لا يزال منضما الى مكان الصدر منه ، وسكرات الموت تأخذ به ...

* * *

كان كل ذلك يجري ؛ وتسيبا مختبئة داخل الغابة لا تدري من الأمر شيئا . وظلت الفتاة في مخبئها حتى أمنت عودة اللبؤة ، فانطلقت تحث الخطى الى مكان اللقاء الحبيب ، وهي تخشى أن تكون قد تأخرت عليه ...

انطلقت تسيبا وعيناها تسبقانها لترى الحبيب عند ظلال الكريز . ولكن العينين عرفتا المكان .. وأنكرتا لون ثمار الكريز .. لقد تركتها منذ لحظات بيضاء كالبرد ، ولكنها الآن حمراء كالدم ..

وعجزت عن الفهم .. أتكون قد عادت الى مكان آخر غير مكان اللقاء .. ؟! أبدا .. فهاهو ذا قبر نينوس الملك .. وهاهو ذا النبع الذي اغتسلت بمائه وهناك هو ...

ولكن .. ماذاك الهيكل المستلقي تحت الظلام القاتم لا يتحرك .. ؟!

إنه بيرام .. جثة بيرام الحبيب لا يزال ينبثق منها الدم .. !

وانهارت تسيبا المولهة فوق الجسد البارد تحتضنه وتقبله وتمزج دموعها بدمائه ، ومن أعماق قلبها صاحت الفتاة تنادي :

— بيرام .. بيرام أيها الحبيب .. أجبني يا أعز شيء في الوجود . إنني أنا تسيبا حبيبتك . ارفع رأسك قليلا وافتح مقلتيك وانظر الى آلامي وبلواي ...

وأحست سخونة الدموع ، اختلج الجسد البارد ، وانفتحت العينان المغلقتان ، ورنا بيرام إليها رنوة ملأى بمعاني الحب والحنان واليأس ... ثم انتهى كل شيء ...

وماذا .. تسيبا تصرخ وتبكي وتنهار ، وتقلب الجسد البارد لعلها تستطيع رد الحياة إليه . وضمت كفها المنديل الذي كان لا يزال في يد الحبيب المقتول.

إنه ممزق مخضب بالدم .. وهذا الخنجر .. كيف .. كيف .. ؟!

وأدركت تسيبا كل ما كان .. وعادت تصرخ في جنون :

— بيرام .. إذن أنا التي قتلتك .. ومنديلي التعس كان هو السلاح الذي ألقى بك إلى التهلكة . إنني أنا المجرمة يابيرام .. حبي هو الذي سفك دمك .. ولكن لا .. أبدا يابيرام .. أنا أعرف هذا الحب الذي قواك على أن تموت .. إنه هو الذي قوى يدك على خنجرك لتخترق به قلبك .. أنا أعرفه يابيرام .. وأعرف أنه سيمنحني القوة أنا أيضا لألحق بك أيها الحبيب .. بيرام .. بيرام .. إن تسيبا تسرع اليك . انتظرني يابيرام .. فهاأنذا آتية اليك .. أما أنت يا والدي .. وأنت يا والدة حبيبي .. إنني أرفع إليكما رجاء ولديكما الثمين : ألا تفرقاهما أمواتا كما فعلتما بهما من قبل أحياء . اتركاهما في قبر واحد يضمهما كما لم يستطع شيء حتى أن يجمعهما قط .. وأنت .. أنت أيتها الشجرة المسكينة التي شهدت مصرع حبيبي .. انك ستشهدين مصرعي أنا الأخرى .. فاحفظي أثر استشهادنا في الحب .. التفي حتى الأبد بعباءة الموت السوداء حزنا علينا .. واحملي ثمارك حمراء قانية .. تشهد بسوء طالع عاشقين سقياك بدمائهما التي سفكتها أيديهما .

وانطلق الخنجر من جديد في صدر تسيبا .. ليلقى بها ساخنة ينبثق منها الدم فوق جثة بيرام.

وبكى رب النسيم وهو يحمل الى آذان الآلهة ، وآذان الوالدين ، صرخات شهيدة الحب وتوسلاتها. ترافت بها الآلهة ، وجمعت روحها مع روح حبيبها معا في الفردوس الخالد .. حيث نهار دائم ، ونور نقي ، وفرح لا يزول ...

أما الأبوان .. فقد اتفقا معا يحرقان جسديهما الطاهرين .. ويضمان الرماد في إناء واحد دفناه في قبر تحيطه الأزهار والرياحين. أما شجرة الكريز .. فقد التفت بملاءة حزينة سوداء . وظلت ترسل ثمراتها التي كانت ذات يوم بيضاء ، فاذا بها منذ ذلك اليوم حمراء قانية .. بلون الدم ..





لم تعرف الأساطير الفارسية أروع من هذه الأسطورة الخالدة في دنيا الحب والوفاء .. والتي لعبت فيها يد الخيال الشرقي ما لعبت على مر الأيام .. حتى انتهت الأسطورة آخر الأمر لتكون أصلاً لوجود بلقيس .. ملكة سبأ .. وزوج النبي سليمان الحكيم ..



وجثا الملك على ركبتيه يعانق ولديه ويقبلهما

كان الملك رضوان شاه يقف مرسلاً بصره في ذهول نحو القصر الذي نهض شامخاً عملاقاً ، يتلألأ من جوانبه النور ، وتنبعث من نوافذه أهازيج موسيقى شجية رائعة كألحان السماء .

ولم يكن ذلك الذهول الذي استولى على الملك عن عجب لرأى القصر ... ولكن الذي أثار ذهوله هو أنه لم يكن هناك شيء من ذلك القصر قبل بضع ساعات ، حينما استلقى على جانب النبع في انتظار خروج الجنية التي ألقت بنفسها في الماء حين تابعها بجواده ، وظل يتربص بها أن تخرج وهي تأبى أن تغادر الماء حتى أخذته سنة من النوم استسلم لها .. ثم لم يكد ينتبه منها حتى وجد ذلك القصر العجيب قائماً حيث كان النبع . ووجد نفسه مستلقياً على أبوابه وإلى جواره « مؤذن » وزيره ورفيق صيده .. !

وعاد الملك رضوان شاه بذاكرته إلى أولى ساعات ذلك الصباح .. كان قد غادر قصر ملكه بعاصمة الصين إلى رحلة صيد كعادته كل يوم .. ومن حوله رجال الحاشية .. وإلى جواره الوزير « مؤذن » .. وبينما هم يخرجون من الأحراش إلى العراء .. إذ بدت لهم ظبية حلوة تختال طرباً .. لم يكد بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده بمهمازه .. وانطلق خلفها أسرع من الريح ... ولم تكد الظبية تحس مطاردها حتى انطلقت تجرى وتثير من خلفها الغبار . إلا أنه برغم ذلك كله يلحق بها ، فلما وجدت أنها تكاد تقع بين يديه قفزت في النبع وغابت عن ناظريه في الماء .

وتوقف الملك بحصانه إلى جوار النبع وترجل .. ثم راح يجس الماء بعصاه بحثاً عن طريدته .. فلما لم يجد لها أثراً ، تأكد له أنها جنية تقمصته

صورة ظبي حتى تستطيع العبث خلال دورانها بقلوب الصيادين . وعندما بدت له تلك الحيلة أمر رجال حاشيته بالعودة الى القصر .. وظل ينتظر هو ووزيره الى جوار الماء حتى تخرج الظبية .. إذ كان معروفا أن الجنيات لا تستطيع البقاء طويلا في نبع به ماء محدود ...

واستلقى الملك مع وزيره الى جوار النبع في انتظار خروج الجنية .. ولكن الجهد الذي كان قد اخذ بهما كان لابد ان يسلمهما خلال استلقاءهما الى نوم عميق .. ماكادا يستيقظان منه حتى وجدا نفسيهما واقفين في ذهول يحملقان الى القصر الذي انتصب فجأة امامهما .. كما ينتصب عملاق مهول .. !

وقال الملك يحدث وزيره في ذهول :

— إني لأكاد افقد عقلي لمرأى ذلك القصر العجيب .. أترى ماردا من عفاريت الجن ذلك الذي اقامه ..!؟ او هو قد شبه لنا من طول ماتعبنا وشربنا خلال رحلة الصيد .. !؟

اجاب مؤذن :

— ما اظنه يا مولاي سوى عمل ساحر .. يبغي من ورائه هدفا خسيسا أو مؤامرة مدبرة . فلنذهب بعيدا يا مولاي قبل أن يلعب السحر بالعقول نستسلم له كما استسلمنا للظبية اللعينة الماكرة .!

قال الملك :

—بل لا بد من ولوج ابواب القصر بحثا عن الظبية وجريا وراء معرفة ما يحتويه ذلك القصر من اسرار ..!

واضطر الوزير للاستسلام لامر ملكه .. وانطلقا معا في الطريق الى باب القصر حيث اجتازاه .. واذا بهما يتوسطان قاعة واسعة كل محتوياتها : ذهب وفضة وعقيق ، ومن كل ركن من اركانها ينتشر عطر عبير الجنة .. واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما في قاعة اخرى اكثر من الاولى سحرا وروعة .. تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق حي .. يترجرج من فوق سطحها عرش من ذهب موشى بلؤلؤ والماس .. تجلس فوقه حورية حسناء كالبدر .. تحيط بها خمسون غادة في ثياب من دمقس وحرير .. يغنين ويرقصن .. ويعزفن الحانا كأنها السحر لم تسمع مثلها الارض ابدا .

كانت هذه الصورة التي طلع عليها رضوان شاه اروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال .. ووجد نفسه ينحني حتى ليكاد يركع على الأرض امام سحر النور الذي يشع من وجه المرأة . وانطلق من بين شفتيه كلام كالهمس :

— رحماك يا من تجلسين على عرش من ذهب ، وتأسرين بنور وجهك كل القلوب . رحماك يا من جعلت ملك الصين يركع عند قدميك اسيرا تحت سهام لحظك الفتاك .. من تكونين أيتها الحورية التي تعجز عن الاتيان بمثلها الأزمنة والأجيال ..!؟

اجابت الحورية من فوق عرشها الذهبي :

— انا من تبعتها بسهامك واردت ان تكتب لها الموت بحدّ رمحك . انا الظبية التي اغرتك وساقتك الى حيث تعيش ، من أجل صرخات حب صاخب في فؤاد غريبة .. !

قال الملك :

— ولكن كيف يكون هذا التحول .. ومن اين ادرك ان حبي لا يقع في شرك مسحور من اجل لحظات كسنا البرق قصار .. ليلقى به بعد ذلك في اتون من النيران .. !؟

ونهضت الحورية وهي تقول للملك :

— لا تخش قلبي ايها الملك .. فهو لم يعرف السحر قط .. وما تحولي من صورة الى اخرى سوى آية وهبتنيها السماء منذ طلعت عيناي على النور ... !

ومدت الحورية يدها الى الملك تنهضه وتأخذ به من حجرة إلى أخرى .. حتى انتهيا الى قاعة تتوسطها مائدة حافلة بكل فاخر من طعام وشراب .. لم يكد الملك ووزيره يجلسان اليها حتى احاطت بهما كل القيان الحور ، يقمن على خدمتهما ويعزفن ويغنين ويرقصن .. ويرفضن ان يمددن ايديهن الى المائدة اذ هن لا يجدن ريا وشبعا الا في الفيافي والقفار ..!

وطعم الرجلان حتى شبعا ، وتساقيا الخمر حتى ارتويا .. حين شرعت الحورية تحدث الملك وتقول :

— ما احلاك ايها الحبيب ! إنني انا التي تشلك الهوى برغم مولدي القدسي واصلك الأرضي . انا يا من خلقت من نار لم استطع منذ رأيتك ان اطفىء لهيب قلبي الذي اشتعل حبا لك وشوقا اليك . انا شهرستاني وحيدة ملك الجن مينوتشير الجالس على عرش جزيرة شهرستان .. اجد نفسي أسيرة هوى لرجل من الانس لا يمت لي بصلة ولا بنسب .. فأستسلم لهواه ولا أهتم لمضي الزمن ، وقد كان يجب ان اكون بالامس في دار ابي الذي غادرته منذ شهور ثلاثة ، اضرب في الارض واطوف انحاءها لاشهد مملكة الانس التي لا تشبه في شيء ابدا مملكة ابي الجني . ثم وقع بصري عليك أيها الانسي وانا في طريق العودة الى دياري فما استطعت ان امنع قلبي من السقوط عند قدميك .. وما عرفت كيف اقع وانا

الجنية في هوى إنسي قد من طين وماء .. وهممت ان اعود الى جزيرة ابي في اعماق البحر ، الا انني وجدت قدمي مقيدتين الى الارض التي انت عليها فلا استطيع لهما فكاكا .. وهنا قررت الاستسلام لسهام حبك فانطلقت اليك اغريك في صورة ظبية .. فتبعتني ولم تقصر في العدو خلفي ، بينما كنت ازيد في إغرائك ودعوتك وانت لا تدري ، حتى القيت بنفسي داخل النبع وانا اعلم انك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التي اوقعتك في شراكها .. ولقد صدق حدسي اذ رأيتك تتحسس الماء بعصاك فصفقت طربا .. وازداد حبي لك وانا اسمع في الاعماق منك تصميما على قضاء الليل الى جوار النبع .. فألقيت على عينيكما غشاوة النوم ، ثم أمرت بتشييد ذلك القصر لتقضي معا فيه ايام حبنا مترعة كأجمل واحلى ما يكون الحب .. فهل انت راض الآن عما فعلت ، ام تراك ساخطا بي غاضبا علي لما بعدت بك عن عاصمة ملكك وحبيب اهلك .. ؟!

وانتفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وناسه وبين تلك الحورية التي اعترفت له بكل ما يملأ قلبها من هوى صاحب عريق ...

وسجد رضوان شاد امام فاتنة الجن وهو يقول :

ـــ ايتها الحورية الحبيبة الطاهرة .. ماذا يكون عرشي وناسي الى جوار أبهى وأعز وافتن من وقعت عليها عيناي .. ؟! انما انت الهواء الذي اتنفس والنور الذي به استضيء .. إن يوما واحدا نقضيه معا في قصرك العلوي ، لأشهى الي من قضاء دهر كامل في جنان فردوس خالد .. هنا والى جوارك .. سأعيش . ولن يكون في ذاكرتي من أمور تلك الارض شيء الا ما يذكرني بهذا اليوم الحبيب الذي ساقتك فيه الي ربة الحب الخالدة ، وسمعت فيه عذب الهوى وحر الحنين .. !

وهنا .. في تلك اللحظة بالذات .. فتح الباب والقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمي شهرستاني .. ومن عينيها تجري خيوط طويلة من الدموع . وقالت الوصيفة في صوت كان يحمل في اعماقه رفيف الموت :

ـــ لك المجد ايتها الملكة .. فقد انتقل والدك الملك من الحياة الفانية الى الحياة الخالدة .. والشعب كله ينتظر عودتك بفروغ صبر .. ليضع على رأسك التاج قبل ان يغتاله عمك الذي طالما طمع في عرش ابيك . فلنعجل يا مولاتي ولا تتأخر فما عاد هناك وقت نضيعه .. !

ومن اعماق شهرستاني ندت صرخة تجاوب رجعها بين الجبال والوديان . وانهارت على صدر رضوان شاد في نشيج متقطع ملهوف . ولم يكن بد من أن يكفكف الرجل من عبراتها ويمسح بعطفه دموعها الساخنات .. غير انها كانت قد استسلمت للقدر الذي قدر لها غير ما كانت تريد .. وراحت تقول له والكلمات تخرج شقية ذاهلة من خلال الدموع :

ـــ ايها الحبيب الذي لن انساه .. لا بد لي من الاستسلام لحكم القضاء ، والذهاب الى حيث ادفع عن شعبي المسكين ما قد يصيبه إذا اندفع عمي في شره ليستخلص لنفسه عرش الجدود . فوداعا ايها الحبيب العزيز .. ولكن ثق انني لن انساك .. وساعود ذات يوم لاراك .. فاذا وجدت قلبك لايزال قائما على حبي وفيا لهواي فاعدك الا اتخذ سواك زوجا ابدا .. !

ولم تكد تتم كلامها حتى اختفت عن الانظار .. وتحول القصر الذي كان يتلألأ منذ لحظات ، فاذا به خواء كان لم يكن هناك شيء سوى ظلمة دامسة ، تغمر بسوادها اقطار الأرض ورحابها .. !

❋ ❋ ❋

عندما عاد رضوان شاد الى قصره ، لم يكن قط ذلك الملك الذي كانه قبل ان يلتقي بشهرستاني .. تحول الملك العربيد زاهدا وقورا ، تحط الاعباء فوق كتفيه وكأنه لم يعد بعد صاحب الاعوام الثلاثين وحسب . وبعد ان كان الملك لايقرب الغابة الا اذا كان يوم صيد .. إذا به ينطلق في اعماق الغابة كل يوم ، يجلس حالما الى جوار النبع الذي اختفت فيه الظبية الحبيبة .. لعلها تعود فتخفف عن قلبه حنين الجوى ونار الفراق .. !

ومضى عام وبعض عام .

وذات يوم .. بينما كان الملك جالسا الى جوار النبع ، اذا به يختفي فجاة .. ولا يترك أثرا لكل من حاول البحث عنه ..

وضج الشعب ، وجن الوزير ، واضطرب القادة .. ولكن احدا لم يستطع الاهتداء الى حيث اختفى الملك .. وما عرفوا قط هل ذهب مختارا الى المجهول ، أم هو لقي حتفه وتقطعت أوصاله في اعماق وحش مهول من وحوش الغابة التي كان يقضي في اعماقها كل أيامه ولياليه ..

شخص واحد فقط كان يستطيع ان يحدس ما كان .. غير انه ما استطاع قط أن يصدق حدسه ويؤكده ، وهو لم يكن مع ملكه ساعة اختفى في خضم المجهول ..

ولقد صدق حدس الوزير .. فقد تأكدت شهرستانى ، وهى بعد على عرشها ، من وفاء رضوان شاد وإخلاصه لحبها وهواها ، فأمرت جنودها من الجن باختطافه من مجلسه الى جوار النبع ، ونقله الى قصر ملكها فى جزيرة الجن . . وهناك .. التقى الحبيبان .. وتبنى رضوان شاد أمر عرشه وأمر تاجه كما سبق أن وعدها من قبل .. وأبت هى الأخرى الا أن تنفذ الوعد الذي قطعته له .. وهو أن يتزوجا برغم انه إنسى من طين وماء .. وهى جنية من نار وهواء . .

وأطلقت شهرستانى المنادين فى جزيرة الجن يدعونهم الى ساحة قصرها الكبير .. وعندما التأم شمل الجميع ، وقفت الملكة فى شرفة القصر والى جوارها رضوان شاد فى اديمه الانسى ، وأخذت تقول :

ــ بحق أبى الذى أقسمتم على طاعته ، وحميتم له عرشه ، وحفظتموه لابنته التى كانت قد انطلقت لتشهد مملكة الانس بعيدا من جزيرتكم المحبوبة .. وبحق ذلك القسم الذى أقسمتموه اذ تقلدوننى تاج أبى ، أن تخولونى كل سلطة على مملكة الجن والحور .. أنهى اليكم رغبتى فى الزواج من رضوان شاد الملك الانسى الذى هجر تاجه وعرشه ليكون الى جوار تاجى وعرشي .. فاما أن تجعلوه منكم بمثابة الرأس معى وتضعوه حيث وضعتمونى .. وإما أن تتركونى أذهب الى مملكته ، حيث اجلس معه على عرشه ، واشاركه حب ناسه وذويه .. !

وهتفت جموع الجن صاخبة :

ــ بحق القسم الذى أقسمناه ، نبارك زواجك وتؤكد لزوجك ولاءنا واخلاصنا ، بنفس الايمان والقوة التى أكدنا بهما اخلاصنا لك وولاءنا لعرشك ..!

ولم يمض يوم واحد حتى كانت مملكة الجن كلها تتلألأ بأضواء الفرح فى انتظار الاحتفال بعقد قران الملكة شهرستانى والملك رضوان شاد .

وجلست الحورية تحدث الرجل الذى اختارته :

ــ قبل أن ترتبط بى حتى النهاية .. أريد أن أنبهك الى أشياء قد تعجز عن الوفاء بها فيكون أولى بنا منذ الآن أن نفترق ..

قال لها :

ــ أبدا أيتها الحبيبة .. فأية تكن هذه الأشياء التى ستعجزنى عن الوفاء بها ، مادام ذلك العجز يبعدنى عنك ويقربنى من الفراق ..

قالت شهرستانى :

ــ انه لأمر شاق ذلك العهد .. وانك اذا نكثته فستسبب لنا كلينا شقاء ووبالا يدومان حتى ينتهى بنا العمر .. ولست أخشى الا أن يشق عليك الأمر فتنكث بيمينك . .

وعاد رضوان شاد يقول لها :

ــ انا طوع أمرك ورهن إشارتك .. وهل يخطر ببالك أننى .. أنا الذى ماكان من عادتى قط أن أنكث عهدا قطعته مهما قل شأنه .. أن أنكث عهدا أقطعه لك أنت يا من تملكين روحى ونفسى ..!

وسكتت الملكة بضع لحظات تستوحى الغيب .. ثم عادت تقول للملك :

ــ إن الذى أريد أن تعاهدنى عليه هو الا تتدخل فى أمر آتيه هان شأنه أو عظم ، فنحن حوريات الجن لنا من طبائعنا ما يختلف تماما عن طبائعكم .. ويبدو لكم من تصرفاتنا ما لا يمكن أن تستسيغه عقولكم .. فحذار أن تعترض على أمر آتيه أو أدعه .. وحذار أن يملأك غيظ وضيق أو تبدى تذمرا لشيء أفعله .. فان ذلك يقطع كل ما بيننا وتنتهى أيام زواجنا وكأنها لم تكن على الاطلاق . فهل انت قادر على الوفاء بالعهد فلا تلومنى ، أو تغضب منى مهما فعلت .. أم انك لابد ثائر غاضب فتسبب لنا ما لا نطيق .. ؟!

أجاب رضوان شاد وهو يضحك :

ــ أيكون ذلك هو كل ما تحذريننى منه وما تخشين أن أقع فيه ..؟! أبدا أيتها الحبيبة .. ليمتلىء قلبك ثقة بقدرتى على الوفاء بالعهد ، وإيمانا بأن ذلك الأمر الذى تعتبرينه شاقا ليس أسهل منه لدينا نحن بنى البشر ..!

وعادت شهرستانى تتأمل الغيب فى مسحة من الحزن ثم قالت :

ــ أواثق أنت أنك لن تعترض قط على فعل آتيه ولو بدا لك شاذا مجانبا كل الصواب ؟ أواثق أنت أنك ستكون مقتنعا من أن ما أفعله إنما هو ضرورة تمليها على شريعتى وعقائدى ، وتحظر على الا أكشف أمرها لجنى ولا إنسى قط .. ؟!

وانحنى رضوان شاد فلثم كفيها وهو يقسم أن يكون عند حسن ظنها راضيا بكل ما تفعله غير معترض على شيء تأتيه ..

واقتنعت الملكة .. وصار رضوان شاد شريكا لها على عرش الجن ..!

* * *

وانقضى عام ..

وذات يوم .. أغلقت الملكة على نفسها الباب ومنعته من الدخول .. وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليدا رائعا كأنه البدر .. راح يقبله ويحتضنه ويكاد يرقص من الطرب .. وتشاوبت الأم منه الطفل ثم وقفت بقربه نار تضطرم في ركن القاعة .. وراحت تتمتم بألفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئا قط .. ثم فجأة .. مدت يدها بالوليد وألقت به في النار التي ما أسرع ما ابتلعته ثم خمدت وكأن لم تكن هناك نار على الاطلاق ..!

وكادت الصرخة تنطلق داوية من فم الملك .. لولا أن انتبه الى نفسه في اللحظة الاخيرة ، وتذكر السيد الذي قطعه فكتم آلامه ، وارتسم على شفتيه بسمة الرضا ، حين كان في الاعماق منه اضطراب مجنون .

وانقضى عام آخر ..

وذات يوم وضعت الملكة مولودة جديدة أروع جمالا من الملكة نفسها .. وراح الملك يحتضنها بالأنس ويقبلها ، وهو يتوقع في كل لحظة أن تأخذها الملكة منه فتلقيها في النار .. غير أن شيئا من ذلك لم يقع في ذلك اليوم .. فاطمأن قلبه وامتلأ حبا لزوجته وابنته .. وما عاد يطيق فراق أي منهما لحظة واحدة ..

غير أن الملك فوجيء بعد اسبوع بكلبة عملاقة تدلف من باب القصر .. فاغرة فمها الكبير ، ثم تنطلق لتقعى امام الملكة التي لاتكاد تراها حتى تلقي بطفلتها بين فكيها .

وكاد الملك ينفجر .. وارتفعت يده تكاد تنقض على الكلبة .. والملكة معا .. لولا النصاعة جعلته يدير يده وكأنه يحيي الكلبة قبل أن تمضي .. ثم انطلق الى مخدعه وأغلق من خلفه الباب .. وراح يبكي وحده ويقول :

ـــ أواه منك أيتها الساحرة القاسية .. الا ما أقدر ضميرك وأحط نفسك وأنت تحرقين ولدك وتلقين بابنتك في أفواه الكلاب ، أيكون كل هذا لان تقاليدك تأبى أن يكون لك أبناء من انسي ليس من جنسك ..؟! الا ما أقذرك أيتها الملكة .. والا ما أحقرني اذ أطيق أن أرى ولدي تلقى بهما الى ذلك المصير .. ولكن لا .. ان لصبري حدودا أيتها المرأة .. ولن أحتمل قط أنا البشري ما تسيغه لكم شرائعكم المخيفة وعاداتكم الرهيبة ..!

وانطلق رضوان شاه ــ وقد رسم على وجهه بسمة الرضا وكأن شيئا لم يكن يدور في أعماقه منذ لحظات ــ وراح يحدث الملكة في شئون مملكتها .. ثم بدأ يدير دفة الحديث لينقله الى ما يخصه ويريد ..

قال الملك لشهرستاني :

ـــ لكم شاقني أمر مملكتي وما دار فيها منذ تركت شعبي المسكين حائرا في مصيري خائفا مما يكون ألم بي .. الا ليتك تأذنين لي بالذهاب اليهم لأطمئنهم وأنظم أمورهم ثم أعود ..!

وابتسمت الملكة وهي تجيب :

ـــ فليكن لك ماتريد أيها الحبيب .. ولقد كنت أنا نفسي بسبيل أن أطلب منك ذلك ، اذ بلغني أن بلادك في حاجة اليك وقد استعد المغول لمهاجمتها والسير اليها في جيش لم تر مثله الارض قط .. اذهب أيها الملك لتحمي شعبك الذي لن يستطيع أن يقف وحده في وجه المغول الا اذا كنت على رأسه .. أما أنا يا زوجي العزيز فأحرص على أن ألحق بك لأطمئن على نجاتك .. والنصر لك ..!

وصفقت الملكة ، فبرز أمامها مارد من الجن لم يره من قبل .. أصدرت له أوامرها بنقل الملك الى قصره الأرضي ..

ولم يكد الملك يطرف بعينه ، حتى وجد نفسه جالسا فوق عرشه في عاصمة الصين ..!

في ذلك الوقت كان الوزير مؤذن يحكم الصين باسم الملك الذي غاب فجأة قبل ذلك بسنتين . فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالسا على العرش فتح عينيه كأنما رأى الشيطان .. ولكنه انتبه الى نفسه بعد لحظات ، فجثا أمام العرش ، ثم مد ذراعيه يحتضن الملك الذي كان يملأه العجب من ولاء وزيره ووفائه .. اذ حرس العرش وحفظه شاغرا رغم طول ما مضى من شهور وأعوام ..

وراح الملك ووزيره في خلال فرحتهما باللقاء يتحدثان عما مر بهما من أحداث .. وفجأة .. فتح الباب ، ودخل أحد القادة يعلن اقتراب جيوش المغول .

ونهض الملك ووزيره فألقيا عن كاهليهما حديث الماضي ليواجها الحاضر في ثبات .

وتجمعت جيوش الصين صاخبة هادرة ، وانطلقت وعلى رأسها الملك ووزيره لملاقاة المغول في أرض رحبة ، بالقرب من الحدود .. بينما كان القائد « ولي » يعد قوافل المؤن من تمر وخبز وطعام وفاكهة وزقاق من خمر ، يجمعها ويرسلها مددا للجيش الذي وقف في انتظار وصول المغول ..

غير ان قوافل المؤن لم تكن تبلغ مقصدها ابدا .. فخلال الطريق ، وقبل ان تصل الى مكان تجمع الجيوش .. كان هنالك جيوش اخرى من الجن وعلى راسها شهرستانى تهاجم القوافل فتفرقها وتلقى المؤن على الارض فتفسدها ، وتبقر قرب الماء والخمر فتهرقها .. وتصير المؤن كلها بددا .. !

وتكررت الهجمات على قوافل المؤن حتى كاد القائد « ولى » يجن . وحينئذ برزت له شهرستانى فى زيها الانسى وصرخت فيه :

— اذا كنت غاضبا مما أفعل ، فاذهب الى ملكك وقل له إن التى تعيث فى المؤن فسادا وإتلافا ليست سوى زوجته ..!!

وانطلق « ولى » فى غضبته يخبر الملك . . . فأخذته به ثورة عارمة جبارة لم يطق معها صبرا على تصرفات الملكة التى لم يعد يهمها ان يقضى جيشه كله جوعا وعطشا .. ولم يكن الغضب المجنون قد زال عنه حين ظهرت له زوجته .. فلم يدع لها فرصة الكلام ، بل انطلق فى وجهها صارخا متجهما :

— لم أعد أطيق ما تفعلينه يا سيدتى .. فدون ذلك خرق المواثيق وفصم الوعود .. أما كفاك أن أحرقت ولدى وألقيت بابنتى فى أفواه الكلاب .. تندفعين الى أبعد من ذلك وتسعين الى قتل جيشى بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب ..! أ أما كفاك يا سيدتى انك تريدين قتلى أنا نفسى فما أستطيع أن أقف حيا وسط جيشى يموت ، تواجه جيشا بأسره من المغول لا يبيدون .. أهكذا تكافئيننى على وفائى وتصحبيننى أيتها الخائنة الجحود . . !

وكانت الملكة فى خلال ذلك قد فتحت عينيها فى ذهول وقد علتها صفرة كالموت . ولم يكد الملك ينتهى من كلامه حتى قالت الملكة تحدثه فى صوت مفزع رهيب أجوف . . . !

— وا أسفا أيها المسكين .. لقد كان يجدر بك أن تلزم الصمت فتحفظ الوعد الذى قطعته من قبل .. ولكن .. واحسرتاه .. لقد وقع ، مالم أكن أريد أن يقع قط . . . وحدث ما لم يكن ثمة حيلة فى اتقائه . فلتسمع أيها الانسى المسكين .. إن هذه النار التى ألقيت بولدنا اليها لم تكن سوى «سمدير» ربة الشتاء اللبقة الحاذقة . عهدت اليها بتثقيف الأمير .. وهذه الكلبة التى طننتنى ألقى بابنتى فى فمها .. لم تكن سوى حورية المملكة التى تتولى تلقين الاميرات أصول الآداب والفنون .. ولقد أتمت كل منهما ماعهد به إليها .. وأعادتا الولدين كخير ما يكون الأمراء ..!

وصفقت الملكة فاذا وصيفتان من الحور تدخلان وبين أيديهما الأمير والاميرة ينطلق من محياهما نور وضىء .. وجثا الملك على ركبتيه يعانقهما ويحتضنهما .. حين استمرت شهرستانى تقول :

— أما المؤن التى تظننى اتلفتها ، فلم تكن سوى مؤن مسمومة كانت كفيلة بالقضاء على جيشك وأنت معه .. فقد دس فيها قائدك « ولى » السم الناقع بعد ان تآمر مع ملك المغول واخذ رشوة مائة الف دينار ذهبا .. واذا لم تكن تصدقنى فلتحمل القائد على تناول شىء من المؤن ولتر مايحل به ..!

وامر الملك باحضار بعض المؤن وختم القائد لايزال عليها .. فقدمها اليه وامره ان يطعم منها .. غير ان القائد رفض ونحاها عن فمه .. واستل الملك سيفه وهو يأمره بأن يأكل والا فصل رأسه عن جسده .. فاضطر القائد للاستسلام .. ووضع فى فمه بعض المؤن ، فلم تكد تبلغ جوفه حتى سقط ميتا فى الحال .. !

وبينما كان الملك يمتلىء افتتانا ، كانت هى لاتزال تستأنف الحديث الذى بدأته :

— لعلك اقتنعت الآن ان الجن لا يقدمون على شىء لا موجب له .. !

اجاب الملك وهو يعتذر فى حرارة وألم :

— لكم ظلمتك يا حبيبة .. وما كان أفسدها ظنونا وأسوأها فهما ، تلك التى ألقيتها على راسك .. ولكن .. ما الذى نفعل الآن بذلك الجيش الذى يقف مضطرا لمواجهة معركة رهيبة بغير زاد أو ماء .. !!

اجابت شهرستانى :

— لاتخش شيئا يا ملك الصين ... فما عاد جيشك بحاجة الى مؤونة والمعركة ستدور بعد ساعات .. وتنتهى بتمزيق اعدائك وتحطيمهم ، وعودتك الى عاصمة ملكك فائزا منصورا ..!

وكان هذا هو ما حدث حقا .. فما كاد الليل ينتصف حتى انقض المغول على جيوش الصين . وهنا تقدمت شهرستانى على راس عسكرها من الجن ، وانقضت على جيوش المغول تثخن فيهم قتلا وتكتسحهم كاعصار . . .

وفوجىء الملك المغير بجيوشه تتمزق وتنهار .. ولم يجد أمامه سوى أن ينجو وحده .. فطار بفرسه هاربا من الميدان .. حين كانت جيوش الصين ، وقد أسكرها النصر ، تستولى على كل ما تركه المغول من زاد وعتاد .. وذهب وفير ... !

وبينما رضوان شاد يقف على باب خيمته يستقبل زوجته وقائدة جيش الجن .. اذا بها تقف منه غير بعيد .. ثم تقول له وفي نبرالها حزن عميق :

ـــ الآن يا ملك الصين .. وقد وضعت الحرب أوزارها وبلغت الصبر .. فلتعش مطمئنا في قصرك ، ولأنطلق أنا عائدة الى مملكتي .. فما عاد بيننا لقاء قط .. اذ ذهب كل شيء مع تسرعك الذي أوقعك في المحظور ..!!

وجحظت عينا رضوان شاد وهو يصيح :

ـ كلا يا مليكتي .. لا يمكن أن يحدث هذا .. فبحق السماء اغفري لي زلتي وجهلي .. واقبلي التوبة التي أعلنها وأنا تحت أقدامك الحبيبة ...

وهزت شهرستاني رأسها وهي تبتعد للابتعاد وتقول :

ـــ لم يعد يجدي الفراق يا ملك الصين .. فهكذا تقضي شريعتنا .. ولو كان العفو بيدي أنا وحدي لفعلت .. والآن وداعا أيها الملك .. وعينا تحاول بعد ذلك ان تراني أو ترى ولديك .. فلن تقع علينا عيناك قط بعد اليوم ..!

واختفت شهرستاني وولداها .. وسقط رضوان شاد على الأرض وقد فقد الوعي ..!

❊ ❊ ❊

مضت الأيام تقرأبه سوداء على الملك .. وما عاد يطيق لقاء أحد قط ..

وازداد به الضيق حتى قرر آخر الأمر أن يدع الحكم لوزيره ينوب عنه في تصريف كل الأمور .. وانطلق وحده معتزلا الناس في جناحه ، وقد أغلق من ورائه الباب ، لا يجرؤ أحد على فتحه او الاقتراب منه سوى الوزير وحده .. يأتيه بطعامه وشرابه ، ويتلطف في إدخال العزاء الى نفسه التي ما عاد ينفعها سلوى ولا عزاء .. فالحزن يقتلها ، والألم يهوى بها ، والموت يزداد اقترابا من الملك المسكين .

وانقضت أعوام عشرة كان الملك خلالها قد بات على شفا القبر ...

وبينما هو جالس ذات يوم يبكي ويحسب الزمن الذي انقضى وهو بعيد عن زوجته وولديه ، إذا بشهرستاني نفسها تظهر أمامه .. وعلى وجهها فرح كبير .. واحاطته بذراعيها وهى تقول :

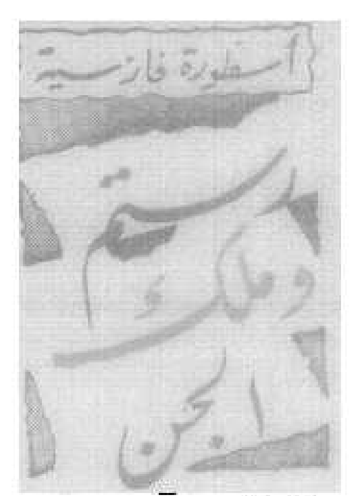
ـ ها قد عدت اليك أيها الحبيب .. لأضع حدا لآلامك وأحزانك وأعيد اليك نضرة الحياة .. لقد انقضت الأعوام العشرة التي تقتضينا خلالها شريعتنا ان نبتعد عن الحانث في يمينه .. فلا نراه الا بعد تلك المدة إذا ظل مقيما على العهد وفيا تائبا .. والحق انني لم أكن أتصور يوم ودعتك انني سأراك .. فما تخيلت ان بشراً يستطيع تحمل تلك المدة الطويلة مخلصا صابرا ثابتا على الوفاء .. وكنت مؤمنة بأنك ستنساني وتضع سواي على عرش قلبك وعرش وطنك . ولكن ذلك الوفاء الذي أبديته وانت تقضي السنوات العشر تبكي وتنتحب ، كان فيها الكفاية لاثبات حقي في العودة اليك .. أيها الحبيب .. بل حقي أيضا في احضار ولديك ..!

وفي اللحظة ذاتها ، انطلق من خلفها صبيان ألقيا بنفسيهما في أحضان والدهما الذي كاد الفرح يقضي عليه .. والتقى الأربعة بعد ذلك في عناق واحد طال حتى كاد اليوم ينقضي كله ...

وعند ما استفاق الجميع .. انطلقوا الى حيث الشعب المتعطش الى فرحة الملك .. فأقيمت الأفراح في كل أنحاء الصين .. وعاد رضوان شاد يجلس على عرشه .. والى جواره شهرستاني ..

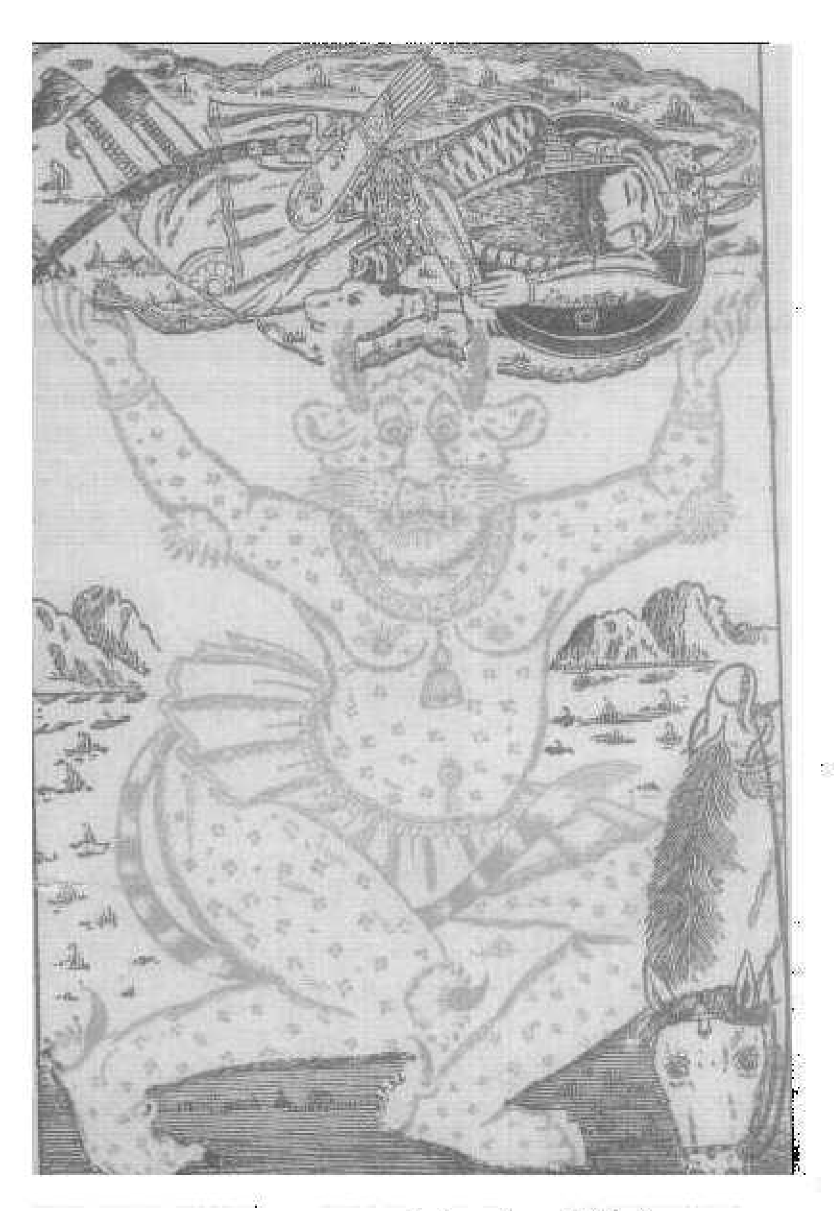
ولم يكن أحد يدري بعد ، أن ابنتهما بلقيس ستجلس على عرش شهرستان بعد أعوام .. لتصبح بعد ذلك .. زوج سليمان الحكيم ..!





كان الفرس يتغنون ببطولة رستم بطل الأبطال .. حتى لقبه سموا لوس قزح بقوس رستم ، وكانوا يبالغون في بطولته حتى نسبوا اليه الخوارق ، ولم يكتفوا بانتصاراته الرائعة على جيوش الانس .. بل نسبوا اليه حروبا اخرى ينتصر فيها على الجن والشياطين والسحرة أيضا ..

اما مسرح هذه الاسطورة ، فبلاد مازندران أى طبرستان ، التى يسمونها أرض الجن الأبيض ، لانهم كانوا بيض الوجوه .. واستطاعوا ذات يوم القضاء على جيش أوفده اليهم مساوية ، اذ فاجأوه من فوق الجبال بوابل من الحجارة والصخور .. حتى هلك اكثره .. ولعل هذا هو سبب تسميتهم بالجن .. ولعل في طبيعة ارضهم ومضايقها مايفسر مغامرات هذه الاسطورة ..



وحمل « اكوان » الجنى البطل رستم والارض التى هو نائم عليها

كان « قابوس » ملك فارس ، جالسا على سرير ملكه حين وقف ببابه مغن حاذق من بلاد مازندران . وكان الملك مولعا بالشعر والغناء ، فأذن للغريب بالدخول عليه وتقديم بعض الحانه .

واخرج الغريب عوده ، وجس أوتاره ، ثم انطلق في صوت كأنه الطيب ، يصف جنان الخلد التى تضمها مازندران ، ويحكى أقاصيص الهوى والعشق التى تعيش فيها عذاراها الرائعات . وطرب الملك للغناء ، بقدر ما اشتاق الى تلك البلاد التى لم يذهب اليها من جيوش أجداده جيش قط . وفى غمرة النشوة بالطرب والشوق ، قرر « قابوس » أن يستولى على بلاد الجنة .. وأن يجعل له عاصمة هناك .!

واخذت الرعدة كل من بالمجلس .. فما من احد إلا ويعرف أن مازندران مأوى الشياطين وموطن السحرة ، يعيشون فيها جنبا لجنب مع السباع والنمور والدببة والذئاب . ولكن احدا من رجال القصر لم يجرؤ على رد الملك عما ارتآه .. حتى جودرز قائد الجيش امتثل للامر ، ولم يستطع إلا أن يأمر كل قواته بالاستعداد للخروج للمعركة الجديدة .. وعلى رأسها قابوس نفسه .. ملك الفرس ..

ونزلت جيوش « قابوس » على حدود مازندران . وانقض رجال الطليعة على المدينة التى لم تكن قد استعدت بعد ، فلم تدر إلا وحشود هائلة تخترق أبوابها ، وسيوف طويلة تقتلع رؤوس الصغار قبل

الكيان .. ومشاعل من نار تحرق وتدمر ، ولا تبقى من بيوتها ومغانيها شيئا قط .

وبلغ أمر الهجوم آذان ملك البلاد . فألم به الحزن ، ثم رفع رأسه ينادى أحد جنود الجن وقد عرف بالمكر والدهاء .. وأمره أن ينطلق الى سبيذديو ملك الجن يخبره بما صنع قابوس ..!

وانتفض ملك الجن حين سمع النبأ . ولم يكد الليل يهبط حتى كان قد انقض فى جنوده على معسكر «قابوس» فأطبق عليه إطباق السحاب ، وأمطر عليه من السماء حجارة ونصالا .. ثم أرسل جحافل الظلمة تحوطه من كل جانب ، وتجعل الجيوش فى اعماق ليل دائم طويل .

واطل رجال الفرس ، فاذا بهم غارقون فى بحر أسود كأنه القار ، لايرى احد من حوله شيئا ، ولا يبصر إذا أراد حتى كفه . وعندما اطمأن ملك الجن سبيذديو الى أن أعداءه قد حبستهم الظلمة ، ولم يعودوا يرون قمرا ولا شمسا قط .. وكل بهم اثنى عشر ألفا من الشياطين تحوطهم وتمنعهم .. وأمرها ألا تسمح لأحد منهم بالخروج سوى واحد فقط .. ليذهب الى اهل بلده يقص عليهم الأمر ليعتبروا .. وليعرفوا أن الهجوم على أقليم الجن والشياطين ليس من ورائه سوى الخسران .. !

واستطاع رسول « قابوس » أن ينفذ فصلا من الحصار . ولكنه لم يذهب الى بلاده ، بل انطلق الى الملك دستان أبى رستم يستغيث به . ويطلب النجدة منه على جيوش ملك الجن .. !

وحزن دستان لما ألم بصديقه قابوس ، وأقبل على ولده رستم البهلوان وقال له :

ــ إلى النجدة أيها الفارس الذى إن حارب البحار صارت دماء ، وإن كافح الجبال عادت فضاء . جرد سيفك وخذ فرسك وانهض الى مازندران ، لتدق عنق ملكها وتخلص الارض من شرور جنها . فاذا بدأت السير فلا تأخذ الطريق الطويل السهل بل خذ اقصر الطرق لتكون أسرع الى النجدة .. فهو لايزيد من مسيرة اربعة عشر يوما .. على أن تحذر خلاله ما يحتويه من شياطين وسباع .. وسأنهض انا لأسجد لرب السموات أن يحميك ويحرسك ويردك الى ابيك مرفوع الرأس منصورا .. !

ونهض رستم فلبس سلاحه وركب فرسه « الرخش » فكأنه فيل على فرس . وانطلق فى الطريق الوعر الشاق ليكون أقرب الى نجدة من استنجد ، وإغاثة من استغاث .

وراح رستم يخترق الصحارى الواسعة التى تلتهب أرضها بالنيران ، ولا أنيس له غير سيفه وفرسه .

وظل يمضى مع النهار ومع الليل حتى انقضى يومان لم يأكل خلالهما شيئا من طعام قط . فلما انتبه الى نفسه واحس الجوع ، أطل حوله يبحث عن صيد ، فاذا حمار وحش يروح هنا وهناك فانقض عليه فى لحظة وصرعه .. ثم شواه على نار أوقدها وأتى عليه جميعه . وعندما احس بنفسه بالشبع ، اوى الى ظل قصب هناك ، وترك فرسه « الرخش » يرعى فى اجمة بين يديه ، واستسلم هو لنوم عميق ...

ولم يكد رستم ينام حتى خرج من الغاب أسد راح يقترب فى بطء من البطل الراقد كركن جبل ، وانتبه «الرخش» فوثب عليه ، وضربه بقائمتيه ففلق رأسه ومزق جلده ، وتركه غارقا فى لجة من الدم . وعندما استيقظ رستم ورأى صنيع فرسه ، أقبل عليه ومسح غرته بيده وقال له : لو انتبهت لكفيتك شر القتال ...

وعاد رستم يسير فى الطريق الموحش من جديد . وطالت مرحلة السير ، والهجير يشتد حتى بلغ به العطش حد الهلاك . وكاد رستم يقع على الأرض حين لاح له غزال أعاد إليه نشاطه ، فحث فرسه واسرع خلفه .. فاذا الغزال يقف عند عين ماء يشرب منها ثم يستأنف عدوه .

وعندما رأى رستم الماء توقف عنده ، وشرب وسقى فرسه .. ولم يتبع الغزال إذ حمد له أن هداه الى الماء . ثم عاد يستأنف سيره حتى جاع ، فاصطاد حمار وحش شواه وأكله . ثم استلقى لينام ...

وبينما هو نائم خرج عليه تنين هائل تحرق أنفاسه ما حوله من الحشائش ، ولم يكد الفرس يراه حتى أسرع الى رستم فأيقظه بصهيله ، وضرب حوافره فى الأرض . وإذ رأى رستم التنين حمل سيفه وهاجمه ، ونشبت بينهما معركة طويلة دامية كادت تنتهى بهزيمة البطل ، لولا أن نهض الفرس لمساعدة سيده ، وحمل على التنين وقضم كتفه بأسنانه فقطعه ، وانقلب التنين على ظهره فألقمه رستم السيف فشقه ، ثم رجع الى العين فاغتسل بمائها ، ومضى لسبيله من جديد .

استمر رستم فى سيره يخترق القفار والفيافى حتى بلغ لأول مرة ارضا خصبة كثيرة الخيرات . فأرسل فرسه يرعى ، واتكأ ليستريح . وبينما هو كذلك جاءه ناطور تلك الأرض وصاح طالبا منه إبعاد فرسه عن أكل الزرع ، وضربه على رجله بعصا كانت

عنه . وطار فطبت وصنعت ، وقبض عليه وجذبه من اذنيه فاقتلعهما . وحمل الناطور اذنيه الداميتين ، وعدا هاربا الى « أولاد » ملك الناحية . فانطلق هذا ومعه جنوده الى حيث كان رستم الذي ركب فرسه وحمل عليهم ووقع فيهم كما يقع الاسد الهائج بين قطيع من الغنم ، وتساقطت رءوس اصحاب أولاد الذي انطلق يلتمس سبيل الهرب . غير أن رستم عدا خلفه وقبض عليه .. وشده وثاقه والقى به مقيدا بين قدميه ...

وقال رستم يخاطب أولاد :

— الآن اطلب منك طلبا واعطيك عهدا . فان انت دللتني على ملك الجن سبيذديو وأوصلتني الى المكان الذي حبس فيه الملك قابوس ، جعلتك ملكا على عرش مازندران ...

وقبل أولاد الاتفاق .. ففك رستم قيده ، وجعله يسير بين يديه ليدله أولا على مكان قابوس . وبينما هما في الطريق إذ شهد رستم من بعد نيرانا موقدة وشموعا مشتعلة ، سأل عنها أولاد فاجابه :

. ذلك ياسيدي باب مدينة مازندران يحرسه قواد ملك الجن وجنودهم .. وهم لاينامون ثلثي الليـــل ..

فانتظر رستم حتى جاء الثلث الأخير الذي يستسلم فيه الجن للنوم فحمل عليهم . وخرج له قائد الجن « إرزنك » واشتبك معه في صراع هائل عنيف ، انتهى عند ما أنشب رستم براثنه في عنقه ، واقتلع راسه فحمله على ذبابة السيف . وشهد جند الجن ماصنع رستم بقائدهم ففروا هاربين . وعاد هو يسير مع دليله أولاد الى حيث يلتقي بقابوس ..

ووجد رستم الملك قابوس غارقا في الظلمة ، قد عمي بصره واحيط به مع كل جيشه . واستقبله «قابوس» والجيش في فرح غامر ، ثم طلب منه أن يسرع بمفاجاة سبيذديو ملك الجن قبل ان يبلغه نبأ مقتل قائده ، وقبل أن يعلم بمجيئه .. وقال له أن العمى الذي أصابه لايشفى إلا إذا اكتحلت عيناه بدم كبد ملك الجن .

ومضى رستم وأمامه دليله الملك أولاد ، ومضيا يسيران مخترقين جبالا سبعة هي التي تفصلهما عن المغارة التي يقيم فيها ملك الجن . وخلال الطريق اخبر أولاد رستم أن الجن ينامون إذا حميت الشمس .. ويكون ذلك الوقت هو خير الأوقات لمهاجمتهم .

وانتظر رستم حتى ارتفعت الشمس . وإذ جاء الضحى امتطى فرسه وهاجم الشياطين وراح يعمل فيهم سيفه يمينا ويسارا حتى بلغ باب المغارة فوجدها غارقة في الظلمات . ولم يعبأ رستم بالظلام بل اقتحم المغارة بفرسه يطلب سرير ملك الجن . وعندما بلغه وجد سبيذديو والغضا ووجهه أسود كالليل ، وعيناه يندلع منهما لهيب كالجحيم ... وشعره الأبيض يتشعب فوق رأسه . ولما رأى ملك الجن رستم وثب عليه في حنق ، وانتبه رستم ، ورفع سيفه ثم انقض به على ساق سبيذديو فقطعها .. والتحم الاثنان في قتال مر عنيف .. كان الدم ينزف خلاله من جرح الجني غزيرا يفسح جهدا لمقاومته .. ويسلمه لهزيمة سريعة قاسية .

وكان لابد لرستم أن ينتصر بعد أن بدأ سبيذديو ينهار ويتساقط ، وهناك رماه رستم في عنف على الارض فسقط .. وانقض عليه بسيفه فقضى عليه . وعندما أطمأن الى موته انحنى عليه وقد استل خنجره وشق به جنبه واستخرج كبده ، ثم غادر المغارة في زهو ، وانطلق ومعه أولاد الى حيث كان « قابوس » لايزال ينتظر فبشره بمقتل عدوه ، وقدم له كبده .. وشكره الملك واثنى عليه ، ثم اكتحل بقطرات من دم كبد الجني فعاد اليه بصره . ورأى من حوله كل شيء ..

واحتفل ملك فارس وقواده ومعهم رستم واولاد بالنصر الكبير سبعة أيام كاملة . وعندما جاء اليوم الثامن انطلقوا شاهرين سيوفهم فانتشروا في مدينة مازندران ، وأعملوا فيها الضرب والقتل بعد أن فتحوها .. ثم قرروا أن يرسلوا الى ملكها يطلبون منه التسليم ، او يقتحموا كل املاكه وينزلوا به أبي القضاء ... !

ونهض رستم طالبا أن يكون هو نفسه رسول « قابوس » الى ملك مازندران . وانطلق البطل على « الرخش » حتى بلغ مكان الملك الذي امر قواد الجن وخير الفرسان وأبرع الشجعان ليكونوا في استقبال رستم ، وليقتلوه على مقربة منهم ...

وشهد رستم من بعيد مستقبليه ، فمال على شجرة قريبة ورفعها كما ترفع عصا الخيزران . واقترب بها منهم ثم رماها عليهم ، فاضطرب شملهم وكاد يقع أكثرهم بين قتيل وجريح ...

واقترب احد ابطالهم من بطل الفرس وقبض على يده . ولكنه لم يهتم بالضغط الضعيف الذي اخذ الفارس يضغطه على يده ، فلما انتهى ، مد هو يده اليه وعصر كفه حتى تغير لونه ، وشحب وجهه ، وبدأ يصرخ .

وسمع الملك بما كان ، فدعا إليه جنيا يسمى كلاهور هو أقوى من فى معسكره ، فأمره باستقبال الرسول وإظهار قوته امامه . ومد كلاهور يده إلى يد رستم فعصرها حتى صارت زرقاء كالسماء .. ولم يبد على وجه رستم شيء من الألم ، وعندما جاء دوره ليحيي كلاهور ، عصر كفه حتى تساقطت اظفاره .. وصرخ الجني وانطلق الى الملك يغلى ويرتعد ويقول له : السلم خير لك من الحرب يا مولاي .. فلا قدرة لنا على مقاومة مثل هذا الوحش .. !

وفى تلك اللحظة دخل رستم . فاجلسه الملك فى مكان يليق به ، وطلب ان يبلغه الرسالة التى يحملها.

والقى رستم بما لديه ، فى صوت جهورى عنيف . ولم يكد ينتهى حتى ثار غضب الملك وقال له :

— قل لقابوس : إن كنت ملك فارس ، فانا ملك مازندران المستقر على عرشها الخالد ابدا .. فارجع الى مملكتك ولا تحدث نفسك بالاستيلاء على عروش الملوك . فاني إذا زحفت فى جيوشي نحوك لم تعرف رأسك من ذنبك . وإني إذا واجهتك فى مأزق الحرب حسمت موقفك بسيفي الصارم الذى لايخيب .. !

وغضب رستم من رد الملك . وانطلق عائدا الى قابوس فاخبره بما حدث . وطلب منه ان يتأهب ويتقدم للقتال ...

وكان ملك مازندران قد استعد منذ خرج رستم من حضرته ، فأمر بضرب العسكر فى ظاهر المدينة ، وانطلق فى جيش جرار لا حصر له آخذا طريقه لاستقبال جيوش رستم وقابوس . والتقى الجيشان . وتقدم فارس جنى عملاق من أصحاب ملك مازندران يسمى جويا يسأل هل من مبارز ..؟!
ولم يجبه احد من أصحاب قابوس إذ سيطر عليهم الرعب من منظر الجنى . غير ان رستم استأذن ملكه فى مبارزة الجنى ...

وإذ أذن الملك نهض رستم وشرع رمحه وانطلق لمبارزة فارس الجن ...

وبدأت المبارزة عنيفة ، إذ راح كل منهما يدور حول نفسه خلالها مرات .. وكاد رستم يفقد النصر ، لولا ان تمكن من الدوران فى سرعة خلف الجنى ، ووضع سنان رمحه بين كتفيه .. ثم رفعه عليه كالطير على السفود .. والقى به وسط جيشه صريعا مضرجا بالدم ..

وتعجب أسود مازندران وشياطينها .. وملأت الرعدة قلوبهم ، إلا انهم اضطروا للامتثال لأوامر الملك حين امرهم بالهجوم على رستم وجيوشه ..

وارتفعت من الجانبين أصوات الطبول .. ودارت المعركة وارتجفت الأرض واظلمت الآفاق . وراحت الفرسان تتصاول والجيوش تتلاحق ، والنصر يتارجح بين هذا وذاك .

ومر اسبوع كامل والقتال لا يريد ان ينتهى ، عندئذ برز رستم يطلب مبارزة ملك مازندران نفسه . وانتفض الملك غاضبا ، وانطلق من بين رجاله وهو يطلق صرخة غضب عنيف .. وانقض على بطل الأبطال .

وكان الملك قويا ماردا .. فاندفع يهاجم رستم فى عنف كاد يكتسب معه النصر .. لولا أن رستم تحين فرصة طعن خلالها الملك فى خاصرته طعنة ألقت به على الارض من فوق ظهر فرسه .

وعندما سقط الملك سحر نفسه فى سرعة ليبدو أمام الناس صخرة عظيمة لايقدر على زحزحتها احد . ولكن رستم ، وقد ادرك ما فعل الملك ، تناول الصخرة العظيمة ورفعها فوق رأسه ، وسار بها والناس من حوله يعجبون ، حتى وصل بها خيمة قابوس .

وطرح رستم الصخرة العظيمة امام صاحبه .. وخاطب الملك الساحر قائلا :

— اذا لم تخرج من شكلك هذا حطمتك بالمعاول والفئوس .

وارتجفت الصخرة لتعود من جديد الى صورتها الأولى . وانحنى الملك إذ عاد إلى صورته وراح يستجدى عفو قابوس .. إلا أن هذا أمر الجلاد بقطع رأسه ، ورفعه على سنان الرمح ليريه للناس .!

وانطلقت جيوش قابوس تجمع الغنائم والأسلاب ، وتحصى الجواهر والذخائر . بينما دعا رستم أولاد ليسمع من بين شفتى قابوس ، أمر تتويجه ملكا على مازندران تنفيذا للوعد الذى قطعه على نفسه من قبل .

وانطلق رستم مع الملك قابوس عائدين الى الوطن فى مواكب رائعة لم يعرف لها مثيل قط ..

❋ ❋ ❋

ومضت الايام تجرى ..

وذات يوم .. جاء إلى الملك من يقول له إن حمارا وحشيا كالأسد ، قد استقر فى الصحراء القريبة من مرابط الخيل ، وراح يهاجم خيول الملك ويقضى عليها

واخذا في إثر آخر . وأدرك الملك ان ذلك الحيوان لا يمكن ان يكون حمار وحش . فطلب من رستم ان ينطلق فيحذر الأمر .. ويقضي على الوحش ايثما كان ..

وركب رستم فرسه « الرخش » ، وخرج الى الصحراء ، فمكث اياما ثلاثة يدور في مروجها ومراعيها .. ولكن الوحش لم يبد منه شيء قط ..

وجاء يوم رابع ، لم يكد ينقضي نصفه حتى ظهر الوحش وهو يقترب من مرابط الخيل .. وخرج له رستم من مخبئه فلم يكد يراه حتى راح يجري في سرعة الريح هاربا . واسرع رستم خلفه ، ورفع رمحه ليطلقه عليه . وفي تلك اللحظة اختفى الوحش كأنما قد ابتلعته الأرض .. وهنا اقتنع رستم بأنه لم يكن حمار وحش قط .. ولكنه « اكوان » الجني .. جاء لينتقم لمن مات من الجن في بطاح مازندران ..!

وقرر رستم الا يترك ذلك المكان ، وأن يظل مقيما فيه حتى يضطر الجني للظهور من جديد ..

ولم يمض يوم واحد حتى كان اكوان الجني قد خرج من نفس المكان الذي اختفى فيه . وعندما شهده رستم انطلق خلفه في سرعة هائلة ، وبدأ سباق عنيف لم تشهد مثله الارض .. استمر اياما ثلاثة كاملة ...

وعند ما انتهت الأيام الثلاثة كان الجهد قد اخذ برستم ، وبدأ النوم يغالبه ..

وانحنى رستم على روضة معشبة فدخلها ، ونزل عن فرسه ، وخلع لجامه وحط عنه سرجه واطلقه يرعى . ثم فرش لنفسه اللبد على حافة ماء العين واتكأ يستريح ، فاخذه النوم ..

وفي تلك اللحظة ظهر الجني واقترب منه . فلما رآه نائما في سلاحه لم يجرؤ على الاقتراب منه .. ولكن الفرصة كانت سانحة نادرة .. وحتى لايضيع الفرصة حفر الأرض من حول رستم النائم ، ورفع قطعة الارض كاملة في الهواء .. ثم راح يجري به هنا وهناك ، ويفكر في الطريقة التي ينتقم بها منه ..!

واستيقظ رستم فوجد نفسه على تلك الحال . وندم إذ نسي نفسه فنام ، وراح يفكر في طريقة الخلاص من براثن الجني ..

واحس الجني بحركته ، وعرف انه استيقظ ، فقال له يخاطبه :

— ايهما احب إليك : ان ارميك بين الجبال والصحاري ، ام اقذف بك في اعماق المحيط ..!؟

وفكر رستم قبل ان يجيب .. وسمع صوتا في اعماقه يقول له :

— إذا هو القاك في الجبال والتلال الوعرة تطايرت اوصالك وتحطمت بدءا فوق الصخور ، والماء في هذه الحالة هو خير الشرين .. ولكن احذر دهاء الجني .. فانك إن قلت له إقذفني في البحر خالفك ولم يرمك إلا على الجبال والوهاد .. فهو سيعمل ضد رغبتك .. فاطلب منه عكس ما تريد ..!

وقال رستم يخاطب اكوان الجني :

— اطرحني على الجبال وفي الغاب احطم قلوب السباع واشهدها على قوتي وجبروتي ..!

ضحك اكوان في سخرية وهو يقول :

— اما زلت تدعي الشجاعة والجبروت .. !! إذن لارمينك في مكان لا ترى فيه حيا ولا ميتا ..!

واسرع اكوان الجني إلى البحر فالقى برستم فيه ، ثم عاد وهو ينفض يديه وكأنه قد تخلص من حمل مخيف ..

ولم يكد رستم يسقط في الماء ، حتى احاطت به التماسيح وسباع البحر تريد قتله . فاستل بيمينه السيف ، وراح يضرب هنا وهناك بينما يده اليسرى تسبح لتبلغ به الشاطيء ..

وخرج رستم من الماء ، فخلع سلاحه ، واغتسل ، ثم وضع السلاح وعاد الى العين التي سبق ان نام الى جوارها اول مرة . وهناك قرر الا يبرح المكان حتى يظهر الجني من جديد ليلقي عليه درسا لاينساه ابدا ..

وفجاة ظهر الجني وقال له :

— الا تزال بك رغبة في القتال والنزال .. !؟ اما سئمت تلك الهزائم التي تتوالى عليك ، وتريد ان تعود من جديد لتجلب لنفسك هزائم اخرى ..!؟

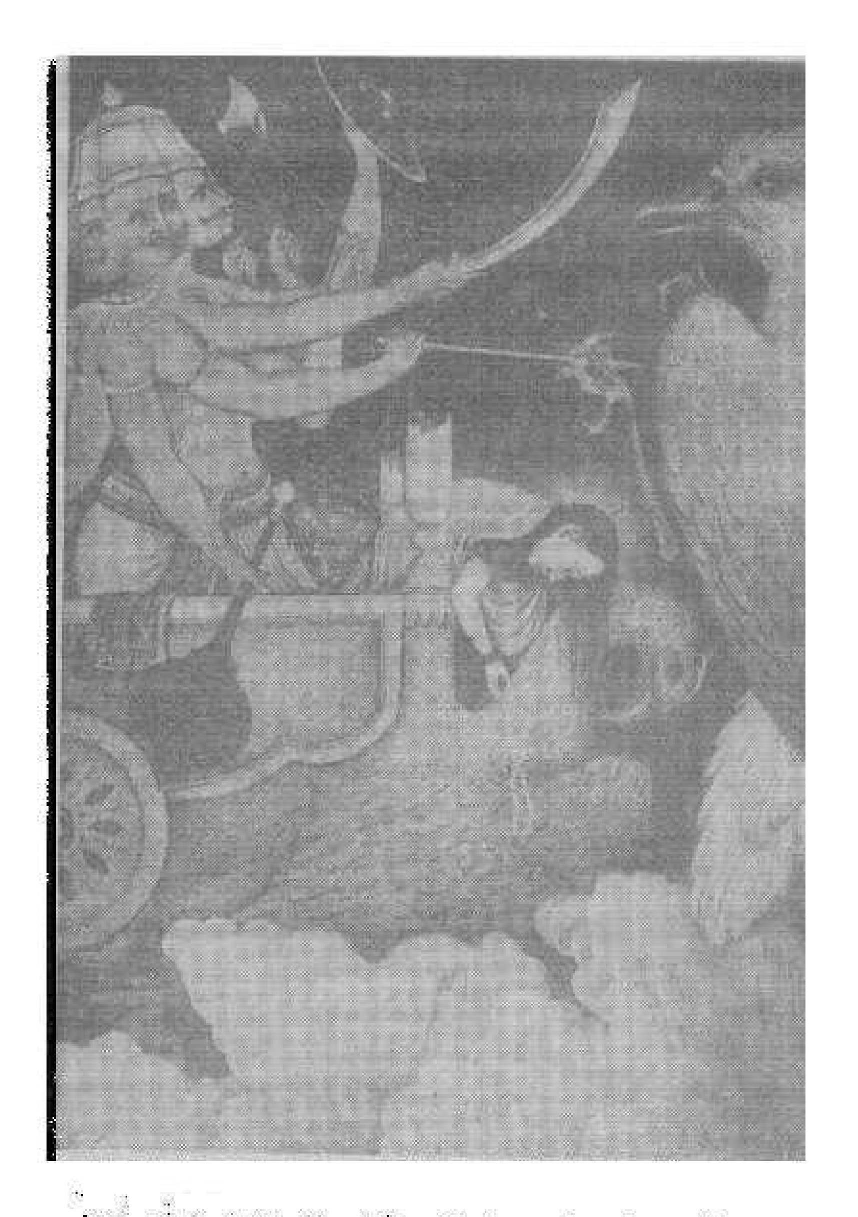
ولم يترك له رستم الفرصة ليتم حديثه . وفي لحظة ، انقض رستم برمحه في قوة فاخترق قلب الجني قبل ان ينتبه الى نفسه .. وإذا به ينهار وينحط على الأرض كأنه الجبل . ومد رستم يده بالسيف فاجتز عنقه ، وحمل رأسه على سنان الرمح ليدور به في كل مكان من عاصمة قابوس ..

واستمر ركب الحياة يسير ..!



رامايانا هي أوديسة الهند في تاريخ الأدب الأسطوري . وهي أشهر أساطير الهند وأحبها إلى الهندوس .. وتتناول حياة بطل اسمه راما ، نفاه أبوه في غابة الشياطين حيث لقي من المصائب والأهوال ألوانا شتى ، وتنشب صراع جبار بينه وبين رافانا ملك الشياطين الذي تمكن من خطف زوجته ، لكنها تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم ليأس أبدا ..

والهندي يعتبر رامايانا كتابا مقدسا ، ويعتبر راما صورة مجسدة للألوهية ، ولا يزال يتوجه إليه بالصلاة ، وهو حين يقرأ الأسطورة ، إنما يشعر بأنه يستمد من قراءتها مصدرا دينيا ، كما يستمد متعة أدبية وأخلاقا خلقيها .. إذ تطهره هذه القراءة من أوزاره جميعا وتجعله ينجب ولدا حتى ولو كان عقيما ..!



وتنشب صراع عنيف بين ملك النسور الذي حاول انقاذ سيتا المسكينة .. وبين ملك الشياطين رافانا

كان الجميع سعداء إلا الملك . فبرغم العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه كل الشعب ، إلا أن شيئا واحدا كان ينغص على الملك الحياة .. فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد .. يتولى من بعده عرش البلاد .

ولقد كان سكان مدينة « أيوديا » يعرفون تلك الحسرة التي تأخذ بقلب الملك « داشاراثا » سيد بلاد « كوسالا » . إلا أنهم ما كانوا يملكون شيئا قط سوى أن يرفعوا أيديهم ، وهم يقدمون القرابين ، يطلبون « براهما » أن يمنح ملكهم الطيب وليا للعهد .

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين . فذات يوم ، بينما كان الملك مجتمعا بكهنته يقدمون القرابين لبراهما ، إذ ظهر لهم الإله « فشنو » في شكل نمر ، متربعا وسط النيران ، وقال للملك :

ــ خذ هذا الأرز المقدس ، واللبن الحليب ، ووزعه على زوجاتك . فقد أرسلني براهما لأبشرك بغلام اسمه راما ، يكون له ثلاثة إخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات .. !

وحمل الملك اللبن والأرز إلى زوجاته وقسمه

عليهن . فلم تمض أيام حتى انجبت « كوشالا » زوجة الملك الاولى ولدا سماه « راما » ، ثم تبعتها « كايكى » بولد سماه « بارانا » . أما الثالثة فقد انجبت ولدين هما « لاكشمان وساتروجنا » .

وعاش الاخوة الأربعة فى كنف الملك حتى شبوا . ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من اخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا ، وكان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارسا لأخيه بارانا .

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة . وبدأ الملك يمنحه من فقه كل شىء ، ويدربه على أن يكون ملكا من بعده على كوسلا . ومن أجل ان يأمن على ولده متى تولى العرش من عداوات جيرانه ، أسلا رأسه بعكره بزوجه من سيتا .. كبرى بنات « جاناك » ملك « ميثالا » .

والحق ان سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر . غير أنها لم تكن فى الحقيقة ابنة الملك .. فقد كان ذات يوم يحرث بستان قصره بالمحراث ، وإذا بالارض تنشق من تحته ، وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور ، ذات جبين من عاج ، وشفة من مرجان ، وأسنان تسطع بلمعة اللآلىء ، كانت هى نفسها سيتا .. التى اعتبرها الملك هدية من الآلهة ، فتعهدها فى قصره حتى شبت ، وعندما حان حين زواجها ، قرر جاناك الا يزوجها إلا لمن يستطيع أن يثنى القوس المقدس الذى اهدته الآلهة لأجداده الأقدمين .

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله ، غير ان احدا لم يستطع ان يثنى القوس .. فقد كان قوسا ماردا عملاقا ، صنعه الاله شيفا لنفسه ، ثم اهداه لأجداد جاناك . ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن تثنيته فلا الآلهة ولا المردة ، ولا الشياطين .. كانوا يملكون القوة التى تستطيع ان تثنيه .

وقرر راما أن يشترك فى المباراة ، وانطلق إلى ميثالا حينما كان الملك يستعد لاقامة عيد الضحية .

وكان الشعب كله يحيى الملك حين دخل راما الساحة ، واعلن عزمه على خطبة سيتا .. ابنة الملك !

وتحولت اليه كل الانظار .. لقد كان صدره بارزا كالبث ، وجسده فارعا كفيل ، وعيناه مهيبتين كنسر .

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان ، يجرها خمسة آلاف عملاق . ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه . وارتعد الجميع فما كان أسهل ما انحنى القوس فى يد راما الذى ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه ، ثم تحطم فى صوت كالرعد، وهزة كالزلزال ، حتى إن الآلاف المشاهدين سقطوا على الأرض ، عدا جاناك وراما والأميرة التى فتحت عينيها فى ذهول .. !

وأقيمت الأفراح ، وأرسل جاناك إلى جاره الملك داشاراذا يدعوه إلى حفل الزواج ، فجاء ومعه أبناؤه الباقون ، وعندما عادوا إلى ايوذيا .. كان مع كل منهم عروس أخرى رائعة .. من بنات ملك ميثالا الجميلات!

❊ ❊ ❊

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا .. حتى دخلها الشر عن طريق كايكى .. الزوجة الثانية للملك .. !

فذات يوم ، أعلن الملك انه يدعو الشعب فى الغد لحضور حفل تنصيب ولى عهده ، وملأت الأفراح كل « ايوذيا » التى امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب « راما » وزوجته الأميرة « سيتا » ابنة الآلهة . غير أن قلبا واحدا كان يمتلىء غما وحسدا ، هو قلب الملكة كايكى . فقد احزنها أن يكون العرش لابن ضرتها دون ولدها بارانا الحبيب .. ! .

ولعل تلك الغيرة التى ملأت قلب كايكى ، لم تكن تستطيع ان تفعل شيئا لولا خادمتها العجوز «منتارا» فقد اشعلت العجوز فى أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد ، وراحت تحرضها على التخلص من راما ، ليكون العرش خالصا لولدها بارانا .

وبكت كايكى غيظا ويأسا .. فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من إعلان ولاية العهد لأى ولد ، غير أن منتارا ، ابتسمت فى خبث وهى تقول :

— إن فى امكانك يا مولاتى أن ترغمى الملك على إبلاء العهد لولدك .. وإرسال ابن ضرتك الى أعماق غابة السماطين ، فلا ينافسه على العرش أبدا .

قالت الملكة كايكى :

— كيف يكون ذلك يا منتارا ؟!

ومن بين شفتيها الملوثتين بحمى الحقد ، راحت منتارا ، تذكر سيدتها بذلك اليوم الذى اصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال إحدى معاركه مع شياطين الجن . ففى ذلك اليوم كانت كايكى تعيش فى ذلك المكان . وتصادف مرورها من نفس الطريق الذى سقط فيه الملك غارقا فى لجة من الدم . وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت ، جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان ، وبذلت كل ما تملك حتى ارتد اليه الصواب . وأخذت تعنى بجراحه

حتى انقذته من موت كان لابد منه . وعندما شفى الملك ، تزوجها ، واقسم أن يحقق لها اى امنيتين تطلبهما منه .. فى اى وقت تريد .. ! ومضت الايام والشهور والسنون ، ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئا بعد ...

ودار رأس كايكى بنشوة كالخمر .. وقد بدات تدرك ماتقصد اليه منتارا . واستمرت العجوز تقول:

ـــ لقد حان الوقت لكى تطلبى من الملك امنيتيك . اطلبى منه ان يتخلى عن العرش لولدك باراتا ، وان ينفى راما فى غابة الشياطين اربعة عشر عاما . وفى خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع ان يجتذب لنفسه حب الشعب ، ولا يخشى منافسة اخيه .

وانطلقت كايكى الى الملك تذكره بوعده ، واقسم لها انه لم يحنث فيه ، وانه سيحقق لها فى الحال كل ما تطلب كائنا ما كان . وهنا القت الملكة بالمفاجأة على راس الملك ، الذى وقف كالمشدوه ، وما خطر بباله انها تجرؤ على مثل ما تطلب الآن قط ...

غير ان الملك لم يكن يستطيع أن يحنث فى وعده ..

وبقلب حطمته الاحزان ، احنى رأسه للمرأة التى خدعته ..!

لقد كانت هذه هى أول مرة يحنى الملك ذا شارانا فيها رأسه . ولقد اضطر الى احنائه مرة ثانية امام راما الذى وقف ومن حوله كل رجال البلاط فى انتظار ان يباركه ابوه ويعلن له ولاية العهد . فاذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيرا محطما وهو يولى العرش لباراتا . ويأمر بنفيه هو نفسه أربعة عشر عاما فى غابة الشياطين ..!

وهتف الفتى فى حيرة :

ـــ ولكن ما الذى صنعته يا أبتاه ...

واشار الملك الى كايكى وكأنه يشير الى الشيطان . وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخبيثتين ، والوعد الذى لم يكن يستطيع ان يحنث فيه .. !

واندفع باراتا نحو اخيه راما . وامسك بيده وهو يقسم انه لايمكن ان يمس عرشا من حق اخيه وحده . غير ان راما هز رأسه وهو يقول :

ـــ ابدا ايها الأخ الكريم . لقد انتقل التاج اليك ، ولا بد من تنفيذ الوعد الذى اعطاه ابى . ستجلس انت على العرش .. اما انا فسأنطلق لفورى وحدى الى غابة داندالك ، فلا أعود إلا متى انقضت الاعوام الاربعة عشر كاملة ..!

واندفعت سيتا نحو زوجها ، وسجدت امامه تتوسل وتقول له :

ـــ خذنى معك يا زوجى الحبيب .. فما استطيع ان اعيش فى هذا المكان بعدك . إن العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث فى حياة المرأة . وهى تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود . إن سيتا ستهيم معك فى كل مكان فى الغابة .. فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله . إنها لن تفكر فى بيتها لحظة او فى اهلها ، مادامت تنعم فى حب الزوج الذى اختارها لتشاركه الحياة . وستجمع الثمار البرية فى الغابة النائمة العبقة ، فطعام يذوقه راما هو احب الاطعمة عند سيتا الوفية .

وكذلك فعل لاكشمان ، فقد راح يتوسل إلى اخيه أن يأذن له بمرافقته . فاذا لم يكن يريده صاحبا فليكن حارسا له ، ولسيتا ، من هجمات سكان الغاب اللاعنين .. !

وحاول راما أن يثنى زوجته واخاه مما اصرا عليه ، غير انهما ظلا يلحان ويتوسلان .. ولم يكن امامه سوى أن يذعن لرغبتهما .. وانطلق الثلاثة معا فى الطريق الى داندالك .. غابة الشياطين ..!

* * *

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون ، حتى سقط الملك ميتا لفرط ما ألم به من حزن . وبرغم ان كايكى ملأها الفرح لوفاة زوجها ، إلا أن باراتا رفض العرش ، واقسم إلا أن يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه .

ومضت اعوام عشرة طويلة ، عاش الامراء الثلاثة خلالها متنقلين بين خبايا الغابة الموحشة ، يقتاتون فاكهة ، ويجمعون عشبا ، ويصطادون طيرا وحيوانا ، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط باحد من الشياطين التى قيل إنها تملأ الغابة .

وبينما كان الامراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم ، إذ وجدوا انفسهم فجأة امام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاى ، لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم ، واقسم إلا ان يستضيفهم اياما عندنا .

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك . وخلال الأيام التى قضاها لديه ، عرف راما ، أن رافانا ملك الشياطين ، يقيم غير بعيد فى أطراف الغابة عند المكان الذى يقيم فيه الناسك ، إلا انه لا يجرؤ على الاقتراب منه ، لما يملكه الرجل الطيب من اسلحة رهيبة يخشاها الجن والشياطين . ولعله كان اجدر براما ، أن يبتعد بزوجته واخيه عن ذلك المكان ، غير

الفتى وظل الشجاع الذي لا يعرف الجبن قط ، أبى أن يستسلم للخوف ، وأقسم إلا أن يستمر في تجواله حتى تنقضي مدة النفي .. !

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يمضيا في طريقهما ، أقسم أن يساعدهما ويزودهما بما يقيهما شر الطريق . فأخذ بأيديهما إلى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين .. فأعطاهما شيئا منها ، كما منح راما قوسا وسهاما مسحورة لا تخطيء . ومنح لكشمان سيفا ذهبي النصل ، يثير الرعب في قلب كل من يراه ..

واتخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد في أعماق الغابات . وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب منهم ، واحسوا حاجة إلى الراحة . وهنا فقط ، حط الثلاثة الرحال ، وقرروا أن يبنوا مسكنا صغيرا يأوون إليه ، وترتاح سيتا فيه ...

❋ ❋ ❋

ومرت الأيام سعيدة هانئة .. حتى كان ذات يوم ...

كانت «سوربانانجا» أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه في الغابة ، حينما شهدت راما جالسا يناجي زوجته . وأحست « سوربانانجا » نحو الفتى بهوى غريب ، وراحت تنتهز الفرص لتنفرد به . فلما واتتها الفرصة وراحت تصب في أذنيه ترانيم الهوى ، صد عنها ، ورفض أن يستجيب لملاطفتها .

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر ، أن أصرت على قتل سيتا التي تمنعه عنها . وراحت «سوربانانجا» تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها ، غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع إليها ، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها . وصرخت الشيطانة في غضب ، وانطلقت تجري والدم ينبثق متدفقا من جروحها ، حتى التقت بأخيها الصغير كارا . وعندما عرف كارا الأمر ، أقسم لينتقمن لها ، وأرسل أربعة عشر تنينا ضخما ليقتلوا الأمراء الثلاثة ...

غير أن الشيطان الصغير قد قدر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة . فإن التنانين لم تكد تهاجم مقر راما ورفيقيه ، حتى نهض هو فخنقها جميعا بيديه بغير سلاح ...

وعندما جن جنون كارا . وأعلنها في الغابة حربا شعواء على راما ورفيقيه ...

فخرج كارا على رأس أربعة عشر ألف تنين ، يقود كل منها رعب عالم بأسره .. !

ولمح راما جحافل الجيش الزاحف ، فأمر زوجته وأخاه بالاختفاء ، ثم لبس درعه ، واستل سيفه ، وأخرج رمحه ، ووقف وحده ينتظر التنانين .

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر . وتحرك خراشيفها فتخرج أصواتا رهيبة كالرعد . وملأ الرعب قلوب كل من في الغابة ، إلا راما الذي وقف صامدا تطل النبال من كنانته . وظل ساكنا في وقفته حتى ازدادت جحافل الجيش الزاحف اقترابا منه ، وهنا مد راما يده إلى نباله وسهامه ، وراح يرسلها ثائرة ضارية على التنانين التي ملأها الرعب والفزع ، وبدأت تتراجع وتتلوى تلتمس النجاة . غير أن سهام راما كانت تلاحق الهاربين ، واختلطت أرض الغابة ترتوي بالدماء .. والتنانين تتساقط واحدا في إثر آخر ، حتى لم يعد هناك سوى كارا وحده ، وليس حوله أحد قط .. !

واقترب كارا من راما . ونشبت معركة عنيفة مهولة ، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة . ثم فجأة ، رفع راما قوسه وهزه كزلزال ، ثم أطلق سهمه مريشا سريعا إلى قلب الشيطان ..

غير أن المعركة لم تكن لتنتهي عند هذا الحد ...

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشه فجن جنونه .. ونهض من فوق عرشه وهو يقسم ، ليقتلن راما ويمثلن به .

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبة فاصلة مع راما وصاحبيه . غير أنه لم يكد ينهض حتى انحنى عليه أخوه « ماريشي » يحذره من قوة راما ، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التي منحها له الناسك ، ويقص عليه قصة الآلهة التي اختارته ، ليقضي على الجن والشياطين ويحطمهم أجمعين .

وبدا الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يظنون . والتمعت في رأسه فكرة شيطانية يفكر : كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه .

إن له عشرين ذراعا يستطيع أن يحمل في كل منها سلاحا جبارا . وإن له عشرة رءوس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر . ولكنه مع هذا أحس بالجبن ، لقد أقنعه أخوه « ماريشي » أن النصر لن يكون حليفه إذا خاض المعركة وجها لوجه مع « راما » وجها لوجه ...

وإذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال !

وراح كل رأس من الرءوس العشرة يبحث الأمر .

وفجأة قفز رافانا في فرح كبير . فقد خطرت له ، بعد طول التفكير فكرة رائعة ، فقتل « راما » لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ، ولكن الذى يذله وينغص عيشه ، هو أن يفقد أعز شخص لديه ...

وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه ماريشى ، ليخطف سيتا .. زوجة راما الحنون .. ! !

❋ ❋ ❋

في ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يتلمسون الظل ، ويتذاكرون بلادهم وأهليهم . وفجأة لمحت سيتا منظرا أطلقت له صيحة فرح . لقد كان هناك ظبي صغير يقفز على مدى البصر ، رائع الجمال ، له شعر يبرق كما يبرق الذهب .. !

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمرأى الظبي . وعندما تمنت أن تملكه وتحتفظ به لأيام عودتها ، أقسم ليأتينها به .. حيا بغير جروح ..

وقفز «راما» من مكانه يعدو وراء الظبي ، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا ، وألا يغفل الطرف عنها قط ، أو يتركها مهما جرى من الأحداث .

وأحس الظبي بالمطاردة ، فاندفع يقفز ويعدو ، يظهر آنا ويختفي آنا آخر . والأمير من ورائه لا يريد أن يفلته ، يخترق وراءه الأدغال ، ويسعى خلفه داخل الجحور ، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه .

وظل الظبي يخترق الغاب والأمير وراءه ، حتى أنهكه الجهد وأخذ به اليأس . وأطل خلفه فإذا هو قد ابتعد تماما عن مكان زوجته وأخيه .. وهنا فقط ، ملأه القلق ، وأحس أن في الأمر مكيدة دبرتها له الشياطين .. فقرر أن يعود ، ولكن بعد أن يقتنص الظبي بسهامه ، ويحمل جلده البراق الى سيتا الحبيبة .. !

وأرسل « راما » سهمه المسحور فأصاب الظبي . وأسرع يجري نحوه ليحمله . وعندما اقترب وجد شيئا آخر ما كان يتوقعه قط ، فقد كان الظبي يتلوى على الأرض ، ويتحول شيئا فشيئا الى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته . وحدق «راما» جيدا الى حيث كان الظبي المحتضر . فإذا هو « ماريشى » نفسه .. شقيق ملك الشياطين .

واحس « راما » فرحا غامرا عندما وجد أنه قتل الشيطان . غير أن هذا لم يدع فرحته تطول ، فقبل أن يلفظ النفس الأخير ، أرسل في الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما ، ليوهم بها من يسمعها بأنه هو «راما» نفسه ، يطلب النجدة والغوث .. !

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى إليه . فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان ، وخيل إليهما أن «راما» يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف .

ونسي لكشمان كل تحذيرات راما ، وانطلق يجري الى الجهة التي خيل اليه أن الصوت يصدر منها . بينما جلست سيتا تنتظر ، وفي قلبها هلع وذعر .

ومضت لحظات ، وأحست « سيتا » خلالها تلوم نفسها ، إذ أغرت زوجها بالسعي وراء الظبي . وبينما هي تفكر وتنتظر ، طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها ، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها ، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكا هرما يتوكأ على عصا ، وقد أحنت السنون ظهره ، وقوست قامته ، وقربت ما بين خطواته .

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها . وفي أدب ورفق ، أذنت له سيتا ، وأحضرت ماء وفاكهة ، ثم راحت تنصت اليه وهو يسألها عن سبب وجودها في ذلك المكان . وبرغم الدهشة التي ملأتها للسؤال الغريب ، طفقت تقص عليه الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبي .

وهنا توقفت في ذعر ، فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق ، ثم إذا بقامته تعتدل ، وظهره يستقيم ، وإذا به ينتفض ليصير شابا قويا ، له عشرون ذراعا ، وعشرة رءوس .. !

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه .

وانقض ملك الشياطين على «سيتا» وهو ينادي على مركبته ، ودفع الأميرة الى داخلها ، وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو في طريقها الى جزيرة سرنديب حيث مقر عرشه ... !

ظلت المركبة تطير ، والأميرة مشدوهة حائرة لاتكاد تعي . واطلت فإذا ملك النسور يطير غير بعيد فاستغاثت به ، وانتبه ملك النسور الى الاستغاثة ، فإذا عدوه ملك الشياطين ، قد اختطف فتاة حملها في عربته السحرية الطائرة ، وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها ، غير أن الشيطان كان أسرع منه ، فطعنه في جنبه بخنجره طعنة قاتلة سقط النسر على إثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض ، وقد غرق في بحر من الدم .. !

واستمرت العربة تطير حتى اجتازت غابة واتلال، ثم حطت قليلا على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرود . وعندما استأنفت الطيران ، كانت الأميرة قد عمدت الى إلقاء وشاحها وعقدها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدى القرود . ولم ينتبه ملك الجن الى سقوط الوشاح والعقد حين كان يسرع إلى جزيرته . أما هي ، فقد ملأها الأمل في ان يعثر راما عليهما إذا كان قد نجا ، وتدله القرود على المكان الذى اتجهت اليه .

* * *

بينما كان كل ذلك يحدث ، كان « راما » قد انطلق في طريقه عائدا الى الوادي بعد ان انتصر على الشيطان مارتشي . وبينما هو في طريقه إذ التقى باخيه لكشمان الذي كان قد انطلق في نجدته . وصرخ « راما » إذ وجد اخاه وحده ، وراح يؤنبه إذ لم يستمع الى تحذيره وتوصيته بالا يترك « سيتا » وحدها .. فقد كان ادرك ان المؤامرة قد نجحت في إبعادهما عنها ، ليتفرد بها «رافانا» ويخطفها . واسرع الاخوان الى حيث تركا الأميرة ، فاذا المكان خال ، وآثار المعركة بادية ، ولاشيء هناك سوى السكون .!

لم يستطع «راما» احتمال الصدمة ، فسقط غائبا عن الوعى . وعندما انتبه إلى نفسه طفق يبكي ويصرخ واخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى . واحس لكشمان خطورة الامر إذا ما طال انتظارهما في ذلك المكان ، إذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن . فأخذ يدعو أخاه إلى مغالبة اليأس ، والاسراع الى الجنوب حيث تقع مملكة « رافانا » التي يتحدث عنها الجميع ... !

اخذ الأميران طريقهما الى الجنوب . وبينما هما يسيران ، إذا بهما يبصران شيئا ضخما يتمدد على الارض ومن حوله بركة واسعة من الدم . واقترب الاخوان يتاملان ، فاذا به ملك النسور يحتضر والدم لايزال يسيل من جنبيه ساخنا حارا . واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح ، فقص عليهما القصة ، واشار الى الطريق الذى سلكه ملك الشياطين .

وقبل أن يستأنف الأميران السير ، شقا مدفنا للنسر الذي فقد حياته وهو يدافع عن فتاتهما . ثم امعنا في السير الى حيث أشار لهما . وبلغا آخر الامر جبلا ضخما وقفا لدى سفحه يفكران في وسيلة لارتقائه . وبينما الحيرة تأخذ بهما ، إذ بقرد كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ويسألهما عن سر وجودهما في ذلك المكان . وقال له راما :

— ومن تكون أنت .. وما هو اسمك ؟

قال له القرد :

— أنا « هانومان » سفير الملك سجريفا ، الحاكم الحقيقي لهذا الجبل . فما الذي تبغيان من حضوركما الى هذا المكان !؟

وقص عليه راما قصته . وهز هانومان راسه وهو يقول :

— لقد رايت بنفسي مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب . لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة في إعياء بداخلها ، وعندما مرت بالجبل اسقطت عامدة وشاحها وعقدها ربما لتدل الباحثين عنها الى المكان الذي اليه تطير .

واخذ « هانومان » بيد راما ، وانطلق به الى الملك سجريفا لعله يمد له يد العون . وبينما هم في الطريق قص القرد على راما ، كيف ان «سجريفا» يعيش الآن مغلوبا على امره ، وحوله قليل من الاتباع ، بعد أن اغتصب اخوه عرشه وطرده من قمة الجبل . ووعد «راما» القرد ان يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية ، إذا هو وعد بمساعدته في الوصول الى زوجته .

وكان هذا هو ماحدث بالفعل . فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة . وحمل راما قوسه وسهامه ونباله ، فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذى اغتصب عرش اخيه . وبعد صراع عنيف استطاع « راما » الفوز بالنصر ، فهزم الغاصبين ، واعاد سجريفا الى عرش الجبل .. !

ومن اجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه ، وجه أربعة من جيوشه التي تضم الآلاف من القردة العملاقة الهائلة ، الى جهات العالم الأربع ، وامرها ان تسير في الارض باحثة عن المكان الذي نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة .

وكان على «راما» و«لكشمان» أن ينتظرا في مملكة القرود عودة الجيوش الاربعة . وانقضت أيام طويلة كأنها السنين ، عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة . ولم يبق غائبا سوى الجيش الذي كان قد توجه الى الجنوب وعلى راسه هانومان سفير الملك الذى اخذ معه خاتم راما .

والحق ، ان جيش الجنوب ظل يلقى من الاهوال والمخاطر مالم يتصوره احد قط . ولقد بلغ إخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لايهتم ابدا بما يقاسيه هو وجيشه في سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين

وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطىء المحيط .. وأطل فاذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف .

وأدرك هالومان أن هذه الجزيرة هي المكان الذي يسعى اليه . وبرغم طول المسافة التي تمتد بين شاطىء المحيط والجزيرة المسحورة ، فقد قرر هالومان الوثب أن يقفز قفزة جبارة هائلة .. إما أن تصل الى الجزيرة ، وإما أن توردة الهلاك .. !

وكان «هالومان» يحب المخاطرة ، فترك جيشه حيث هو ، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطىء ، ثم طفر قفزة هائلة في الهواء .. !

كانت القفزة رائعة حتى لقد كاد ظهر هالومان يصطدم بالسماء ، وإذا به قد عبر المحيط الواسع ، وحطت قدماه على شاطىء جزيرة سرنديب .. !

وعندما أحس هالومان أنه قد نجح في الوصول إلى الجزيرة ، استخدم سحره ليتحول إلى قرد صغير حتى لا تلتفت إليه الأنظار .. وأخذ يتنقل بين بيوت الشياطين باحثاً عن قصر « رافانا » حتى بلغه .

وعندما اجتاز أسواره شهد سرادقاً صغيراً ينتصب في حديقة القصر الواسعة .. واقترب من السرادق ، ومد بصره يتحسس في حذر ، وإذا به يقف مبهوراً يمتلىء عجباً .. فقد كانت سيتا هناك ، بارعة الجمال كعادتها ، ترقد على فراش من ريشة منهوكة .. ومن حولها ماردات من العفاريت يحرسنها ، ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها ويقول لها : إن صبري قد نفد لطول ما أمعنت في رفض الزواج مني ، والاصرار على الوفاء لزوجها راما .. !

وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا - كما كان يعجز كل يوم - غادر السرادق ، وقد أقسم أن لن ينقضي ذلك اليوم ، حتى يكون قد أرغم أنفها ، وأذل كبرياءها .. وما كاد رافانا يغادر السرادق ، حتى اقترب القرد الصغير من الفراش ، ثم همس باسم راما ..

وانتفضت الأسيرة وتلفتت حولها ، فاذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك ، وظنت أنها كانت تحلم ، فأغمضت عينيها ، ولكن القرد عاد يذكر اسم راما ، ففتحت عينيها من جديد ، فاذا بالقرد يخرج خاتماً ذهبياً ما كادت تراه ، حتى أيقنت انه خاتم زوجها الحبيب .. !

وقبل أن تصرخ من الفرح كان هالومان قد أشار اليها في سرعة خفية يحذرها من الصراخ .

وأشار القرد من طرف خفي الى «سيتا» أن تنتظر وتطمئن .. وفهمت هي إشاراته ، وعرفت أنها النجاة .

وغادر هالومان المكان وقد قرر الرجوع سريعاً

واعتلى راما خاصة قفزة هالومان ليقدمه الى سيتا عندما يعثر عليها في قصر ملك الشياطين .

الى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه «راما» لينزل النقمة بملك الشياطين . ولكنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى ملأت رأسه فكرة جديدة ، هي أن ينزل نقمته هو أيضاً بمملكة الشياطين ، ويحطم كبرياء ملكها وبلده .

وفي لمح البصر رفع «هالومان» عن نفسه السحر فعاد قرداً مارداً ضخماً ، راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بهما نوافذ القصر . ولم يكف يفعل حتى أحاطت به الشياطين من كل جانب . واحتبل حوله ، فاذا هو وحيد وهم كثيرون ، وأدرك بعد فوات الأوان ، مقدار خطئه وتهوره ، وعرف أنه واقع لامحالة بين أيديهم ، وهنا خطرت له فكرة ، فاقتلع من بهو القصر عموداً كبيراً من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ففرق شملهم ، ثم قفز في الهواء قفزة هائلة كان واثقاً أنها تبلغه شاطىء المحيط ، إلا أن سهماً أرسله أحد شياطين الجن أصابه . وبرغم أن الاصابة كانت خفيفة ، إلا أنها كانت كافية لأن تهوي به قبل أن يبلغ الشاطىء . فجذبه الشياطين ، وأوثقوه بالحبال ، وقادوه الى « رافانا » الذي كان ثائراً يرغي ويزبد ويهتز كزلزال .. !

وأصدر رافانا أمره في الحال باحراق هالومان وأحاط الشياطين جسم القرد بلفائف القطن ، ثم أشعلوا النار في القطن الذي أحاط بذيله . واشتعلت النار ، وبدأت تتسرب ببطء الى جسد القرد .

وشهدت السماء ذلك العذاب الذي نزل بالقرد ..

فاشتعلت عليه ، وتجمعت السحب وامطرت مطرا غزيرا كان فيه الكفاية لاخماد اللهب ، وتيسير سبل الهرب للقرد بعد أن احرقت النار وثاقه ففكت قيده .

واقلعت السفن فجأة ، واطل هانومان فاذا طرف ذيله لايزال يشتعل به بعض النار ..

وخطرت له فكرة جديدة . لقد كانت الأميرة تجلس في سرادق بعيد عن القصر ، فلا خوف عليها اذا هو احرق القصر نفسه ...

ونهض لفوره وراح يقفز هنا وهناك ، يدور بذيله في كل اتجاه ، ويشعل النار في كل شيء حوله . وامسكت النيران بكل جزء في القصر .. ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول الى شعلة كبيرة هائلة .

وفي نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة ، بلغ بها شاطيء المحيط . واسرع في مثل لمح البرق حتى بلغ الجبل ، وراح يقص الأمر على «راما» الذى أسرع الى الملك «سجريفا» يطلب منه أن يمده بباقي الجيوش .

وعلى راس اضخم جيش شهدته الأرض ، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطيء المحيط ، ووقفوا في مواجهة جزيرة سرنديب .

واطل الشياطين من بعيد وملأهم الرعب . لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم ، وإنزال الخراب بقصر الملك .. فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القرود بالجزيرة التى ملأها هانومان وحده من قبل رعبا .. ؟!

وكان «رافانا» على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان . فجمع مستشاريه وشرعوا يبحثون الأمر من كل الوجوه .

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة . ونهض « فيبيشان » شقيق رافانا الأصغر يطالب بتنحية أخيه وتسليم «سيتا» الى زوجها ، ليحل السلام محل الحرب . غير أن « رافانا » ثار عليه وكاد يقتله . فهرب هذا من امامه ، وقد اقسم أن ينتقم ...

وقفز الشيطان الصغير فصار على الشاطيء . وانطلق الى «راما» يقص عليه قصته ، ويعرض عليه خدماته . وظنه «راما» أول الأمر جاسوسا ، لولا أنه أشار عليه باقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر .

وفكر « راما » فيما أشار به الشيطان الصغير ، واقتنع بصواب الفكرة ، ونفذها ...

ولم تكد تمضي خمسة ايام حتى كانت ملايين القردة ، قد جمعت كل ما امكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر . واقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش في جنح الظلام .

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا . ومن كل من الجانبين سقط الآلاف قتلى وجرحى ، بيد أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما اصاب جيوش « راما » الذي استعمل سهامه المسحورة ، فاخذت تعصف بالشياطين عصفا مخيفا .

واستمرت الحرب طاحنة عدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين . وعند ما وجد « رافانا » انها الهزيمة ، امتلأ غيظا وحنقا ، وانتفض مقسما ان يقتل «راما» ولو كلفه ذلك حياته .

ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا ...

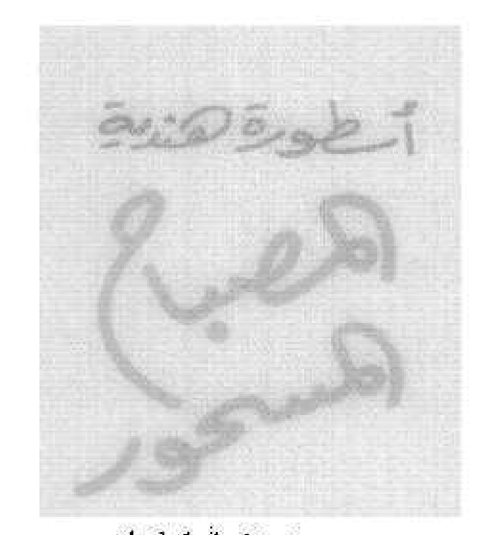
وكان ملك الشياطين عنيفا في مبارزته حتى لقد بدا راما ينهار ، وكاد يستسلم .. لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه . واخذ السهم طريقه سريعا الى قلب رافانا فارداه ...

وردت نشوة النصر الى راما قوته ، وانطلق يجري نحو السرادق الذى تقيم فيه زوجته يقوده هانومان الوفي . ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان .. إلا انهما عندما انتبها ، كان الهدوء قد ساد المكان . وكان فيبشان الشيطان الحليف واقفا على راس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران .. !

وانتصب «راما» قائما من جديد ، واصدر اوامره بالصفح عمن بقى من الشياطين ، على ان يحكمهم فيبشان ويمنعهم من الهبوط إلى الارض بعد ذلك ..!

وعندما اخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة الى الوطن ، كانت الانباء قد سبقتهم الى هناك على لسان هانومان .. فخرجت أيوذا كلها وعلى راسها نائب الملك باراتا الذي رفض أن يجلس على العرش طوال اربع عشرة سنة .. وظل محتفظا به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على راس أخيه راما . وزوجته سيتا الحسناء .. !





بين هذه الأسطورة في أدب الهند .. وأسطورة علاء الدين في ألف ليلة وليلة ، شبه كبير .. وليس شك أن لكل منهما أصلا واحدا ، يؤكد ذلك أن أغلب أساطير ألف ليلة يوجد لها شبه في أساطير الهند والصين .. بل في كثير أيضا من أساطير فينيقيا ، على أن كل واحدة منها تختلف في الغالب عن شبيهتها بتأثير البيئة وأصول الحياة التي تعيش في أرضها كأسطورة .. كما حدث في «المصباح المسحور»



وتحولت الجنية الى نسر كبير طار به في الهواء في الطريق الى بيت التاجر الملعون

عندما فتحت الباب ، وجدت أمامها عملاقا أسود قبيح الخلقة وجهه كوجه عفريت .. ولما همت بأن تغلق في وجهه الباب ، وضع قدميه بين مصراعيه ليمنعها .. وقال لها :

ـــ ما كنت أظن امرأة في العالم تستقبل شقيق زوجها الأكبر كما تستقبلينني الآن .. !

وتوقفت يدها فوق الباب وهي تحدق في وجهه. أيمكن أن يكون هذا العملاق حقا شقيق زوجها الذي مات منذ سنوات !؟ لقد كان زوجها خفيف السمرة وهذا أسود .. وكان زوجها قصيرا وذاك عملاق ، وكان لزوجها عينان صافيتان كسماء البحر ، وعينا العملاق تبرقان بريق الثعبان في خبث ودهاء ..

وانتبهت المرأة من تفكيرها على صوته يقول :

ـــ لقد تركت تجارتي في بلاد الرقراق وجئت لأطمئن على أخي الذي افترقت عنه منذ أكثر من عشرين سنة . وإني لأكاد أموت جوعا لطول الرحلة عبر الصحارى والقفار ، كما أحس رعدة الحمى من البرد بعد أن أغرقتني مياه الأمطار طوال ليلة أمس .. فهيا يا امرأة أخي خذيني بقرب النار أستشعر الدفء بينما تعدين بعض طعام يزيل عني الجوع الذي يكاد يقضي علي .... !

وأمام المدفأة وهو يأكل ، أخذ الرجل يسمع من الأرملة كيف مات أخوه في حادث بالبحر ، وكيف أحضروه اليها وهو لا يستطيع أن يخرج من بين شفتيه سوى لفظ واحد فقط لم تستطع أن تفهم

ما يعنيه به .. لقد كان يقول .. الكنز .. الكنز .. ولا شيء بعد .

وفكر الرجل قليلا وهو يتكئا في المضجع قبل أن يجيب :

— الكنز يا زوجتي العزيز .. الكنز .. أجل إنك تريدين معرفة مكانه .. ولهذا إذا أذنت لولدك بالخروج معي للبحث عن الكنز الذي أظنه في واد كنا قد اجتزناه معا أنا وزوجك ذات يوم .. فسنعود معا محملين بجواهر لا حصر لها ولا مثيل ..

وانفلتت المرأة لغايتها وهي تبتسم في فرح .. فقد استطاعت أخيرا أن تعرف سر الكنز .. !

ومكث الرجل ضيفا عليها بضعة أيام . وعندما جاء اليوم الذي حدده للرحيل خرج ومعه الغلام يحمل كيسا كبيرا ملأته لهما المرأة بكل ما يلزمهما خلال الرحلة من طعام وشراب . وقطع الاثنان معا عدة أميال في طرق طويلة وعرة . وحين أحس الغلام التعب قال لعمه :

— لقد تعبت يا عماه .. وما عدت أقوى على السير أكثر مما سرت ...

وعنفه الرجل الغلام في قسوة لضعفه وخوره .. فاندفع يمشي بأقصى ما يستطيع من سرعة يمكن أن يحتملها جهده الصغير ...

وتوقف أخيرا الأمر عند تل تسلقاه . وعندما بلغا قمة التل أمر الساحر الفتى الصغير بجمع حمل كبير من الحطب ، وإشعال النار فيه . وجمع الفتى الحطب ثم وقف أمامه لايدرى كيف يوقده في حين وقف عمه يتأمل .. ولا يفعل شيئا قط .. !

وأمره الرجل أن ينفخ بفمه كما لو كان يشعل النار . وظل الغلام ينفخ وينفخ والنار لاتريد أن تشتعل . وقال لعمه :

— عماه ...

ولم يتركه الرجل يكمل .. فقد صفعه على وجهه وهو يقول :

— اسكت أيها البغل فلست عم أحد .. انفخ ..

وعاد الفتى ينفخ في الحطب ورأسه يدور .. فهذا الرجل إذن ليس عمه .. وهو لذلك يعذبه ويصفعه ويقسو في معاملته قسوة لا مبرر لها ..

وفوجيء الفتى بالرجل يلطمه من جديد ويقول :

— إنك لاتنفخ جيدا .. انفخ وإلا قضيت عليك .!

وبكى الغلام .. وأبى أن يعيد النفخ ..

وانهال الرجل عليه ضربا وركلا حتى تعب .

وتحول هو إلى الحطب ينفخ فيه بقسوة .. حتى اشتعلت النار فجأة ، وأمسكت بالحطب حتى أتت عليه . وعندئذ .. ظهر بين الرماد باب حجري ، أمر الرجل الفتى الصغير أن ينحني عليه ويفتحه بيديه .

وأخذ الغلام يجذب الباب بشدة . ولكن الباب أبى أن يفتح .. وعاد الرجل يضرب الفتى بشدة ويقول له :

— إنك بغل كبير ... لاتريد أن تعمل إلا تحت ضرب السياط ...

وعاد الصغير يجذب الباب بكل مامنحه الله من قوة .. وأخيرا رفع الباب من مكانه .. وإذا تحت الرماد سرداب طويل يضيئه مصباح .. تراكمت حوله كميات كبيرة من الزهور مصنوعة من ذهب !!

وأمر الرجل الغلام بالنزول في السرداب ، وحذره من أن يطأ الزهور الذهبية بقدميه ، وأمره أن يذهب إلى المصباح المعلق فيأخذه وينير لنفسه المكان .. حتى يستطيع أن يجمع ما يستطيع جمعه من الأزهار الذهبية ، ويضعها على صحفة من فضة كانت هناك .

ونفذ الغلام الأمر ، ورفع الصحفة المملوءة بأزهار الذهب فتناولها الرجل ، ثم طلب منه أن يرفعه إلى الخارج ليغادر السرداب . غير أن الرجل لم يكد يأخذ صحفة الذهب حتى ضرب الكفين الممدودتين إليه في قسوة ، ثم أغلق الباب الحديدي السحري .. ومضى تاركا الصبي حبيسا داخل السرداب المظلم المخيف ..!

وأخذ الغلام يبكي ويستغيث . ولكن صوته الضئيل لم يكن من الممكن أن يخترق الباب الحديدي الضخم الذي يفصل بين السرداب وسطح الأرض ..!

ومرت الساعات طويلة قاسية ، وبدأ اليأس والجوع يحطمان أعماق الفتى الصغير ..

وبدأت عيون الفتى تنضب فلا تجد حتى الدموع ، ومد يده الصغيرة يمسح مافوق خديه من آثار الدموع .. وقد خطر بباله أن ينهض ليبحث في السرداب علّه يجد أي شيء يستطيع أن يأكله .

ومد الفتى يده إلى الأرض يتحسس عليها فاصطدمت كفه بالمصباح الذي كان ملقى على الأرض في الظلام .. واحتك الخاتم الذي يضعه في إصبعه بجوانب المصباح .. وفي لحظة .. أضاء المصباح كأنه البرق .. ثم خرج منه في الحال عفريت مارد .. انحنى أمام الغلام في احترام وقال له :

— مولاى .. انا خادمك بين يديك .. مر بما تريد انفذه في اللحظة والتو .. !

وارتعد الفتى الصغير حين رأى العفريت . غير أن انحناءته وكلماته الضامرة بالاحترام ازالت من قلب الفتى شبح الخوف .. وانطلق لسانه يقول في دهشة :

— هل تستطيع يا سيدى أن تفتح الباب وتخرجنى .. !

وفى لمح البرق ، مد العفريت ذراعه العملاقة فنحى الباب الحديدى ، ثم مد يده فرفع الغلام من داخل السرداب ليضعه على سطح الارض . ولم يكد يفعل حتى اختفى فجأة .. تماما كما ظهر من قبل .

وانطلق الغلام يجرى ويجرى ، وفى يده المصباح حتى بلغ داره . وعندما دخل البيت القى بنفسه فى احضان امه التى صرخت حين رأت هزاله ، وسألته عما به فقال لها : إنه لا يستطيع أن يقص عليها الامر حتى تقدم له ما يسد رمقه .

وقالت الام فى أسف حزين :

— يا ولدى المسكين ، ليس فى المنزل شيء اقدمه لك .. !

قال الغلام :

— لاتحزنى يا امى .. سابيع هذا المصباح الذى وجدته فى السرداب . ثم نشترى بثمنه طعاما كثيرا .

وبدأ الفتى يحك المصباح لينظفه . ومرة اخرى لمس الخاتم جوانب المصباح .. فاذا البرق يخطف ، واذا العفريت ينطلق منه ، وينحنى فى احترام قائلا :

— مولاى .. انا خادمك بين يديك .. مر بما تريد انفذه فورا .

ولم يرتعد الفتى هذه المرة . بل قال له فى شجاعة :

— أرجوك ان تاتينى بارز مطهو .. وآخر غير مطهو .. !

وفى اللحظة نفسها .. امتدت امام الفتى وامه مائدة حافلة بأطباق أرز ساخنة ، والى جوارها اكياس أخرى مليئة بأرز كأنه حصد منذ لحظات .

ومضت ايام .. ونسى الغلام امر المصباح .. !

ثم مضى عام .. وتبعته اعوام .. وبلغ الغلام مبلغ الشباب .

وذات يوم .. بينما هو يسير فى الطريق .. مرت به ابنة حاكم المقاطعة تزهو فى محفتها وهى فى الطريق إلى البحيرة . واخذ الفتى يراقبها ويتبعها حتى بلغ حاملو المحفة جانب البحيرة .. ونزلت الاميرة الجميلة وخلعت ملابسها .. ثم انزلقت الى الماء تستحم .

واختبأ الفتى خلف شجرة .. وراح يرقب حركات الأميرة ، التى شغفته حبا . وعندما عاد الى البيت آخر اليوم كان ملء أعماقه رغبة فى أن تصير الأميرة زوجة له .. !

وانطلق الفتى الى امه يستحلفها أن تذهب الى الراجا فتخطب له ابنته . وذهلت المرأة للطلب والتفتت وقالت له :

— كيف يا ولدى .. وهل نجرؤ على خطبة ابنة الراجا ونحن فقراء لا نملك شيئا !؟

اجاب الفتى العاشق :

— اذهبى اليه يا أماه واسأليه عن شروطه .. لعل السماء التى ملأت بالحب قلبى أن تمنحنى ما يطلب الراجا لقاء هذا الحب .. !

وانطلقت الأم الى الراجا فوقفت ببابه . وقالت له فى استحياء إن ولدها يحب الأميرة .. ويسأله ان يأذن له بزواجها .. !

واجاب الراجا :

— لا مانع لدى من ان تتزوج ابنتى .. ولكنى لن ازوجها إلا لمن يستطيع ان يقدم لها من المال ما يزيد على ما املكه أنا نفسى .. !

ورجعت الأم الى ولدها فحدثته بما اجاب الراجا . وامتلأ الفتى حيرة وراح يقضى النهار والليل يفكر ويبكى .. والعشق يكاد يقضى عليه .

وبينما الفتى فى عذابه إذ ذكر العفريت الذى كان يظهر له عندما يحك المصباح بخاتمه . فاسرع إليه وحكه بخاتمه ، فاذا العفريت امامه .. وما إن طلب منه ما يريد حتى قدم له من المال اضعاف ما يملكه الراجا ..

وحمل الفتى كنزه الى قصر الراجا الذى فتح عينيه دهشة . ثم قبله خاطبا لابنته ، وحدد موعدا قريبا لاتمام الزفاف .

وانقضى الموعد ، والحب يكاد يهلك الفتى والراجا لا يريد أن ينجز وعده . وعند ما ذهبت إليه ام الفتى آخر الامر تستنجزه الوعد ، اخذ يحاول التهرب والتحلل مما وعد به ، فلما ضيقت عليه الخناق طلب أن يصيد الفتى لابنته قصرا لايقل عن قصره رونقا وفخامة .!

وامسك الفتى المصباح من جديد .. وطلب من العفريت أن يبنى الى جوار قصر « الراجا » قصرا يفوقه رونقا وجمالا .. وما إن اسفر الصبح حتى كان العفريت قد انتهى من تشييد قصر رائع بدا قصر «الراجا» الى جواره كوخا ضئيلا .

وكان لابد للراجا بعد ذلك أن يحتفل بابنته
ويزوج الفتى بفتاته ...

ومضت شهور .. وتلتها شهور ..

وذات يوم خرج الفتى فى رحلة صيد . وبينما هو على مسافة غير قصيرة من القصر .. ظهر امام الرتاج رجل كئيب الوجه عملاق . كان هو نفســـه « العم الشرير » الذى حبس الغلام فى ظلام السرداب .

وفتحت الأميرة باب القصر للرجل الذى كان يحمل مصباحا جديدا يتألق ويبرق . وعرض الرجل على الأميرة المصباح الجديد متنازلا عنه مقابل اى مصباح قديم تعثر عليه فى القصر .. !

وفرحت الأميرة بالمصباح الجـديد .. وانطلقت تبحث عن مصباح زوجها القديم الذى ملاه الصـدا ، فأعطته للرجل .. وهى لاتدرى من أمره شيئا .. !

وعنـدما ابتعـد الرجل قليلا عن القصر .. حك المصباح بخاتمه .. فظهر العفريت وانحنى يقول له :

ـــ مولاى .. انا خادمك بين يديك .. مر بما تريد انفذه فى التو واللحظة .. !

وطلب الرجل من العفريت أن ينقل القصر والأميرة بداخله الى بلد عبر البحار ...

وعنـد ما عاد الأمير من صـيده راعه الا يجد لقصره اثرا .. فطفق يصرخ ويبـكى كمن اصـابه مس .. وينادى على زوجته الحبيبة .. ولكن رجع الصدى وحده هو الذى كان يجيبه من بعيد .. !

ولم يكن من الممكن ان يفهم « الراجا » شيئا من ذلك السر المجهول .. كل ماكان يعنيه هو أن تعود ابنته التى اختفت مع القصر .. وصرخ « الراجا » فى الفتى وهو يهدد ويتوعد :

ـــ سأمهلك أيها الفتى ثلاثة عشر يوما . فاذا لم ترد إلىّ ابنتى خلالها .. قطعت راسك قبل الصباح

وانطلق الفتى يبحث فى جنون . وطفق يدور فى كل مكان .. فى الصحارى والقفار .. فى الجبال والوهاد ، ولكن أحدا لم يستطع ان يهديه قط .. !

وجاء اليوم الثالث عشر ، وايقن الفتى أن الغـد سيحمل له الموت .. فاستسلم للقدر ، وصعد الى قمة جبل ينام على الصخر ويريح جسده المنهوك .

وبينما هو نائم .. إذ احتك خاتمه بالصخرة التى أسند اليها راســه .. وفى لحظة .. ظهرت جنيـة ايقظته وسألته عما يريد .. ! !

وصرخ الفتى :

ـــ لقـــد فقدت زوجتى وقصرى .. فدليني على مكانهما إذا كنت تعرفين .

وتحولت الجنية الى نسر كبير طار به فى الهواء . وعندما بلغ بلد التاجر هبط النسر وترك الفتى امام باب القصر .. ثم اختفى كأنما ابتلعته الأرض .

وبقدرة السحر حول الفتى نفســه فى هيئة كلب ، وانطلق فى حديقة القصر حيث كانت الأميرة تستلقى فى ذهول . وعندما رأته يتمسح بها ، واطلت فى أعماق عينيه أدركت أنه زوجها الحبيب .. فعانقته وراحت تحدثه عن التاجر الذى خطفها .. وقالت له إنه خرج فى عمل سيعود منه بعد لحظات . وعندما سألها الفتى عن المصباح .. قالت له إن التاجر لا يتركه فى القصر أبدا .. بل يحمله فى سلسـلة تحيط بعنقـه حتى لايخطفه منه احد ...

وسألها زوجها :

ـــ وما الذى يمكن أن نصنعه الآن .. ! !

اجابته الزوجة الوفية :

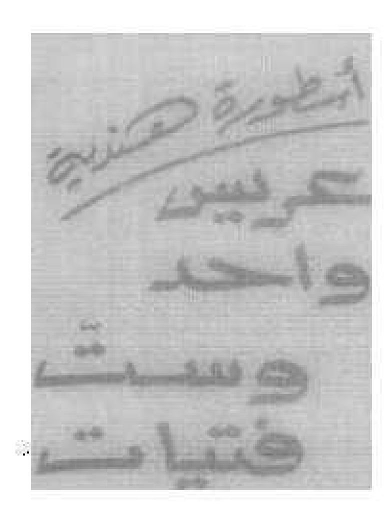
إن الشر لايقضى عليه ســوى الشر . فدعنى ادس له السم فى طعامه هذا المساء .. !

وعندما عاد التاجر من عمله .. امر بعشائه فاعد له . ولما انتهى منــه احس آلاما كريهة قاتلة .. ولم يكد يدرك سرها حتى سقط على الأرض ميتا .. !

وعاد الكلب الى صورته الأولى .. ومد الفتى يده فخلع المصباح من السلسلة التى تحيط بعنق التاجر . وسأل العفريت ان يعيد القصر وهما فيه الى مكانه الأول .. بجوار قصر الراجا ...

وحمل العفريت القصر فوضعه فى مكانه القديم .. ولكنه قبل ان يختفى اقسم الا يعود أبدا .. فما عاد يستطيع حمل القصـور .. !





تحتل هذه الاسطورة في الأدب الهندي مثل ما لمجنون ليلى من مكانة في الأدب العربي . ففيها يتمثل الحب بكل ما فيه من وله ، وبكل ما فيه من تضحيات ، وبكل مايصور من مثل عليا لها طابعها الفريد الخاص ..

ولكن ... جنبا الى جنب مع قصة الحب البريئة ، تبرز من بين السطور قصة أخرى تزيح الستار عن نقائص المرأة السيئ السمعة .. الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والشراهة والتبذير ، والاسراف .. وهو ما لم ينبغ أن تتضمنه هذه الاسطورة .. !



وخرج الجميع الي الحديقة .. واخذ شانديو يجرب قوسه وسهامه امام الفتيات الست ..

لم يكن «مادهو» الحكيم الهندي يأسف لشيء أسفه لعجزه عن الحصول على زوج لكل من شقيقاته الست ... كان يعلم جيدا أن فتياته يقضين في داره أياما متعبة ، وأن كلا منهن تتمنى أن تهجرها وترحل منها إلى بيت أي زوج يمكن أن يقع في شباكها . غير أن أحدا لم يحاول الاقتراب من بيت مادهو .. فقد كان قبح « زهرة اللوتس » كبرى شقيقات الحكيم ، وسوء خلقها ينفران أي عروس من خطبة احدى شقيقاتها الصغيرات ... فقد كان لها هي وحدها الحق في الخروج ، والحق في الكلام والحق في مخاطبة الشبان ، والحق أيضا في الحصول على أول الأزواج .. !

وبلغت « زهرة اللوتس » سن الاربعين ، ولم يعد في استطاعة شقيقاتها الانتظار اكثر مما انتظرن ، وانقلب حبهن لها حقدا وغيظا واستياء .. حتى لقد بدأت كل منهن تفكر في وسيلة للخلاص من « العانس العجوز » لولا بعض خير يرسب في قلوبهن .. من ذلك النوع الذى يملأ قلب شقيقتهن ..

ولمس « مادهو » ما بلغ اليه الحال من حرج .. فاقسم الا يرضى زوجا يتقدم لأى من الفتيات .. حتى ولو طلب الخاطب يد « نور الفجر » الصغيرة التي لم تتجاوز السابعة عشرة بعد .. !

في ذلك الوقت ، التقى مادهو بضابط شاب فتى

يسمى « شاندور » .. وكان شاندور من ذلك النوع من الشباب العربيد الذى لايعرف كيف تكون الحياة بعيداً عن زوجات الآخرين .. !! غير أنه فى ذلك اليوم الذى التقى فيه بمادهو ، كان قد سئم عبء هذه الحياة وقرر أن ينفض عن نفسه ثوب الخطيئة ... ويتزوج .. !

وعرض الحكيم على الضابط أن يزوجه واحدة من شقيقاته الست « الجميلات » . ولم يرفض شاندور عرض صديقه .. غير أنه اشترط أن يقضى فى بيته اربعا وعشرين ساعة .. يكون له الحق بعدها فى اختيار العروس التى يريد ...

وانطلق « مادهو » يبشر شقيقاته بالعثور على الزوج .. ويخبرهن بالشرط الذى أبداه .

وهزت « زهرة اللوتس » راسها فى استنكار وهى تقول :

— يتخير عروسه .. ! ؟ هل نحن بقرات يأتى العربيد ليقلبهن ويركبهن ليشترى منهن واحدة .. ؟!

وقال لها مادهو :

— إن هذا من حقه .. ومع ذلك فان لك امتياز التقدم إليه قبلهن .. بحكم الأقدمية .. !

وهتفت الفتاة :

— ولكن لم لا تقدمنى وحدى على شقيقاتى .. ثم يكون لهن حق الزواج بعد ذلك من اى فتى يردن .. ؟!

قال مادهو :

— لقد فعلت ذلك مدى عشرين عاما .. ولكن الضابط أصر على شرطه — فهل أدعه يفلت منا .. ؟

هتفت الفتيات الباقيات فى صوت واحد :

— لا .. لا .. إن من حقنا نحن أيضا أن نتزوج .. ومن حقه وحده أن يختار الزوجة التى يريد .. !

وعاد الحكيم يقول :

— ولكنى اريد أن اصارحكن بما لا أبوح به لأحد غيركن . لقد اجتمعت فيكن النقائص السبع الكبرى : الكسل ، والغرور ، والبخل ، والحسد ، والجشع ، والغضب ، والإسراف .. ويجب أن تتخلصن منها قبل أن يأتى الزوج المنتظر .. !

وصاحت « زهرة اللوتس » فى شقيقاتها وكأنها وضعت على رأسها هالة قدسية :

— إن النقائص السبع تجتمع فيكن .. ولهذا فلن تستطيع واحدة منكن اختطاف العروس الجديد الذى سيكون من نصيبى وحدى ...

وهتفت سولا :

— إن النقائص فيك أنت وحدك . أما انا فطاهرة نظيفة لايستطيع احد ان يعثر لى على نقيصة .. !

ودبت المعركة بين الفتاتين . واشتركت فيها بعد ذلك بقية الشقيقات .. عدا نور الفجر .. أصغرهن واجملهن .. وأبعدهن عن اى نقيصة من النقائص السبع الكبرى .

وهتف مادهو :

— سكوتا .. وإلا فلا زوج .. !

وفى لحظة انتهت المعركة . وبدت كل منهن كأنها كانت بعيدة كل البعد عما دار فى القاعة منذ لحظات .

واطمأن مادهو الى الهدوء الذى ساد المكان ، فنهض ليدبر غرفة للضابط شاندور ، والجندى الذى يقوم على خدمته .

* * *

لم يكد «مادهو» يغادر القاعة حتى تسللت « زهرة اللوتس » الى مخدعها ، فأوصدت من خلفها الباب ، واخذت تلتهم اوراق كتاب « فن الحب » وتحفظ ماجاء به من نصائح تمكن المرأة من الفوز بقلوب الرجال . وعندما استوعبت كل ما قرأت من نصائحه تزينت باجمل ما لديها من جواهر ، وارتدت افخر مالديها من ثياب ، وفتحت الباب لتشترك مع شقيقاتها فى قاعة الجلوس .. !

وأطلت « زهرة اللوتس » الى شقيقاتها .. فاذا كل واحدة منهن قد فعلت بنفسها مافعلته هى أيضا .. إلا نور الفجر ، فقد كانت لاتزال جالسة فى المقعد الذى كانت تجلس عليه من قبل بغير ما زينة أو جواهر ، تقرأ كتابا فى الشعر ، وكأنها لاتهتم بما يدور حولها على الاطلاق .

قالت موراى ، وهى التى تلى « زهرة اللوتس » فى السن :

— أقسم اننى وحدى التى ستفتن الضابط شاندور .. !

فاجابتها « باداة » :

— لن يفتنه إلا جمالى .. وانا واثقة من أنى أنا التى ستفوز بحبه وإعجابه .

واسكتتهما « زهرة اللوتس » وهى تستعيد فى راسها نصائح كتاب « فن الحب » التى استوعبتها منذ لحظات وقالت :

— إنما تخدعن أنفسكن .. فانا التى سأفقده وعيه .. !

فاجابتها اسبولا ساخرة :

ـــ طبعا سيفقد وعيه .. ولكن لقسوة الواقع ..!

وانطلقت الضحكات من فم زهرة اللوتس .. وأجابتها بالمثل منها كل من الشقيقات الاخريات . وبينما الشجار يكاد يتحول الى معركة ، ارتفع صوت «نور الفجر» في رقة وعذوبة :

ـــ ياشقيقاتي العزيزات .. خير لكن بدل الشجار ان تصلين لكاما .. إله الحب .. حتى يسبغ عليكن من الجمال ما يسحر قلب الضابط ويغريه بالاختيار !

وسكتت الفتيات في الحال .. ثم ركعن جميعا في خشوع وامتدت ايديهن الى السماء يسألن كاما ان يزيدهن حسنا وجمالا في عين العروس المنتظر ..!

وفي تلك اللحظة ، دخل مادهو يعلن قدوم الضابط .

وانقطعت الصلاة .. فليس هناك وقت لاتمامها .. واسرعت كل من الفتيات تتخذ لنفسها خير الأوضاع لابراز محاسنها والكشف عن مفاتنها .. وترسم على شفتيها ابتسامة حارة تنم عن الترحاب الصادق ، والاستقبال الحافل ..

ودخل شاندور القامة . ومن خلفه جنديه وتابعه « شانفو » .. وراح ينحني تحية لكل من الفتيات اللاتي وقفن كتماثيل مرسوم على وجهها بسمات صناعية جلية المعالم .. فرسم هو الآخر على وجهه بسمة من النوع نفسه وهو يقول :

ـــ مرحبي مرحبي .. ما أروع المشهد الذي يبدو لعيني ! لقد ملأتن احلامي منذ أيام .. ورأيتكن بعين خيالي . ولكن خيالاتكن عجزت عن أن تصور الحقيقة الرائعة التي اتمثلها امامي الآن .. فأنتن في الواقع اكثر جمالا وأروع حسنا من كل ماتخيلت !

وتضمنت الفتيات الخجل ، وتركن اخاهن يجيب التحية الرقيقة العذبة بخير منها قائلا :

ـــ مرحبا بك أيها الضابط العظيم .. الذي جمع كل صفات المجد والنبل والثراء .. !

وتحركت «زهرة اللوتس» الى الأمام .. وبدا لها ان تكون البادئة بالكلام لعلها تلفت نظر الضابط الى جمالها ورونقها . ورآها شاندور فانحنى من جديد اكثر مما انحنى من قبل .. والتفت إلى مادهو وهو يشير الى زهرة اللوتس ويقول باحترام :

ـــ ليحرسكما الرب فيشنو .. وليسبغ رعايته عليك وعلى أهلك .. !!

وصرخت « زهرة اللوتس » مجفلة كأنما لدغتها عقرب :

ـــ أمه .. أمه .. إنني صغرى أخواتي .. وأصغرهن جميعا .. !

وقال مادهو :

ـــ أجل إنها من أصغر إخواتي .. فقد كان لي ست وثلاثون أختا رزق بهن أبي من ثلاث نساء . وقد تزوجن جميعا عندما كبرن .. ولم يبق سوى هؤلاء الفتيات الست الصغار .. !

وانحنى شاندور من جديد لزهرة اللوتس وهو يقول :

ـــ ما أشد غبائي .. فقد خدعتني الأضباغ على وجهك فحالت بيني وبين الحقيقة .. !

وجذب مادهو ضيفه في اضطراب الى الحجرة التي خصصها له . وعندما جلسا وحدهما قال شاندور :

ـــ ما أجمل شقيقاتك وأفتنهن ! وما أسعدني بالحصول على عروس منهن تزيل وحشتي وتملأ وحدتي وتنزع حرمان قلبي .

وأجابه مادهو في ابتسامة راضية :

ـــ إذا أردت أن تسعد حقا فأنا أرشح لك « زهرة اللوتس » .. فهي مثال الرقة والعفة وعلو النفس .

وهز شاندور رأسه وهو يقول :

ـــ حقا .. حقا .. ان لها لصفات حميدة كثيرة .. ولكن هناك سنها .. !

اجابه مادهو :

ـــ لا تخدعنك الظواهر . ومع هذا أليست الكبرى هي اقدر الجميع على الفهم والادراك واكثرهن اهتماما بأمور الزوج وحاجات البيت .؟

قال شاندور :

ـــ أعلم هذا . ولكن السن تراني سريع الغضب عنيف الرد ، وقد تعجز فتاة مثلها عن إرضائي ؟ ومع ذلك فهي لا أميل إليها ولا أبغيها .. !؟

قال مادهو :

ـــ لتكن الثانية إذن .. موزاري .. إنها مثال اللطف والسماحة والبراعة في الحب والإرضاء .

هز شاندور رأسه وقال :

ـــ لنفرض أنني لا أجد مايجذبني اليها . فماذا يكون الأمر .. ؟!

اجاب مادهو :

ـــ لتكن احق بالثالثة .. رادها .. فهي أقدرهن على خلق السعادة وملء جو البيت فرحا وبهجة .

قال شاندور :

— حسبنا أثنين ...

وقاطعه مادهو :

— يبقى بعد ذلك أثنتان .. يادافا ، واسولا . ودعتنا من أمر نور الفجر فما زالت صغيرة يافعة ..!

وسكت شاندور ، وسرح ببصره في شرود . ثم قال وهو يهمس :

— إنها لطيفة ...

واسرع مادهو قائلا :

— بل إنها غاية في اللطف والرقة .. وهي افضل من جميع الأخريات إذ هي خلو من كل العيوب .. !

وانتهز الضابط الفرصة وهتف :

— إذن للأخريات عيوب ! ؟

وعض مادهو على نواجذه لزلة لسانه . ولم يجد إلا أن يقول له :

— إن بوسعك على أي حال أن تختبرهن بنفسك . وستجد متسعا لذلك خلال الساعات الأربع والعشرين التي سنقضيها بيننا . وأؤكد لك انك ستجد كل واحدة من الفتيات خيرا من الأخرى حتى لتعجز عن اختيار أفضلهن ..!

ووافق الضابط على فكرة الاختبار ، وقرر أن يختبر كل واحدة من الفتيات على حدة ... يجلس إليهما فترة في المساء ، يتحدث إليها ، ويستشف أخلاقها وثقافتها ويقارنها بالأخريات .

وقبل أن يهبط الليل خرج الجميع الى الحديقة ، وراح شاندور يجرب أمامهن قوسه وسهامه ، فيصفقن له كلما أصاب هدفا . وظلوا على ذلك حتى جاء المساء .

وهنا بدأ الاختبار .. وكانت « زهرة اللوتس » قد ذهبت الى مطبخ الدار تصنع عجة . فحمد شاندور للقدر تلك الفرصة وجلس مع الفتاة التي تليها « موراري » .

لم تكد موراري تدخل قاعة الجلوس حتى تثاءبت . وعندما دعاها للجلوس ليتبادلا الحديث قالت له :

— مادمت تريد أن نتحدث .. فأرجو ان تحضر ذلك المقعد الذي في أقصى الغرفة لأجلس عليه ..!

ونهض « سانفو » من مكانه ليقدم لها المقعد وعندئذ لمحت في يده مروحة صغيرة فقالت له :

— ما أشد الحر هنا ! ألست ترى انني ، وانا امرأة ، أحق منك بهذه المروحة !

وقدم لها «سانفو» مروحته في هدوء . فامسكتها بيدها وظلت في جلستها ساكنة والعرق يغشى جبهتها وخديها . وعندما ازداد عرقها قال لها الضابط :

— حركي المروحة حتى تدفع الحر عنك .. !

قالت له وهي لاتزال ساكنة :

— إنني تعبة .. فهل لك يا عزيزي ان تأمر الخادم بتأدية تلك المهمة ! ؟

وانحنى التابع في سخرية ، وامسك المروحة وراح يحركها أمام وجهها ليخفف عنها الحر . اما الضابط فقد اخذ يحدثها في شئون شتى .. يتنقل بها من حديث الى حديث ، فلا يجد جوابا بأكثر من لا او نعم . وخيل إليه انها قد استكثرت حتى الاجابة باحداهما عند ما وجدها لاتجيبه . وبعد لحظات سمع غطيطا خفيفا يتصاعد مع زفرات موراري .. لقد كانت نائمة .. ! !

وتناول الضابط المروحة فالقاها على وجهها فلم تتحرك ، فنهض من مكانه ليغادر القاعة ، واذا ضحكة صاخبة تنطلق لدى الباب .. فاطل فاذا « زهرة اللوتس » التي كانت تسترق السمع تدخل القاعة هاتفة :

— هل نامت الكسول كالعادة .. ؟ إن هذا هو عيبها الذي تفشل دائما في إخفائه .

وتقدمت «زهرة اللوتس» من اختها ورائحة تهزها في عنف .. فلما استيقظت وادركت ماكان ، صرخت باكية ، وغادرت القاعة في خطوات سريعة متعثرة وهي تخفي وجهها بين يديها في خجل شديد ..

وجلست « زهرة اللوتس » بجوار الضابط . وبدأت تحدثه وتقول :

— لست أدري كيف نامت هذه الكسول .. وهل يطيق الرجل امرأة تنام بين يديه .. ! ؟ انني لايمكن ان أنام حين يحدثني زوجي الحبيب ويتملق نفسي ..

وبينما هما يتحدثان إذا بالشقيقة الثالثة ، راديا ، تدخل القاعة في صخب بلا استئذان ، ثم تهتف في اختها وهي تختلس النظر الى الضابط الجميل :

— أهكذا تهملين العجة وتتركينها على النار حتى تحترق !! لو كنت مكانك لاهتممت بالطعام واتقنت صنعه بدل أن اتركه يفسد .. !

وادركت «زهرة اللوتس» أن اختها تريد أن تنتهز الفرصة لتكشف عيوبها .. فقالت لها ساخرة :

— هل تظنين انك بمسلكك هذا قادرة على إسعاده ؟

قالت لها راديا :

— بالطبع استطيع إسعاده . سأهتم دائما بطعامه واتقن صنعه ، سأقدم له حساء السلحفاة في الصباح متى استيقظ من النوم ، واقدم له الفطائر

المحشوة في الثامنة . وفي التاسعة أكون قد أحضرت له الافطار وفيه طبق من المربى التي أتقن صنعها بيدي . ومتى جاءت العاشرة أكون قد صنعت له طبقا من الأرز بالتوابل . أما في الحادية عشرة فسيكون اللحم قد تم طهوه بأقدميه له . وعندما يحل الظهر أكون . . .

وصرخ شاندور يقاطعها :

— كفى كفى يا آلسستي فمن المستحيل أن آكل كل هذا . . !

قالت رادها في زهو :

— إنني احب الطعام . ولذلك لايمكن ان اترك «العجة» تحترق . . .

وتذكرت «العجة» المتروكة على النار . فغادرت القاعة وانطلقت الى المطبخ . . . وابتسمت « زهرة اللوتس » في ارتياح ، فقد اقتنعت أن الضابط قد ادرك عيوب « رادها » كما أدرك من قبل عيوب موراري . وهكذا اختفت من أمامها منافستان خطيرتان .

وعادت « زهرة اللوتس » تتحدث من أختيها ، وتنبسط في ذكر معايبهما . وبينما هي كذلك إذ انحنى التابع على ضابطه وأسر اليه كلمات ابتسم لها في سخرية . وغاظ هذا التصرف « زهرة اللوتس » وظنته يسخر بها فهتفت في عنف :

— منذ متى يتدخل الخدم في أحاديث سادتهم ؟

وسكت « سانفو » وهو يكظم غيظه ، حين حاول شاندور تهدئتها وتغيير مجرى الحديث وقال :

— وكيف تستطيعين انت إسعاد زوجك ؟!

اجابته زهرة اللوتس :

— الا يكفي لاسعاد زوجي أن أبدأ حياتي معه بصداق كبير . . أكبر من صداق كل إخوتي إذ انني اكبرهن . . ! ؟

قال لها شاندور :

— انا لا أهتم بالصداق أو المال . . فأنا أملك منه مايزيد على حاجتي . . !

وتذكرت «زهرة اللوتس» أنها لم تنفذ النصائح التي قرأتها في كتاب « فن الحب » . وحاولت ان تتذكر شيئا من تلك النصائح دون جدوى .

ونهضت « زهرة اللوتس » تستأذن في الانصراف قليلا . . وفي ذهنها أن تذهب الى حجرتها لتعيد قراءة « فن الحب » .

وعندما غادرت «زهرة اللوتس» القاعة . . ظهرت « اسولا » بالباب تختال رشاقة وهي تنحني وتستأذن في الدخول . وهمس الضابط كأنما يحدث نفسه :

— لقد ذهبت الكسول ، والأكول ، وسليطة اللسان . فماذا يكون وراءك انت . . ! !

واستقبل الضابط « اسولا » في ترحاب . ودعاها الى الجلوس وهو يقول :

— ما أقبحني إذ أنسى الاسماء دائما . ! أليس اسمك أ . . س . . . ؟

واسرعت اسولا تقاطعه :

— اسولا . . اسمي اسولا . . وإن شقيقاتي يسمينني « ذات الأنف المثلج » !

وفتح الضابط عينيه في دهشة وقال :

— ولماذا يطلقن عليك ذلك الاسم ؟

اجابت الفتاة وهي تضحك في مرح :

— لان جسمي يصطك بردا في أشد الأيام قيظا . . ! »

وهز شاندور كتفيه وهو يقول :

— مهما يكن الامر فأنا لا أهتم بالجسد بقدرما اهتم بالروح . ولهذا فاريد أن اسألك اولا سؤالا لم استطع أن أجد جوابه عند شقيقاتك ، مما يجعلني انصرف عن زواجهن . . . كيف تستطيعين إسعاد زوجك وما وسائلك الى راحته ؟

قالت له اسولا :

— ليس الأمر عسيرا قط . . فهناك وسيلة واحدة شاملة لاسعاده . . هي ان افعل كل مايريد .

قال لها وهو يفتح عينيه دهشة :

— ماذا تقصدين بكل مايريد . . ؟

اجابت اسولا :

— اعني كل شيء ، فعلى المرأة أن تطيع زوجها ، والا تكون كسولا او اكولا ، أو سليطة اللسان .

واهتز شاندور طربا وشعر كأنه قد وجد بغيته . وعاد يسألها :

— وهل هناك وسائل أخرى لاسعاد زوجك ؟

قالت الفتاة :

— إذا لم يكن يكفيه هذا فأنا استطيع ان اجذبه إلي بمختلف الوسائل الاربع والستين التي ذكرها الإله كاما في كتابه .

وامتلأت نفس الضابط غبطة وراحة وسرورا . فقد أيقن أنها هي الزوجة التي تستطيع ان تجعل من بيت زوجها جنة . . وقال لها :

— إنك نعم الزوجة يا اسولا . . خاصة إذا كنت تعرفين الرقص .

وضحكت اسولا . . فقد كانت بارعة في الرقص .

ونهضت في رشاقة تقدم رقصة مثل رقصة شيفا .. لم تكد تستمر فيها حتى انطلقت من فم سانفو ضحكة جهد أن يخفيها . ولم تكد أسولا تراه يضحك حتى اقتربت منه ومدت كفها فصفعته في غضب وهي تصرخ :

— أيها العبد .. خذ هذه لك .. !

ونهض شاندور غاضبا وصرخ فيها :

— لماذا فعلت هذا !؟

فمدت أسولا يدها من جديد وهبطت بصفعة أخرى على خد سانفو قائلة :

— وهذه لسيدك .. !

وانطلقت أسولا .. الى خارج القاعة !

وفي تلك اللحظة كانت « بادافا » تتنزه في الحديقة ، وعندما أحست ضجة في القاعة أسرعت لترى ما هناك . فوجدت شاندور منحنيا على « سانفو » يخفف عنه ما أصابه . وعندما شهدها شاندور ، اعتدل في وقفته واستعد لاستقبالها . غير أنها أدارت ظهرها وانطلقت وهي تقول في صوت مسموع :

— الا ما أحقر سيدا ينحني على خادمه .. ! إنما أريد أن أتزوج سيدا يحترم نفسه لا سيدا يحترم عبده .. !!

وذهل شاندور . وجلس على مقعده وراح يفكر . لقد كان من العجيب الا يجد بين ست فتيات واحدة فقط تصلح للزواج .. وتخلو من العيوب .. فالأولى كسول ، والثانية أكول ، والثالثة سليطة اللسان ، والرابعة طويلة اليد ، والخامسة مغرورة يملؤها الكبر . والسادسة ....

ولكن أين هي السادسة .. نور الفجر ؟ إنه لم يختبرها بعد ، ولم تحاول هي الحضور إليه كما تتابعت شقيقاتها الأخريات .. !

وقرر أن يذهب هو ليراها ...

وتسلل شاندور من القاعة ، وسار في خفة حتى بلغ غرفة مسدلة الستائر ، وأطل من خلال أحد الثقوب ، فإذا « نور الفجر » رائعة وديعة .. جالسة في هدوء تكتب على الورق . ووقف فترة طويلة يتأملها ، ثم سمح لنفسه أن يدخل الغرفة بغير استئذان . وانحنى أمامها معتذرا على جرأته في اقتحام عزلتها ، وقال لها في أدب :

— هل أستطيع أن أسمح لنفسي بسؤالك عما تكتبين .. ؟!

وترددت « نور الفجر » لحظات .. ثم أجابته في بساطة وخجل :

— كنت أنظم قصيدة ...

قال الضابط :

— هل أستطيع أن أسمع بعض أبياتها .. !؟

ورفضت الفتاة في خجل . غير أنه ألح عليها . فخجلت من الرفض ، وفتحت الورقة وراحت تقرأ له ماكتبته .. لقد كانت أبياتا رائعة من شعر الحب .

قال لها وقد سمح لنفسه أن يجلس :

— ما أروع معانيها ، وما أرق ألفاظها ! انها لتكاد تحكي روعة جمالك ورقيق نفسك ، وتكشف الفرق الكبير بينك وبين شقيقاتك الأخريات .

وقالت له نور الفجر :

— إن شقيقاتي جميعا لطيفات .. رقيقات .. ولن تجد خيرا منهن زوجات .. !

قال شاندور :

— بل إن اختيار إحداهن زوجة لأمر شاق . فما وجدت واحدة منهن خالية من العيوب .. !

قالت له نور الفجر :

— لقد فهمتك الآن . فأنت صاحب مثل أعلى تريده في المرأة . إنك تريدها أن تكون رقيقة عذبة ، بعيدة عن الغرور والحسد ، ربة منزل متحفظة ، أي أن تكون حائزة لجميع الصفات الحسنة .. وهذا لا يمكن أن يتوافر في امرأة .. !

هتف شاندور :

— ولكنها متوافرة كلها فيك يانور الفجر .. فهل تقبلين أن أكون زوجك ! ؟

وانطلقت من بين شفتيها كلمة واحدة :

— لا .. !

وفوجىء شاندور ، فما تصور أن تجيب امرأة على عرضه بالرفض . وأحست الفتاة مقدار الصدمة التي أصابته بها . ولكنها قررت أن تواجهه بحقيقة رأيها فيه :

— إنك ياسيدي تظن نفسك مالك رقاب .. يكفي أن تزور أسرة لينحني لك كل فرد فيها .. وأن تصدر أمرك فيتلهف الجميع إلى إرضائك . انك مستهتر مغرور ياسيد شاندور ، ولن يشرف امرأة ، أن تقبلك زوجا .. لأنك تستهين بالمرأة وتحتقرها .. وترى فيها محظية فحسب .. !

وأراد شاندور أن يحتج ويعترض .. غير أنها لم تمكنه ، واستطردت :

— إذا كنت ترى أنني كاذبة فيما أقول .. فهل تقسم على أن هذا لايدور في خاطرك ! ؟

وسكت شاندور . وراحت مظاهر الاعجاب المختلط

بالدهشة تتصارع في أعماقه .. وهنا قالت :

ـــ إن سكوتك يعني أنني صادقة . ومع هذا فانا لا أستطيع أن أنكر أنك نلت إعجابي . وأنني اذا فكرت في قبولك زوجا فان لي شروطا أنا الأخرى .

وهتف شاندور مغضبا :

ـــ شروط .. !! أظنك تظنين نفسك خير النساء .. لا يا سيدتي .. إنك لمغرورة متكبرة تغالين في تقدير صفاتك ..

قالت له في ابتسام :

ـــ إذا كنت مغرورة فلدي ما أغتر به . أما أنت فماذا لديك .. أتراك كريما .. أم ذكيا !! إنك لاتستطيع أن تنكر أنك كسول .. !

وضرب شاندور الأرض بقدمه في غيظ . ونهض من مكانه وغادر الدار مغضبا . وقد أقسم ألا يتزوج على الإطلاق .. !

* * *

في اليوم التالي انطلق مادجو ومعه شقيقاته الخمس الى الوزير ، وقد قررن أن ينتقمن من الضابط الذي رفض زواج إحداهن . ولم تكن « نور الفجر » قد ذهبت معهن ؛ فقد أبت أن تشترك في عمل لا ترتاح له تعليماتها ، أو هي في الحق كانت قد أحبت الفتى فاستكثرت أن تشترك في مؤامرة تدبر ضده ..

ووقف مادجو يطلب من الوزير إنزال النقمة بشاندور . غير أن الوزير لم يجد في مواد القانون مايجعله يصدر حكما على شاندور .. ولم يكد يعلن ذلك حتى هتفت مرارى :

ـــ هناك قانون يا سيدي يعاقب من لايدفع الضرائب . وشاندور لا يدفع الضرائب قط رغم غناه .

وهتف الوزير :

ـــ فكرة صائبة يا ابنتي .. فلنستدعه للتحقيق .. !

وأرسل الوزير جنوده لاستدعاء الضابط . وعندما يحضر كان الوزير جالسا في حجرة جانبية يدبر الأمر مع مادجو .. في حين كانت الفتيات الخمس يجلسن مع « أونا » زوجة الوزير التي راحت تستمع الى وصفهن له في إعجاب .. ظل يزداد ويزداد حتى دخل الضابط القاعة . فأحست قلبها يخفق بين جنبيها ، ودار رأسها في سرعة وأخذت تدبر أشياء أخرى غريبة ..

تقدمت « أونا » من الضابط وقالت له :

ـــ لماذا ترفض دفع الضرائب أيها الضابط .. ؟!

أجابها شاندور :

ـــ ولماذا أدفعها .. ؟!

قالت له :

ـــ إن الضرائب تضمن للوزير حسن سير أمور الولاية .

قال لها :

ـــ وإذا كنت لا أرى أن شئون الولاية تسير سيرا حسنا .. ! ؟ بل أراها تسير من سيىء الى أسوأ ..

وكان الوزير قد دخل في تلك اللحظة .. فأثاره رد الضابط ، وأصدر أمره في الحال باحتجازه حتى يتم التحقيق ...

واقتيد الضابط الى غرفة الحجز .. في حين كانت « أونا » تتبعه بنظرات تشتعل برغبة متأججة .

وبينما هو في غرفة الحجز ، إذ أطل عليه من خارج النافذة وجه كان يعرفه جيدا .. إنه وجه « نور الفجر » ، التي لم يستطع أن ينساها منذ غادر دار أخيها حتى تلك اللحظة التي ظهرت له فيها وهو غارق في ظلمات السجن ...

وهمست الفتاة :

ـــ أيها الضابط .. أسرع بالفرار .. وخذ هذه الأدوات فاكسر بها نافذة السجن لتفر .. !

وهز شاندور رأسه وقال لها :

ـــ ولماذا أهرب !! إنني أعرف جيدا كيف أرد على التهم التي يريدون إلصاقها بي ...

ولكن نور الفجر هتفت فيه متوسلة :

ـــ ان المسألة أدق وأخطر من كل مايبدو لك .. فهناك مؤامرة تدبر ضدك . فاهرب في الحال أو ادفع لهم الضرائب التي يطلبونها منك قبل أن يلصقوا بك تهمة الاعتداء على الحكومة ... !

قال شاندور :

ـــ لن أدفع حتى أعرف سر الأمر بالقبض علي . ومع هذا فما سر اهتمامك بي .. ؟!

أجابت الفتاة :

ـــ لقد شعرت بالخطر الذي يحيط بك . ولقد كرهتك عندما كانت النساء يتلهفن عليك .. أما الآن، وأنا أحس الخطر المحدق بك ؛ فلا يسعني إلا أن أسرع اليك لأنقذك .. فأنا .. أنا .. أنا أحبك .. ! ؟

وفي تلك اللحظة سمع وقع أقدام الوزير . فاختفت نور الفجر .. في حين دخل الوزير والحكيم وأونا والفتيات الخمس . ووقف الوزير يقرأ الحكم الذي أصدره على المتهم :

ـــ لقد حكمنا عليك أيها الضابط بالحرمان لمدة عام

كامل من الحب ، فاذا خالفت القرار كان عقابك الموت . كما تعاقب بالموت أيضا كل امرأة تشاركك الحب خلال تلك المدة . . !

وطربت الفتيات الخمس وصفقن شماتة ، في حين رنت « أونا » الى زوجها الوزير وهي تغمز بعينيها . .

وملأ الأسى قلب شاندور . . وفي لحظة كان قد ارتمى على قدمي مادهو وهو يهتف :

ـــ إني أرتمي على قدميك أيها الحكيم طالبا يد نور الفجر . . !

وصمتت الفتيات . . بينما كانت نور الفجر تدخل من الباب . وتحول الجميع اليها فاذا بها تقف في جرأة وتعلن انها تحب شاندور . . وانها لن تتزوج سواه .

وهتفت «زهرة اللوتس» في غيظ وشماتة :

ـــ ولكن الحكم يحرم على الضابط الحب ولو ارتبطت معه برباط الزواج . . .

هز الفتى كتفيه وقد ارتاح لاعتراف نور الفجر . وقال :

ـــ من اجل أن أكون جديرا بنور الفجر . . أقبل أن أظل عاما كاملا محروما من نيل ثمار حبي . . !

وتحول الحكيم الى أخته وقال لها :

ـــ إن من المستحيل يا شقيقتي أن يظل رجل وفيا لامرأة بعيدة عنه عاما بأكمله . فلا تصدقيه . . ومع هذا فان عليه أن يدفع أيضا الضرائب كاملة . . !

فصاح شاندور :

ـــ لا . . لن أدفع . . !

وعندما رأى الحكيم جرأة أخته ، وتصميم الضابط . . أمر اثنين من أعوانه باقتياد نور الفجر الى البيت وحبسها هناك حتى لا تحاول الاتصال بالضابط السجين .

وبينما كان الجميع يغادرون غرفة السجن . . تأخرت « أونا » لتهمس في أذن الضابط :

ـــ إنك الآن تتحدى النساء . . ولكنك ستثوب الى رشدك بعد حرمان شهر كامل منهن . وسأكون عندك أنا بعد انقضاء تلك المدة . . وسترى يومئذ انك سترتمي تحت أقدامي أنا . . . ملتمسا حبي . . !

وضحك شاندور في سخرية فقد أقسم ان يكون وفيا لنور الفجر مهما طال به الحرمان . . ولو تجاوز العام . . .

والحق أن شاندور قد أثبت وفاءه للعهد . . فبرغم أن الحكيم ترك «زهرة اللوتس» لتراقب تنفيذ الحكم على الضابط بالابتعاد عن حب النساء . . وبرغم محاولات «أونا» خلال زياراتها له في السجن لاغرائه بحبها . . ظل شاندور ثابتا على وفائه لنور الفجر . . ساخرا بكل رقابة . . مقاوما كل إغراء ، متيرا بتلك المقاومة قلوب كل الناس الذين راحوا يهاجمون الوزير لقسوة الحكم الذى أصدره على الفتى . . ويتهمونه بالسماح لامرأته بالتدخل في شئون الحكم وإصدار أحكامه كما تهوى النساء . . !

وازدادت ثورة الرأى العام ضد الحاكم . . واضطر آخر الأمر صونا لكرامته الى الذهاب الى مادهو ودفع مبلغ كبير له كهدية صداق لاغرائه على قبول زواج الضابط بنور الفجر . . ودفع الضرائب المتأخرة من الهدية . . !

وانطلق مادهو الى شاندور في سجنه . . وعندما دخل عليه تلقاه بين ذراعيه . . وقال له :

ـــ دعني أهنئك على ثباتك في حبك لنور الفجر . ولا تظن انني قصدت أن أسبب لك كل تلك المتاعب ، فانما كنت أريد أن أختبر قوة حبك وإخلاصك لها . وهأنذا أقدم لك أختي نور الفجر لتكون زوجتك . . أما الضرائب المتأخرة عليك . . فقد ذهبت الى الوزير بنفسي ودفعتها . . وهكذا سقط عنك الحكم . . !

وفي اليوم نفسه تم زواج العروسين . ومدت زهرة اللوتس يدها بنفسها فوق رأس أختها الصغرى تبارك زواجها . . وتتمنى لها التوفيق !





ابن السماء .. هو الاسم الذي يطلقه اليابانيون على الميكادو .. الجالس على عرش اليابان ، ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكادو يمتد بضعة آلاف من السنوات .. إلى زمن لم يكن فيه شيء قط .. سوى آلهة تعد ذكرا وأنثى .. لم تموت .. حتى جاء يوم [illegible] فيه إلهان شابان من اتصال الذكر بالأنثى من الضفادع .. فبدأت قصة الخلق .. وجاء ابن السماء .. !



واصبح ابن السماء نينيجى سيدا على الارض جميعها

على رأس قوس قزح .. ذلك الجسر الرائع الذى ينحدر من السماء الى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائى .. وقف الاله الشاب إيزاناجى وفوق رأسه إكليل من النور ، يطل فى حيرة الى رفيقته الالهة إيزانامى ، بجمالها الرائع وشعرها يسترسل على كتفيها كأسلاك الذهب .

كانت الحيرة تملأ رأسى الالهين الشابين ، فقد يدركان خطورة المهمة التى عهد بها اليهما مجتمع الآلهة ، حين أصدروا اليهما أوامرهم بالهبوط من السماء ليخلقا أرضا يقيمان على سطحها الحياة .. !

ووقف الالهان الشابان يحدقان فى المياه الصاخبة التى تهدر عند نهاية الجسر .. أيمكن أن يكون هناك شيء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقرا للعالم الذى كلفا أن يخلقا فوقه الحياة .. ! ؟

وبدا لايزاناجى ان يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجواهر صفحة الماء عله يجد الأرض ، غير أن شيئا صلبا لم يحتك بالرمح قط .. ويئس الاله فرفع رمحه . ولم يكد يفعل حتى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتصلب وتمتد فوق صفحة المحيط ، لتصبح أرضا صلبة واسعة .. كانت هى نفسها جزيرة انوجورو .

وعلى سطح هذه الأرض هبط الالهان .. وبدأت قصة الخلق ...

* * *

لم تكد أقدام الالهين تمس الأرض الجديدة ، حتى أحس كل منهما رهبة ضخمة وهو يطل الى عين الآخر . وشعرا كأن شيئا غريبا حارا يضطرب في صدريهما . وبدا لهما كأن كلا منهما يرى الآخر أول مرة ..

لقد كان هناك شيء جديد غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض .. شيء اسمه الحب .. !

وكما لم يحدث لهما في السماء من قبل ، بدأ إيزاناجي يرى في إيزانامي أشياء أخرى جديدة رائعة ، أحسها جيدا وهو يتأمل شعرها الطويل ، وعينيها السوداوين ، وشفتيها الساخنتين ، وذراعيها البضتين ، وقوامها الفارع المشوق . ولم تكن إيزانامي هي الأخرى أقل منه إعجابا به .. فقد وجدت أمامها شابا رائعا ، في صدره قوة ، وفي ذراعيه متعة ، وفي نظراته دعوات كأنها السحر ...

وراحت الربة الحسناء تتأمله في اعجاب وهو يقيم معهما ميدانا منه دورتين يكتشفان خلالهما هذه الأرض الجديدة .. ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى ...

وبدأ كل منهما دورته .. فأخذ إيزاناجي أحد الاتجاهين ، وسارت إيزانامي في الاتجاه المضاد ...

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطيء الجزيرة ، أخذا يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال . وأخذ بهما العجب وهما يكتشفان سر اتصال الذكر بالأنثى .. وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل ...

وهكذا لم تكد إيزانامي تصل الى النصب وتلتقي بإيزاناجي ، حتى بادرته وفي عينيها فرح كبير .

ـــ ما أقواك يا إيزاناجي .. وما أشوقني الى أن أتزوجك كما تتزوج هذه الضفادع .. !

واضطرب ايزاناجي .. فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام . وبدا على وجهه غضب كبير وهو يهتف فيها :

ـــ كيف .. وأنت امرأة .. تتكلمين أولا ؟ إنني أنا الرجل .. وبهذا الحق كان يجب ان أبدأ أنا الكلام .. إن هذا لنذير سوء ..!

وبكت إيزانامي ، وطأطأت رأسها الى الأرض . وبدأ الهدوء يعود الى إيزاناجي ، وهو يرى دموعها الالهية أول مرة .. وقال لها :

ـــ لنستأنف الدوران من جديد . واحذري أن تبدئي الكلام متى التقينا .. !

وعاد الالهان يستأنفان الدوران حول الأرض . وفي هذه المرة .. عندما التقيا عند النصب الكبير .. بادرها إيزاناجي بالحديث وهو يقول :

ـــ إيزانامي .. ما أبهجني إذ التقي بعروس حسناء مثلك .. فهل تقبل الحسناء أن تكون زوجا وزوجة .. ! ؟

وأومأت إيزانامي برأسها ...

وهكذا تزوج الالهان .. !

ولم يكد يمضي من الوقت سوى قليل ، حتى أنجبت إيزانامي أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان .. بكل ما فيها من جبال وصخور وأنهار .. وبكل مايعمرها من أناس وحيوان ونبات .. ! !

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان . وقالت إيزانامي لزوجها ايزاناجي :

ـــ لقد أنجبنا هذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأها بالحياة .. فلم لا نخلق ابنا جديدا يكون سيدا لكل الأرض .. ! ؟

ولم يكن هناك مايمنع التنفيذ ...

وولدت إيزانامي أنثى هي أماتيراسو .. ربة الشمس .. التي بلغت من الروعة والجمال حدا جعل والديها يقرران إرسالها على الجسر [illegible] الى السماء .. لتستقر هناك .. ولترسل أشعتها الذهبية البراقة لتنير الارض .. !

وعاد الالهان ينجبان من جديد ..

وكان الابن الثاني هو تسوكي يومي .. إله القمر الذي كان تألقه الفضي أقل روعة من تألق شقيقته . إلا انه بدا خليقا بأن يكون رفيقا لها ، فأرسلاه أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر في السماء ..

غير أن الأخوين سرعان ماتشاجرا واختلفا . وصرخت أماتيراسو في أخيها تسوكي يومي ذات يوم :

ـــ إنك دعي محتال .. إنني أكرهك .. ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن .. !

وذهب تسوكي يومي الى أبيه يشكو أخته . فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن الآخر .. ومنح أماتيراسو مملكة النهار ، كما منح أخاها تسوكي يومي مملكة الليل .. !

واستمر الابن والأم ينجبان ...

وكان الوليد الجديد هو سوزانو ، الذي لم يكد يهبط على الأرض ، حتى اثار صخبا وضجيجا وزوابع جعلت منه رب العواصف . واضطر ابوه أن يسلمه مملكة البحر بأمواجها التي تبلغ ثمانمائة الف موجة .. !

ولم تكن إيزانامي قد اكتفت بالأبناء بعد ...

وكان الوليد الجديد الذي انجبته هذه المرة هو كاجوتسوتشي ، رب النار ، الذي لم يكد يولد حتى اصاب امه بحمى قاسية شديدة .. احرقتها .. !

وكان لابد لايزانامي بعد ذلك ان تنحدر الى العالم السفلي .. بعيدا عن الأرض التي خلقتها .. !

* * *

اختفت ربة الأرض ، وبقي زوجها وحيدا شقيا لايجد لحياته معنى على الاطلاق . وكان إيزاناجي يعلم أن الأموات عندما ينتقلون الى العالم السفلي لايدركهم الفناء ، بل يعيشون هناك حياة اخرى جديدة . وكان يعلم ان سيأتي يوم يذهب هو الآخر فيه الى العالم السفلي حيث يلتقي بزوجته ...

لكن إيزاناجي ، لطول ما حزن وتألم لفراق زوجته ، لم يطق انتظار ذلك اليوم ، وقرر ان يذهب بنفسه الى ارض الجحيم ليراها ، وليحاول انتزاعها من هناك والعودة بها الى الأرض !

وانطلق إيزاناجي الى المنفذ الذي يفصل بين الارض والعالم السفلي ، وانحدر منه الى مملكة الجحيم ، حيث الظلمة تغطي على كل شيء ، وراح يجوب الطرقات المظلمة محاولا اختراق حجب الظلمة ببصره بحثا عن زوجته الحبيبة .. ولكن دون جدوى .

وحين ملأ اليأس قلب إيزاناجي من العثور عليها ؛ قرر العودة الى سطح الأرض ليحبس نفسه حتى يقضي عليه بالذهاب الى عالم الظلمات .. !

وبينما هو يدير قدميه ليعود ادراجه ، فوجيء بصوت رقيق يهمس في اذنه :

ــ هذا انت يازوجي الحبيب . الا ما اسعدني بلقياك .. وما اعظم الشرف الذي اضفيته على بمجيئك بحثا عني في عالم الظلمات .. !

والتفت إيزاناجي الى حيث مصدر الصوت ، وحاول ان يرى زوجته ، ولكن الظلمة الحالكة لم تكن تبدي له شيئا قط .

وقال يخاطب صوت إيزانامي :

ــ زوجتي الحبيبة .. تعالي إلي .. اقتربي مني .. لقد اخترقت من اجلك كل هذه الظلمات .. عودي معي الى عالم النور .. الى الارض التي لاتزال تنتظر منا الكثير ...

وسمع إيزاناجي صوت إيزانامي يقول :

ــ ابدا يا زوجي الحبيب .. لقد مضى الوقت الذي كان يمكن أن اعود فيه اليك .. فقد جئت متأخرا جدا .. إذ اكلت منذ لحظات طعام الجحيم الذي لا يستطيع من يذوقه إلا أن يستلقي ليستريح في عالم الظلمات . فاذهب أيها العزيز .. اذهب ولا تحاول الاقتراب مني أو النظر إلي او رؤية وجهي .. فالقانون هنا صارم مخيف .. لايسمح فيه للأموات ان يراهم الاحياء قط .. !

وصرخ إيزاناجي .. ايمكن بعد كل تلك المتاعب التي لقيها خلال رحلته الشاقة عبر العالم السفلي ، ان يعود بغير ان يراها ..؟! ابدا .. إنه لن يستطيع العودة بغير رؤية زوجته الحبيبة .. !

وبرغم الوعد الذي قطعه على نفسه بالا يحاول رؤيتها ، فقد وجد نفسه آخر الأمر ، مدفوعا بفضوله وعاطفته معا ، الى ان ينقض الوعد ...

وفي بطء مد إيزاناجي يده الى مشطه المغروز في شعره فانتزعه من مكانه ، وكسر إحدى اسنانه .. ثم اشعل فيه النار .. !

وكان المشهد الذي طلعت عليه عيناه مروعا مخيفا .

ففي اللحظة التي استنار فيها الجحيم .. سقطت إيزانامي في عنف ، وانقلب وجهها الجميل في سرعة بشعا مخيفا ، وانطفأ البريق الرائع الذي كان ينبثق من عينيها فاذا بهما ثقبان غائران مخيفان ، يسري فيهما الدود وينتشر منهما الى كل جزء من الجسد الذي حلله البلى ..

وانطلق صوت إيزانامي ، وهي تتلوى ، مرعدا رهيبا :

ــ خسئت ايها الشقي ... ولتنصب عليك كل لعنات السماء جزاء مانقضت عهدك فألقيتني الى العذاب ولوثتني بالعار .. !

وعادت جثة إيزانامي تتلوى في جنون . فقد التفت عليها آلهة الرعد الثمانية منبثقة من رأسها وثدييها وبطنها وكفيها وقدميها ، وهي ترعد بأصوات قوية بشعة صاخبة ، يهتز لها الجحيم .

واندفع إيزاناجي يجري في رعب مذعور ...

وصرخات إيزانامي الغاضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذي خدعها وألقى بها إلى التهلكة .

واندفعت من أعماق الجحيم زبانية مخيفات في صورة نساء يمثلن القبح والدمامة والشراسة ، اسرعن خلفه ، واستمر هو يجري أمامهن هاربا في متحنيات الجحيم .. حتى إذا وجدهن قد كدن يلحقن بهاسرع فخلع الاكليل الذي يحيط برأسه والقاه نحوهن . وفي لحظة .. تحول الاكليل الى عناقيد من العنب ، لم تكد الزبانية المبشمات ترينها حتى توقفن .. ثم انحنين فوقها يأكلن في شراهة وجوع .. !

وعادت إيزانامي تصرخ في ممسوخ أخريات أن يتبعن الهارب .. واندفعت المسوخ خلفه في قوة حتى كدن يبلغنه ، فمد يده فخلع مشطه والقاه نحوهن . وفي الحال انقلبت أسنان المشط الى عيدان طويلة من القصب سال لها لعاب المسوخ فتوقفن ورحن يلتهمنه في لذة وبأصوات كئزيم الرعد .

واستمرت إيزانامي تصرخ .. وفي هذه المرة انطلق خلف الاله الهارب الف وخمسمائة من جنود الجحيم . فاخرج إيزاناجي سهامه وراح يلقي بها الى الخلف وهو يندفع إلى الامام حتى وجد نفسه آخر الامر قريبا من المنفذ الذي يقوده الى خارج عالم الظلمات .

وفي ذلك الوقت كانت جثة إيزانامي هي التي تجري بنفسها مندفعة خلفه . وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به في الوقت الذي كان هو ينطلق من الثقب الذي يفصل بين العالمين ، ويمد يده الى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون .. !

وسمع إيزانامي تصرخ من الناحية الأخرى :

— انتظرني يازوجي العزيز .. لاتذهب .. لاتقل الوداع .. عد إلى .. فانك إذا هجرتني فسوف أهلك في كل يوم ألف رجل على الأرض .

واجاب إيزاناجي وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم :

— اصنعي ماتريدين فلن أعود .. وسوف اعمل على أن تستقبل الأرض ما لا يقل عن الف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة من العدد الذي سوف تهلكينه .. !

وهكذا هرب إيزاناجي من الجحيم .. وقدرلسكان الأرض أن يموت منهم كل يوم الف شخص .. وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد .

* * *

وبينما كان كل ذلك يجري في أعماق الجحيم ، كان سوزانو — رب العواصف — قد انتهز فرصة غياب والده وراح يلعب دورا آخر على الأرض .

والحق ان «سوزانو» كان ذا خلق عنيف ميال إلى الشر . وكان برغم لحيته الطويلة البيضاء التي تبعث على الاحترام لايدع وقتا يمر إلا ويرسل فيه عويله الطويل ونحيبه الذي يثير التشاؤم في كل النفوس ، ولا يعيأ خلال ذلك بتحطيم كل مايعترض سبيله بسيفه الطويل البتار .

وعندما عاد إيزاناجي ووجد ولده « سوزانو » سادرا في غيه قرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم .

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض . غير أنه اجاب أباه :

— أنا طوع أمرك يا أبتاه .. وساهبط فورا إلى العالم السفلي . ولكني أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لي بالصعود إلى السماء لأرى أختي العزيزة « اماتراسو » قبل أن أختفي من هذا العالم إلى الأبد .

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها مايضر ، فأذن له بالصعود إلى السماء ...

وتحرك « سوزانو » في طريقه إلى السماء .. وفي أثناء صعوده عوت السماء والأرض والبحار والجبال عواء رهيبا مخيفا .

وبلغت الأصوات الرهيبة أذن اماتراسو .. ربة الشمس .. ولما أطلت من عليائها رأت أخاها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعود وبروق .

وارتعدت ربة الشمس وهي تحدث نفسها :

— لماذا يزحف أخي الشرير إلى مملكتي ؟ لخير قدم أخي ياترى أم لشر ؟ ولكن أي خير يمكن أن يفكر فيه هذا الجحود . إنه ولا شك يهدف إلى أن ينحيني عن عرشي .. برغم أن أبوينا حددا لكل منا حدوده .. ليكن إذن مايريد .. وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقابا صارما لاينساه مدى الحياة .

واتخذت اماتراسو اهبتها لمعركة عنيفة رهيبة . فجذبت شعرها الذهبي الطويل وجمعته في عقد كثيرة متألقة ، وثبتت كل جواهرها ولآلئها في العقد الذهبية ، ثم وضعت فوق ظهرها كنانتها وفيها الف سهم ، وامسكت باحدى يديها درعا قوية صلبة وباليد الأخرى قوسا رهيبا ، واندفعت متأهبة فوقفت على

ضفة نهر السماء ، وأزاحت طبقة من الثرى فهيأت لنفسها فيه خندقا غاصت فيه حتى الركبتين ...

على أن كل مافعلته كان عبثا ... فعندما وصل اخوها ووقف على الجانب الآخر من النهر لم يكن يبدو على وجهه شيء من نوايا الشر التي توقعتها . وتحدث اليها سوزانو في هدوء قائلا :

— ما هذا الذي أراه أيتها الأخت ؟ ولأي سبب تستقبلينني هذا الاستقبال العدائي في حين أنا قادم اليك وكلي شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب ؟

وأجابته اماتراسو :

— ولكن ما الذي جعلك تحضر إلى مملكتي بغير إذن مني ؟

أجابها سوزانو :

— لقد قرر أبي نفيي الى عالم الظلمات . ولم أطق الذهاب دون أن أرى شقيقتي الكبرى الحبيبة . ولقد اجتزت على قدمي من أجل أن أراك كل تلك السحب والغيوم وصعدت كل هذا الارتفاع الشاهق بغير سلم أستعين به .. فكيف لا تصيبني الدهشة .. لما أجدك تستقبلينني هذا الاستقبال العدائي ؟

وتقبلت أماتراسو حديث أخيها بشيء من الشك ، فما كانت قسوته وخداعه ليخفيا عليها .. وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر حتى تتأكد من حسن نواياه .

والواقع أن الغطاء البراق الذى كان « سوزانو » يضعه على وجهه سرعان ماانكشف . وكانت اماتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز فى السماء ، بعضها ضيق قصير وبعضها واسع طويل . وما كان أسعدها بهذه الحقول التى زرعتها بأيديها . وعندما جاء وقت بذر البذور فى الربيع اذا بسوزانو يفاجئها يوما بتخريب كل القنوات التى صنعتها ، واذا ثغرات الرى قد سدت ، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميرا .

وثارت ربة الشمس . غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة .

غير أن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ماصنع . واذا به يفاجئها ذات يوم وهى جالسة فى غرفة النسيج السماوية ترقب صناعة أردية الآلهة ، فنقب سقف الغرفة وألقى عليها وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسد غزير .

وذعرت ربة الشمس ، واضطربت حتى كادت تجرح نفسها بإبرة الغزل .. وملأها غضب جبار ، وتحول وجهها إلى لون أحمر قان كالدم . وأطبقت قبضتها من جديد تلوى كل خيوط شعرها الطويل ، وأقسمت فى صوت كالرعد على أن تترك عرشها احتجاجا على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقى الفظ بالبقاء فى مملكتها .

وأسرعت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء، واندفعت إلى كهف ضيق فدخلته ، وأحكمت إغلاق بابه خلفها ، وقبعت بداخله تبكى وتنتحب .

وغمر الظلام العالم ، ولم يعد هناك ليل أو نهار ، ولا نور أو ضياء .

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بآلهة السماء . واجتمع الآلهة الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين إله على شاطىء نهر السماء . وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب الهول الأعظم الذي حل على الأرض ...

وكان لابد للجميع أن يفكروا فى وسيلة يمكن بها إقناع ربة الشمس بالعودة الى عرشها العظيم . واستمرت المناقشات طويلة هادرة لم تستقر وتهدأ إلا حين خرج عليهم رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جديرة بالنجاح .

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته إن ربة الشمس أنثى .. وكل النساء يمكن التأثير عليهن إذا شحذت غيرتهن وأثير فضولهن وأغرين بالزينة واللآلىء والجواهر البراقة .. وكل ذلك يمكن أن نقدمه لربة الشمس إذا أتيتمونى بمرآة مصقولة أضعها فى مواجهة باب الكهف وزودتمونى بعقود علوية من الجواهر واللآلىء .. !

وجمع بعض الآلهة نجوما من السماء ضموا بعضها إلى بعض لتؤلف مرآة رائعة . وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيورا صداحة من كل جوانب العالم الخالية ، فى حين شرع آخرون يبتدعون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاما لاتصدر إلا من السماء.

وعندما تم إعداد كل شىء انطلق الآلهة مجتمعين إلى الكهف الذى تختفى بداخله ربة الشمس ، وتجمعوا أمامه فى حفل صاخب عربيد ، حين كان رب الحيلة يغطى فروع شجرة الساكى التى تواجه الكهف بعقود من أثمن المجوهرات وعناقيد من روائع اللآلىء، وفى وسط الشجرة فيما يواجه باب الكهف أقام رب الحيلة المرآة السماوية المصقولة .

ومن كل جانب انطلقت ألحان شجية صدحت بها طيور الخلود .. وعلى أنغامها راحت ربة الرقص أوزوم في ردائها القدسي ترقص رقصا هازلا عربيدا انفجر له الآلهة جميعا ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون ..

ومن وراء باب الكهف كانت ربة الشمس تنصت إلى الصخب والضجيج في استغراب وعجب كبيرين . وعندما ازداد فضولها وثارت بها الرغبة في كشف سر ذلك السرور الذي يملأ المكان فتحت الباب قليلا في هدوء .. وفي هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذي كانت الظلمة تغمره ، وامتدت خيوط الذهب في الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذي يبعث الحياة .

وشهدت ربة الشمس المجتمع الالهي الذي كان يضحك في سرور وانطلاق .. وأخذت تتساءل عن سره .. فأجابتها ربة الرقص أوزوم :

ـ تسألينا عن سر صخبنا وفرحنا .. ؟! إذن فاعلمي أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالا وروعة .. !

وفتحت ربة الشمس عينيها في استغراب وقلق .

وبدأت تدور بعينيها في الجمع الحاشد علها تستطيع أن ترى منافستها .. واضطرت من أجل أن ترى المجموعة كلها أن تفتح الباب كله وتطل أمامها ... وعندئذ عكست المرآة المصقولة الصورة الرائعة لربة الشمس .. تتألق حسنا وروعة وبهاء .

وملأ القلق الربة وهي ترى أمامها هذه الحسناء الرائعة التي تواجهها . وبدأت تغادر الكهف لتزداد قربا من الربة الجديدة .. وهي لاتدري أنها إنما كانت تقترب من المرآة .

ومد أحد الأرباب يده ليمسك بيدها .. في حين كان رب آخر ينصب وراءها حبلا من قش ليمنعها من العودة إلى الكهف ...

وعندما أدركت ربة الشمس الخدعة ، لم تغضب ولم تصر على العودة .. بل أبدت موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف ..

وفي لحظة .. كان الملايين الثمانية من آلهة السماء يهجمون على «سوزانو» ويلقون به على الأرض .. ويحلقون لحيته .. وينتزعون الأظفار يديه وقدميه .. ثم يحملونه جميعا ليلقوا به من السماء الى الأرض .

ومنذ ذلك اليوم لم تغب ربة الشمس عن عرشها قط ...

* * *

وعادت الحياة إلى الأرض .. وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجاد التي كانت تنبعث من أهلها .

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد .. ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم السبب .. ولكن الضيق الذي أصاب الآلهة كان مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ماعلى الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار .. فقد كانت كل هذه الأشياء لاتزال تتكلم تماما كأبناء البشر .. وكان الطنين الذي يحدثه كلامها ، خاصة في سكون الليل ، يؤرق آلهة السماء . واجتمع شملهم للبحث عن وسيلة يقضون بها على هذا الضجيج .. وينشدون الهدوء والسلام على الأرض ...

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة في خلال مناقشاتهم .. تقدمت ربة الشمس تعرض أن ترسل حفيدها نينيجي ليحكم هذا العالم المضطرب ويعيد إليه المجد والسلام .. على أن يرسل الآلهة قبل ذلك رسولا يمهد له الطريق . وأعجب الآلهة بفكرة إرسال واحد من أبناء السماء ليكون سيدا على الأرض . واتفقت كلمة الجميع على أن يهبط الى الأرض الرسول أمانوهو ، ليمهد الطريق لابن السماء .. حفيد ربة الشمس .

ومضت سنوات ثلاث ولم يعد أمانوهو . وأرسل الآلهة من بعده ولده يبحث عنه ويعيده . ولكن الابن أعجبته الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط . وتتابع الرسل إلى الأرض .. وتتابعت خياناتهم للسماء .. فلم يكن بد بعد ذلك من أن يهبط حفيد ربة الشمس .. وابن السماء .. نينيجي نفسه .. ليضع حدا لكل تلك الخيانات ...

وقربت أماتراسو حفيدها منها ، ومنحته بركاتها ونصائحها ، وزودته بهدايا قيمة ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء . وكرات شفافة من قبتها ، وسيف خالد وجد في قلب التنين. ولم تكتف ربة الشمس بهذه الهدايا ، بل منحته أيضا المرآة السماوية التي أهداها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة .

وودع نينيجي جدته ، وأخذ طريقه إلى الأرض ، يحيط به موكب من الآلهة ، بينهم ربة الرقص أوزوم ، تلك التي أثارت رقصاتها العربيدة ضحكات الآلهة ثمانية الملايين .

وراح موكب الآلهة يخترق السحب حتى بلغوا مفرق الطرق الخالد حيث يتفرع الطريق الرئيسي إلى ثمانية فروع . وهناك توقف الجميع فجأة ، وبداوا يتراجعون إلى الخلف في ذعر .

وعند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تبرق عيناه بلهب ساخب له فحيح ...

وبدات أقدام الآلهة وبينهم نينيجي تضطرب وتتراجع ، عدا أوزوم التي وقفت في جراة وتقدمت من الوحش سائله عمن يكون وماذا يريد وكيف يجرؤ على اعتراض الموكب الالهي . وأجاب الوحش :

ـــ أنا رب حقول الأرض .. وقد قدمت لأكون في استقبال ابن السماء «نينيجي» سيد الأرض كلها .. ولأكون مرشده الأمين . عودي إلى سيدك ، أي أوزوم ، وارفعي إليه رسالتي .

وأبلغت اوزوم رسالة رب الحقول إلى ابن السماء . وعاد الموكب يستأنف طريقه عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذي تم عبوره وبلغ الموكب بعده أرض تكاشيهي .

وبدأ رب الحقول يرشد ابن السماء في رحلة طويلة مرهقة حول الارض التي كان عليه ان يحكمها ويهديها إلى السلام .. وفي احدى المناطق القدسية استقر رايه على إقامة قصره .

ووجد ابن السماء ان من واجبه ان يقدم شكره لمرشده الامين .. فمنحه زوجة رائعة .. إلهية .. هي اوزوم ربة الرقص نفسها .. وعندما شهد فرحة العروسين .. اجتبى هو الآخر برغبة قوية في أن يفرح كما فرحا .. وراح يطل حوله باحثا لنفسه عن عروس حيث شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور .

وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون . وأجابته الحسناء :

ـــ أنا كونوهانا .. ابنة ملك الجبل المقدس .. ومهمتي ان اصنع الزهور التي تغطي الاشجار على هذه الأرض .

وسرعان ما وقع « نينيجي » في هوى كونوهانا .. فانطلق إلى أبيها .. «أوهوياما» وطلب منه يد ابنته ...

وكان لملك الجبل المقدس ابنة اسمها ايهاناجا ، طويلة كعمود من الصخر ، تكبر كونوهانا ، ولكنها كانت بالغة الدمامة والقبح . ومع ذلك فقد اراد اوهوياما أن يكون لأبناء «نينيجي» أعمار طويلة خالدة كعمر الصخور . ومن أجل هذه الرغبة ابى الا ان يقدم ابنتيه معا زوجتين لابن السماء ...

ولم يجد «نينيجي» بدا من الزواج بالأختين . غير ان كل حبه كان يتجه الى الزوجة الحسناء .. وبدا منه اهمال كبير لشقيقتها المشوهة .

وملأ الغضب قلب ايهاناجا .. ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم في نينيجي :

ـــ لو انك اخترتني واحببتني .. لجعلت عمر ابنائك خالدا مثل عمر الصخور .. اما وقد فضلت على اختي الصغرى .. فانكما وابناءكما ستذوون سريعا كما تذوي الزهور .. !

وقد كان ...

وعاش نينيجي إبن السماء سعيدا مع زوجته الحبيبة كونوهانا . غير ان هذه السعادة لم تدم طويلا ؛ فقد اعمت الغيرة قلب نينيجي ذات يوم .. وملأت راسه بالجنون . ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التي شقيت بها كونوهانا .. فما كان هناك من يغار منه زوجها .. فانطلقت إلى كوخ اغلقته على نفسها .. ثم اشعلت فيه النار ...

ومن بين السنة اللهب خرج ثلاثة أطفال ، كان من بينهم «هوري» .. الذي تسلسلت منه سلسلة مقدسة متصلة الحلقات من «الميكادو» .. هم الذين جلسو على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم .





استطاع « بانكو » أول الخلق في أساطير الصينيين أن يشكل الأرض حوالي عام ٢,٢٢٩,٠٠٠ قبل الميلاد بعد أن ظل يعمل ويكد ويجهد في تشكيلها ما يقرب من ثمانية عشر ألف عام . وتحولت أنفاسه التي كان يلهث بها فتحولت رياحا وسحبا ، وأضحى صوته رعدا ، واحولت عيونه أنوارا ، واستحال لحمه أرضا ، وشعره نبتا وشجرا ، وعظمه معادن ، وعرقه مطرا .. أما الحشرات التي كانت تعلق بجسمه ... فأصبحت آدميين .. وهم أصل وجود البشر .. !

ومع تقدم البشر وتحضرهم بدأت الملوك ، وهم من نسل الآلهة .. يعلمون الآدميين كيف يعيشون حياة نظيفة طاهرة كان أبرز ما فيها إخلاص الأبناء لآبائهم وإقامتهم طقوسا جميلة ، ومن هنا صار حب الآباء مثل العبادة .



وقرر تونج يونج أن يترك غرفته وينطلق ليبيع نفسه في سوق الرقيق

كان تونج يونج قد فكر طويلا جدا قبل أن يترك بيته وينطلق إلى المساحة العامة في المدينة حيث يعرض الأرقاء والمدينون أنفسهم للبيع . ولم يكن تونج قد اتخذ هذا القرار عن يأس من سداد دين أو رغبة في حياة الرق . فقد كان الأمر أبعد من كل ذلك . فهناك .. بين جدران غرفته الحقيرة الضيقة ، كانت جثة أبيه لاتزال تستلقي في سكون ، لاتجد من يستطيع أن يؤدي لها مراسم الدفن ، برغم كل مابذله تونج من محاولات وجهود ذهبت كلها مع الريح .. !

والحق إن تونج حين خرج يبحث أول الأمر عمن يمكن أن يمد له يد العون لسد نفقات دفن أبيه ، لم يكن لديه أمل كبير في أن يجد أحدا . فقد كان بالغ الفقر تماما كما كان أبوه .. والفقير لايجد سوى الفقراء أصدقاء له . وقد كان هؤلاء الأصدقاء فعلا من البؤساء الذين يعجزون عن تقديم أي عون لتونج الذي كان الألم يملأه وهو يجد نفسه غير قادر على القيام بطقوس دفن الأب الذي عاش حياته في ضيق وتقتير من أجل تعليم ولده ، والذي عجز في الوقت نفسه عن ادخار قطعة واحدة من النحاس للمستقبل الأسود الكئيب .

ومع ذلك ، فقد أصر تونج على القيام بطقوس الدفن التي تعارف عليها الناس ، وتخليد ذكرى أبيه بإقامة نصب جميل على قبره يليق بوالد طيب حنون .

ولم يكن أمام تونج لكي يحصل على قطع النحاس والفضة سوى طريق واحد رهيب ، هو أن يبيع نفسه كعبد لأي سيد من الأثرياء .

وانطلق تونج يونج في طريقه الى ساحة الرقيق ، بعد ان وضع فوق كتفه لافتة تحدد الشروط الباهظة لعبوديته ، والاعمال التي يمكن أن يؤديهما بنشاط وإتقان .

وفوق مقعد حجري كبير جلس تونج يونج في انتظار من يشتريه ، وما أكثر من مر به من رجال راحوا يبتسمون في سخرية وهم يقرأون الثمن الباهظ الذي علقه فوق كتفه .

واستمر تونج يونج جالسا فوق الحجر ، لايجد من يشتريه .. !

ومرت الساعات طويلة ثقيلة باردة .. وما من احد يحاول أن يعرض على تونج ذلك الثمن الذي يبغيه . وبدأ اليأس يأخذ بخناقه . واحس بحقارته إذ عجز عن الحصول على سيد يشتريه ، ونهض من مكانه ، ومن عينيه يكاد يطفر دمع غزير . وفي هذه اللحظة ، دخل السوق على صهوة جواد أشهب ، سيد بارز من سادة المقاطعة ، يعرف كل أهلها أن لديه من العبيد بضعة الاف ، ومن الأرض إقطاعيات واسعة الأطراف . ووقف السيد يتأمل الشاب الذي عاد فملأ صدره أملا بعد يأس ، وقرأ الرجل اللافتة المعلقة فوق ظهره ، فصعد بصره الى كل عضو من اعضائه القوية البارزة ، وراح يتأمل وجهه الباسم السمح . ثم التفت الى رفيق كان يصحبه . وامره بأن يدفع للفتى الثمن الذي يبغيه .

وهكذا اصبح تونج يونج عبدا . غير انه احس وهو يستسلم لسيده الجديد ، انه قد حقق أعز امانيه ، إذ كان أول ماصنعه حالما تسلم ثمن حريته ، أن انطلق الى بيته فجهز جثة أبيه واعدها للدفن ، واقام عليه الطقوس العمائرية في تقي وورع ، ووضع بين شفتيه الفضة المقدسة ، وأحرق عرائس الورق بكل أشكالها في النار الطاهرة ، ثم دعا المنجمين والسحرة ليستخبروا الآلهة عن المكان الذي يمكن أن يقام فيه نصب أبيه ، وليختاروا البقعة التي لايقترب منها شيطان او تنين . وعندما تم اختيار مكان الضريح ، انطلق الفتى إلى أمهر الفنانين فشيدوا قبرا من رخام نقشوا على حجارته أبدع النقوش ، ثم نثر على جانبي الطريق قطعا من فضة ونحاس ، قبل أن يعود إلى الدار ليبدأ جنازة أبيه ، ويسير بها في الطريق الى الضريح ليوسدها اللحد ، بعد أن تمت كل إجراءات الدفن كأحسن مايشتهي أغنى الاغنياء .. !

وعندما اتم تونج يونج اداء العمل الصالح الذي كان يبغيه ، انطلق الى سيده الجديد وقد قرر أن يجعل من نفسه خير العبيد .. !

والواقع ان تونج كان أبرز الجميع إخلاصا لسيده وإتقانا لعمله .. وما قصر قط في أمر عهد اليه ، حتى ان السيد قرر في اعماقه أن يسهل له مهمة الحصول على مايساوي أجر حريته .. خلال سنوات قليلة يقضيها لديه .

على أن الاخلاص في العمل لم يمنع تونج يونج من الاستمرار في الحزن على أبيه الطيب الحنون . ولم يكن يترك مناسبة تمر إلا ويزور قبره ومعه اعواد البخور يحرقها امامه ويقيم الطقوس التي اعتادت أسرته القيام بها في مثل هذه المناسبات ، ويوزع على الفقراء ما يشتريه من فواكه ولحوم بالمال الذي كان الجميع يتوقعون ان يدخره ليجمع منه ثمن عتقه .. !

وكان لابد للحزن العميق ، والتفاني في العمل ، مع الارهاق المستمر بغير مايكفي من غذاء ، أن ينتهي بالفتى الى مرض منهك يقعده عن اداء كل شيء . فاذا به ملقى في فراشه بالكوخ الصغير ذات يوم يتقلب على نار الحمى ، ولا احد يرعاه أو يهتم به ، حتى زملاؤه لم يجدوا لديهم من الوقت مايجعلهم يزورونه وهم يقضون نهارهم كله في المزرعة ، ويعودون مع الغروب مرهقين لايكادون يحلمون بشيء قط عدا النوم .. !

وهكذا جاء الوقت الذي بدا فيه تونج يونج يستسلم لموت لابد منه . وغامت عيناه ، وخنقته الحمى ، وراح في إغفاءة عميقة طويلة ...

وبينما تونج في إغفاءته ، إذ راى في حلمه حسناء رائعة الجمال تقترب منه ، وتمد كفها الرقيق الى جبينه ، وتمر باصابعها الطويلة الدقيقة على وجهه . وشعر تونج بما يشبه السحر يسري في جسده المنهوك ، وكأن حياة جديدة قد بدأت تتدفق في عروقه التي كانت قد اخذت تتقلص وتنهار .. !

وفتح الفتى عينيه ، فاذا هو امام حسناء شفيقة تنحني عليه .. لم تكن تختلف قط عن الحسناء التي شهدها في حلمه اللذيذ .

وفي لحظات .. كانت الحمى قد زالت منه ، والحياة الجديدة الرائعة تتدفق في عروقه ، والحسناء لاتزال تحرك اصابعها على وجهه وجبينه وعينيه ، وترميه بنظرات رقيقة حانية فيها سحر فريد عجيب .

وداخل الفتى شعور لذيذ ، فيه راحة وفيه رهبة ، وحاول ان يخرج من بين شفتيه كلمات يسأل فيها من تكون . غير انها اشارت اليه ان يسكت .. وانطلقت تقول له في صوت كأنه يهبط من السماء :

— لاتسألني شيئا أيها الحبيب .. فيكفيك أنني جئت لأعيد إليك قوتك ، ولأكون زوجة لك .. فانهض معي نصلي للسماء !

وكاد تونج يتسمم في سخرية وهي تطلب منه النهوض .. فقد ظل عدة أيام لايستطيع حركة على الفراش قط ...

واحسب الحسناء بما يعتمل في أعماقه . فمدت اليه ذراعيها يعتمد عليه في نهوضه ، ووجد نفسه بالرغم منه يستسلم لها . وإذا به لدهشته يستطيع النهوض بل ويجد في نفسه القدرة على المشي والجري والقفز أيضا .. !

لقد عادت اليه كل قواه .. ولم يعد يحس ألما أو انهيارا أو ضعفا .. !

وأدرك الفتى أن الحسناء كانت صادقة فيما وعدت به من إعادة قواه .. ولكنه لم يدر كيف يمكن تنفيذ وعدها الآخر بالزواج منه ، وهو في ذلك الحضيض من الفقر والبؤس والامتهان .. !

وكأنما احست الفتاة بما يدور بخلده ، فعادت تربت كتفه في حنو كبير ، وقالت له في صوت طاهر نقي :

— لاتخش مسئوليات الزواج .. فسأزودك بكل ماتحتاج اليه .. !

وفتح الفتى عينيه في دهشة ، وراح ينقل بصره بين أسماله البالية .. وملابسها التي بدت فيها هي الأخرى فقيرة ضئيلة كمثيلاتها من بنات الشعب .

وشعر باطمئنان كبير ، برغم الحيرة التي انتابته ، ولم يكد يفتح شفتيه ليتكلم حتى كانت هي قد أخذت بيده ، وجعلته يركع الى جوارها ، ويصلي معها ..

وفجأة رفعت الفتاة كأسا من النبيذ ، لم يعرف من أين جاءت بها ، وأدنتها من شفتيها ثم من شفتيه ، ليشربا معا نخب الزواج ...

وقد كان .. وأصبحت الحسناء الغريبة النقية زوجة طيبة لتونج يونج .. !

***

عاش تونج يونج أيامه التي تلت ذلك اليوم عيشا لم يعش مثله من قبل . فقد بدت له الحياة هنية شهية ، فيها سحر وفيها روعة وفيها جمال ، برغم الحيرة والخوف الغامض الذي كان يملأه وهو يعيش مع زوجه لم يجرؤ قط على سؤالها من تكون ومن أين جاءت .

غير أن تلك الحيرة لم تطل به ، فقد قرر أن يدع كل مايتعلق بماضيها وماضيه ، وأن يعيشا معا حياتهما الجديدة الرائعة .. في ذلك المسكن الصغير الذي لم يعد بارداً جافا حقيرا ، بل صار بفعل قوة سحرية بديعا هادئا ، تغطي حقارته زخارف وزينات صنعتها الحسناء بيديها الرقيقتين العامرتين بالسحر .

ولم يكن ذلك وحده هو ما أسكت يونج عن أن يفكر في حقيقته . فقد كان ثم شيء آخر غريب لم يدر سره .. فقد كانت زوجته الحسناء تقضي نهارها كله وجزءا كبيرا من الليل ، تنسج حريرا لم تشهد مثله المقاطعة من قبل .

لم يدر تونج كيف تصنع « تشي » هذا النسيج العجيب . غير أنه لم يحاول أن يسألها أبدا عن السر الذي لاتريد أن تبوح به . وكان يكفيه أن يأخذ منها النسيج ليعرضه في السوق ، فيلتف حوله كل أغنياء المقاطعة ، ويدفعوا له مكعبات من فضة وهم يطلبون منه كميات أخرى كثيرة هائلة .

وذاع صيت « تشي » ونسيجها العجيب . وبدأ الأمراء والتجار يتوافدون على المقاطعة من كل مكان ، يطلبون مشاهدة النسيج الساحر ، ويتوسلون الى « تشي » أن تعلمهم سر صنعه . ولكن الزوجة الحسناء كانت تهز رأسها وهي تبتسم وتقول :

— أؤكد لكم أن أحدا منكم لن يستطيع صنعه .. فليس بينكم من له أصابع كأصابعي .

والحق أن أحدا لم يكن يستطيع أن يتبين أصابعها خلال قيامها بنسج الحرير . فقد كانت أصابعها تتحرك في سرعة عجيبة كأجنحة نحلة تطير .

واستمرت الأيام تمضي ، ومكعبات الفضة التي يبيع بها تونج يونج أثواب النسيج تزداد يوما بعد يوم وتتراكم في صندوق كبير ، بينما « تشي » تعمل في دأب لانتاج أثواب أخرى كثيرة ، حتى تفي بوعدها الذي قطعته على نفسها حين قالت لزوجها إنها ستزوده بكل ما يحتاج اليه .

ثم جاء يوم ...

وبينما كان تونج يونج يستعد لمغادرة الدار في طريقه إلى السوق قبل الذهاب إلى مزرعة سيده ، نادته زوجته وقالت له :

— لا تخرج اليوم .. فما عاد هناك مايدعوك للذهاب إلى المزرعة !

ولم يفهم تونج ماتعنيه زوجته ، إلا عندما أخذته إلى حيث كان الصندوق الكبير ففتحته ، وأخرجت منه وثيقة تحريره من العبودية ، بعد أن ابتاعتها بمكعبات الفضة التي ادخرتها من أثمان الحرير النفيس .. !
النفيس .. !

ورقص تونج يونج ، وانحنى على زوجته يقبلها ، ثم حاول أن يسجد لها شاكرا فمنعته ، وقالت له :

ـــ الآن قد مضى زمن عبوديتك .. فلا تحاول أن تبيع حريتك بعد ذلك . كن سيد نفسك ، واعمل لصالحك انت وحدك . ولقد اشتريت لك هذا المنزل ، وابتعت باسمك المزرعة التي تحيط به ، ودفعت ثمن غابات شجر التوت . فاصبحت كلها ملكا لك .. !

* * *

ومضى عام جديد .. كان تونج يونج قد اصبح خلاله ابرز افراد المقاطعة وأحبهم إلى قلوب الناس ، وحتى العبيد الذين اشتراهم ليعملوا في ارضه ، ملأتهم احاسيس بأنهم لم يعودوا عبيدا فقط ، بما كان يعطيهم من مال ويمنحهم من عطف ، فاخلصوا له الحب ، كما قدسوا السيدة تشي .. زوجة السيد التي لم يروا منها شيئا سيئا على الاطلاق .

وانجبت « تشي » طفلا رائع الجمال ، كان على جبينه هالة من النور .

وتحدث كل اهل المقاطعة عن ذلك الطفل العجيب ، إذ كان أعجوبة لم يروا مثلها من قبل . فقد ردد وهو بعد في الشهر الثالث من عمره امثال الحكماء ، وعندما بلغ شهره السابع بدأ يتلو الصلوات المقدسة ، وقبل أن يبلغ سن العاشرة كان يجيد الكتابة ويتحدث إلى الكهان ويناقشهم في أصول العبادات .

وكان الفرح يملأ قلب تونج يونج وهو يشهد اعاجيب ولده .. وكان يتحدث إلى زوجته في زهو وأمل بالمستقبل الذي ينتظره .. في حين كانت هي تتابع سروره وزهوه في رضا كبير .

ونهض تونج يونج ذات امسية باردة ، فاحس في اعماقه انقباضا كريها بغيضا ، وشعر كأن اطرافه قد تجمدت .. ونهض الى النار فاشعلها ، واقترب من زوجته فاذا هي راقدة في هدوء ، وعلى وجهها نور وضيء كأنه السحر .. واخذ تونج يونج يتأمل وجه زوجته وهو يراه أكثر جمالا مما كان في يوم من الأيام . واستمر في تأمله وهو ذاهل عن مضي الليل ، وخمود النار ، وسكون الرياح التي كانت تصفر قبل ذلك في جنون .. !

وفجأة .. فتحت « تشي » عينيها ، ونهضت وعلى شفتيها سكون ، ثم مدت يدها اليه .. تماما كما مدتها اليه يوم جاءت لتشفيه .. وسارت به الى حيث كان الطفل يرقد في الفراش .

وكما حدث يوم التقت عيناهما اول مرة ، شعر تونج برعشة رهيبة وعيناه تلتقيان بعينيها .

إلا أن الرهبة التي ملكته ذلك اليوم كان لها طابع آخر غريب ، احس معه بقوة غير منظورة تدفعه إلى أن يسجد امام « تشي » كما يجثو ناسك امام إلهه . وعندما نهض من سجوده ، ورفع عينيه اليها ، انطلقت من بين شفتيه آهة رهيبة ...

فقد كانت « تشي » تنتصب امامه ، طويلة فارعة ، ومن وجهها يشع بريق هائل كأنه الشمس . وسمع صوتها يحدثه في رفق وحنان :

ـــ والآن ايها الحبيب .. لقد حان الوقت الذي أتخلى فيه عنك .. فما عدت بحاجة الي .. بعد أن اديت الك كل ما ارسلني من اجله سيد السماء ، مكافأة لك على حنوك البنوي ، فتجسمت لك في صورة امرأة لانجب لك ولدا جميلا يكون لك محبا رقيقا عطوفا كما كنت أنت نفسك لأبيك .. وبات علي أن أعود الآن الى مقري العلوي .. فأنا .. ايها الفتى الحبيب .. الالهة تشي نيو .. !

ولم تكد تنتهي من كلماتها حتى تلاشى البريق الهائل الذي كان يغمر المكان ، وحدق تونج يونج بعينيه امامه ، فما رأى شيئا قط .. إذ كانت تشي نيو قد ارتفعت الى السماء كومضة البرق الخاطف ..

اما الفراش الصغير .. فقد كان الطفل لايزال يرقد فيه .. ومن وجهه الوضيء يشع بريق رائع .. لا يقل روعة عما كان عليه وجه تشي نيو .



طليعة الوعى الصاعد

تقـــرأ

كتاب الشعب

رقم الكتاب	اسم الكتاب	صدر في
١	**تفسير جزء عم** للأستاذ الامام محمد عبده الطبعة الأولى الطبعة الثانية الطبعة الثالثة	 اول ابريل ١٩٥٧ ١٥ سبتمبر ١٩٥٧ ٢٥ سبتمبر ١٩٥٧
٢	**قصة السموات والأرض** للدكتور محمد جمال الدين الفندى والدكتور محمد يوسف حسن الطبعة الأولى الطبعة الثانية	 اول مايو ١٩٥٧ ١٥ مايو ١٩٥٧
٣	**قصة الجنس البشرى (١)** للدكتور هندريك فان لون	اول يونيه ١٩٥٧
٤	**قصة الجنس البشرى (٢)**	اول يوليه ١٩٥٧
٥	**اعرف نفسك** الدكتور يوستاس تشسر	اول اغسطس ١٩٥٧
٦	**تفسير جزء تبارك** للأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى	اول سبتمبر ١٩٥٧
٧	**الطب للشعب** لفريق من الاخصائيين العالميين	اول اكتوبر ١٩٥٧
٨	**جان كريستوف (١)** رومان رولان	اول نوفمبر ١٩٥٧
٩	**أشغال الصوف (التريكو)** للأستاذة بثينة الكفراوى الطبعة الأولى الطبعة الثانية	 ١٥ نوفمبر ١٩٥٧ ٢٠ ديسمبر ١٩٥٧
١٠	**جان كريستوف (٢)**	اول ديسمبر ١٩٥٧
١١	**على هامش التاريخ المصرى القديم** للأستاذ عبد القادر حمزة	اول يناير ١٩٥٨
١٢	**مائدة الشعب (١)** للأستاذة بسيمة زكى ابراهيم	اول فبراير ١٩٥٨
١٣	**مائدة الشعب (٢)**	اول مارس ١٩٥٨
١٤	**المصحف المفسر (١)** للأستاذ محمد فريد وجدى الطبعة الأولى الطبعة الثانية	 غرة رمضان ١٣٧٧ غرة شوال ١٣٧٧
١٥	**نبى البر** للأستاذ ابراهيم الابيارى الطبعة الأولى الطبعة الثانية	 اول ابريل ١٩٥٨ ٥ ابريل ١٩٥٨
١٦	**المصحف المفسر (٢)**	غرة شوال ١٣٧٧
١٧	**فن الحياة** لأندريه موروا الطبعة الأولى الطبعة الثانية	 اول مايو ١٩٥٨ ٨ مايو ١٩٥٨
١٨	**المصحف المفسر (٣)**	غرة ذى القعدة ١٣٧٧
١٩	**أساطير من الشرق** للأستاذ سليمان مظهر	اول يونيه ١٩٥٨
٢٠	**المصحف المفسر (٤)**	غرة ذى الحجة ١٣٧٧

الكتب السابقة ... بالسعر المخفض

أصدر « كتاب الشعب » حتى اليوم عشرين كتابا بلغت من الانتشار حدا أصبح يدفع المثقفين دفعا الى اقتنائها .

فان إغفالى قراءة كتاب لم يقرأه الا بضعة آلاف ، لا يصل الى اهمية إغفالى قراءة كتاب اقتناه خمسة وسبعون الفا ، وقرأه ما لا يقل عن ثلاثمائة الف ..

وأى كتب ؟ ... إنها كتب – باجماع قادة الفكر – قد سدت فى ميادين المعرفة ثغرات ما كان ينبغى أن تظل فاغرة أفواهها ...

إنها كتب لم تنحرف ، ولم تحاول إرضاء ميول المنحرفين ...

إنها كتب فى الدين ، والعلم ، والأدب ، والفلسفة ، وعلم النفس ، والتربية ، والطب والشئون المنزلية ، والقصص الرفيع ..

صدر الكتاب الأول من كتب هذه المجموعة فى غرة رمضان ١٣٧٦ (أول ابريل ١٩٥٧) فما استدار الحول حتى ازدوجت السلسلة ، فاصبحت سلسلتين ، تصدر إحداهما مع غرر الشهور العربية ، وتنشر فيها الكتب الدينية ودرر التراث العربى والاسلامى ، والثانية تصدر مع أوائل الشهور الافرنجية ، وتنشر فيها الكتب المترجمة من اللغات الاوربية ، فى مختلف فروع العلم العصرى وشتى فنون المعرفة .

اما مشروعنا الثالث فهو « دائرة معارف الشعب »

نصدرها فى منتصف الشهور الافرنجية ، ناطقة بآخر كلمة قيلت فى كل علم ، وفن ، وصناعة .

فمن يتصور أن المكتبة العربية لا تحوى حتى الآن كتابا واحدا فى فن اخراج الكتاب ... الطباعة ؟ وكم يكلف القارىء مثل هذا الكتاب ... اذا صدر ؟

وقل مثل هذا فى سائر الصناعات : كالغزل ، والنسج ، والصباغة ، والتبييض ، ودباغة الجلود ، والنجارة ، والمعمار ، والاشغال المعدنية ، والكهرباء ، والطيران ، والسيارات ، والتعدين ، والحديد والصلب ، والزجاج ، والخزف ، وطلاء المعادن ، والسينما ، والبلاستيك ، والراديو ، والساعات ، وصناعة الأحذية ، والتفصيل والحياكة ، وصناعة الكاوتشوك ، والأدوات الطبية ، والصناعات الزراعية بمختلف انواعها . وليس هذا حصرا ، ولكنه ضرب امثال ..

وقد رأينا – ونحن نعد « دائرة معارف الشعب » – أن فريقا كبيرا من قراء « كتاب الشعب » قد اقبلوا مع الكتب الاخيرة ، وانهم قد فاتتهم الكتب الاولى .

ولما لم يكن مشروعنا تجاريا ، فقد رأينا الا نكلف قراءنا مشقة الحصول على الكتب السابقة بالسعر العادى .

ولذلك اعتزمنا إعادة طبع هذه الكتب ، وإعادة نشر طوابعها كتابا كتابا ، على أن يبدأ نشر طابع الكتاب من الحادى عشر من الشهر الافرنجى ، ويعرض فى اليوم الحادى عشر من الشهر الذى يليه .

وسيبدأ نشر طابع الكتاب الاول من ١١ يونية القادم ، وذلك حتى تقبل على اقتناء « **دائرة معارف الشعب** » وقد استكملت مجموعتك من الكتب السابقة بالسعر المخفض .

« كتاب الشعب »

الثمن ٢٠ قرشا